



# السُّلْطَانَتَانِ خُرَّمٌ وَمِهْرِمَاهُ

ترجمة القانوني وسليمة



جان البجورنج

دار النيران



# السُّلْطَانَتَانِ خَرَمٌ وَمِهْرَمَاهُ

ترجمة القانوني وسليمت

لقد كانت الهواية المفضلة لدى النساء العثمانيات هي الأعمال والأنشطة الخيرية، فلقد ضربت السلطانات العثمانيات أروع الأمثلة في القيام بأعمال الخير ومد يد العون إلى الفقراء والمحتاجين، حتى أصبحت الأعمال الخيرية ميدان سباق ومنافسة فيما بينهن، بل إنهن جعلن الأعمال الخيرية منهج حياة يسرن عليه، ويبدلن لضمان استمراريته العالي والنفيس، فلقد قمن بتشديد العديد من الجوامع والمدارس والأوقاف والمستشفيات والحمامات وسبل المياه، إلى جانب العديد من الأنشطة الخيرية الأخرى...

وبناء على ما سبق: فإن السلطانة "خرم" وابتتها السلطانة "مهرماه" كانتا سيدتين محبتين للخير، مسارعتين إلى بذل الجهود وإنفاق الأموال لتحقيق ذلك...

وهذا بخلاف ما عمّد إليه أعداء الدولة العثمانية من تزييف للوقائع وتزوير للحقائق، ضمن سلسلة من المحاولات لتشويه صورة هاتين السيدتين الخيرتين...

لقد حافظت مجموعة من الأوقاف والأعمال الخيرية على صفة العطاء والبذل وخدمة الناس إلى يومنا هذا حتى رأيناها بأم أعيننا، ونرجو من الله أن تبقى هذه الأوقاف شامخة حتى تراها الأجيال المتعاقبة من بعدنا إلى الأبد...

ISBN 978-9776183285



9 789776 183285



السُّلْطَانَتَانِ  
خُرْمٌ وَمِهْرْمَاهُ  
قرينة القانوني وسليمت



السلطانان  
**خُرْم ومِهْرَمَة**

قريئة القانوني وسليفته  
Copyright©2014 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل كاهار

مراجعة

يوكسل جليبار

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-28-5

رقم النشر

1011

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة، 22 حـ - جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش الواسكة - المي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

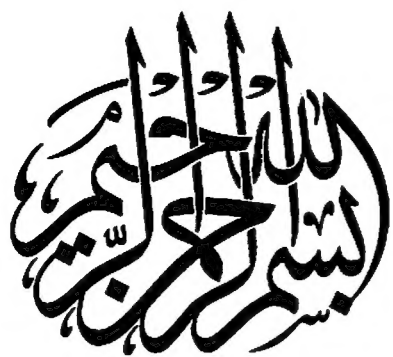
www.daralnile.com

القاهرة - 2014م

السُّلْطَانَتَانِ  
خُرْمٌ وَمِهْرْمَاهُ  
قرينة القانوني وسيلته

تأليف  
جَانُ أَلْبُجُونُجْ  
(Can Alpgüvenç)

ترجمة  
د. وليد عبد الله القط



## سيرة ذاتية للمؤلف

ولد جان ألبجُونج (Can Alpgüvenç) في إسطنبول عام (١٩٥٤م)، وتخرج في كلية الاقتصاد بجامعة إسطنبول، عمل في إدارة إحدى الصحف القومية بين عامي (١٩٧٠ و ١٩٨٤م). بعد ذلك عمل رئيسًا للتحريير في العديد من المجلات كان في مقدمتها "مجلة سور"، وقدم العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، وفي الوقت الحالي يتابع الكاتب أبحاثه التاريخية، وهو متزوج ولديه ابنة واحدة.

هناك العديد من الأعمال التاريخية المنشورة لهذا الكاتب، وهذه طائفة من أسماء تلك الكتب:

- موت فرعون
- السلطانات المتسابقات في الخيرات
- من أعلام العثمانيين
- السلطان عبد العزيز والباشاوات المتمردون
- العدالة الصامتة
- البستان وروضة الورود
- إسطنبول العثمانية وآثارها





## فهرس

١٣	مقدمة.....
٢٣	السُلطانة "خُرْم".....
٢٦	البنّت اللطيفة اسمها "خُرْم".....
٢٨	اللوّحات المُجسّدة لصورة "خُرْم".....
٢٨	لم يكن السلطان القانوني مُولعًا بالنساء.....
٣١	السلطانة الوالدة.....
٣١	فرحتا السلطان.....
٣٤	"لا أنكرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر".....
٣٥	من مسؤول الجناح الخاصّ إلى منصب الصدر الأعظم.....
٣٧	مجمع السلطانة الوالدة حفصة.....
٣٨	زفاف ليس له مثيل!.....
٤٠	إلهي لا تخذل أُمَّة محمد المسلمة!.....
٤٣	كَلَامُكَ خُلُوٌّ وَوَجْهُكَ وَجْه يوسف.....
٤٦	نَصْرُكَ الله على الكافرين.....
٤٩	حصار فيينا.....
٥١	وفاة السلطانة الأمّ "حفصة".....

- ٥٤ ..... استسلام بغداد بدون مقاومة
- ٥٦ ..... إن شعرةً من شاربكم المبارك أغلى عندي
- ٥٩ ..... مقتل "إبراهيم باشا"
- ٦٥ ..... ما ذنب "خُرْم"؟
- ٦٦ ..... البحرُ الأحمرُ يصبحُ بحيرةً تركيةً
- ٦٨ ..... أرجو من الحق تعالى أن.....
- ٧١ ..... حدثَ اليم: وفاة ولي العهد محمد
- ٧٢ ..... ثلاثٌ وخمسون رسالةً أُرْسِلَتْ إلى ملك بولندا
- ٧٣ ..... سيروا بأمر الله.....
- ٧٥ ..... هل "السلطانة خُرْم" هي المخطئة أيضًا!
- ٧٧ ..... ادعاءاتٌ واتهاماتٌ لا سنَدٌ لها
- ٨٠ ..... مجموعةٌ هدايا بقيمة عشرة آلاف ليرة
- ٨٢ ..... فلخُصِفَ به كما خُصِفَ بـ"قارون"
- ٨٤ ..... السلطانةُ تنقلُ المعلوماتَ إلى السلطان:
- ٨٥ ..... شائعاتٌ حولَ "القانوني"
- ٨٧ ..... سقوط الأمير في الفخ.....
- ٨٨ ..... أيهما ينتصر: عاطفة الأبوة أم الحرص على سلامة الدولة ويقائنها؟
- ٨٩ ..... لقد اختار بقاء الدولة.....
- ٩٠ ..... فقَدَ السلطان ولديه في شهرٍ واحدٍ.....
- ٩٢ ..... إتهاماتٌ ظالمةٌ في حقِّ "القانوني" وزوجته
- ٩٦ ..... هل كان القانوني متيماً بـ"السلطانة خُرْم"؟

- رجلُ دولةٍ عاشقٌ للعدالة..... ١٠٠
- آه يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ وأما نحنُ؟!..... ١٠٢
- الأبناءُ الذين يَتمَرِّكونَ على الآباءِ..... ١٠٤
- أينَ هيَ الرسائلُ المُرَوِّرةُ؟..... ١٠٥
- وفاةُ "السلطانة خُرْم" عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والسَّتينَ..... ١٠٧
- الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيع..... ١٠٩
- حكاياتُ ملفَّقةٌ من نسجِ الخيال..... ١١٢
- هدفهمُ معاداةُ الدولةِ العثمانيةِ..... ١١٣
- أعمالُ "السلطانة خُرْم" الخيرية..... ١١٩
- أفضلُ الأعمالِ الخيريةِ هو تأسيسُ وقفٍ..... ١١٩
- المجمع الذي بُنيَ مكانَ سوقِ "أَوْرَت" (Avrat)..... ١٢١
- كلمةُ "محمد" بالخطِ الكوفي..... ١٢٤
- هل المعماري "سِنان" هو من أنشأ الجامع؟..... ١٢٨
- اللوحاتُ الخزفيةُ المفقودةُ..... ١٣٠
- المدرسةُ تَحَوَّلَت إلى ملجأ..... ١٣٢
- لا يليقُ بالإنسانِ اللجوءُ إلى (الواسطة)..... ١٣٦
- دارُ "خَاصَكِي" لإطعامِ المساكينِ إحدى روائعِ "سنان" المميزة..... ١٣٩
- اثنتانِ وثلاثونَ كيلو جرامًا من اللحمِ يوميًّا..... ١٤٠
- التعليمُ الدينيُّ في مدارس الصُّبَّيان..... ١٤٤
- حديقةُ ألعابٍ للأطفال..... ١٤٦
- سبيلُ الماءِ..... ١٤٧

- مشفى "خاصكي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر ..... ١٤٩
- فناء المشفى ذو الحوض ..... ١٥٠
- الكلمة الفظة توجع المريض ..... ١٥١
- العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى ..... ١٥٤
- كان مشفى الوقف مركزاً علاجياً ..... ١٥٦
- خمسة وثلاثون عامًا في إدارة الشؤون الدينية ..... ١٥٨
- حمام "خاصكي" الكائن في منطقة السلطان أحمد ..... ١٥٩
- نوافير على شكل الحيتان ..... ١٦١
- حمام تحول إلى خزان للبنزين ..... ١٦٢
- دار "خاصكي" لإطعام المحتاجين في القدس الشريف ..... ١٦٤
- الطعام كان يوزع على المسيحيين أيضًا ..... ١٦٥
- "السلطانة مِهْرِيَاة" ..... ١٧١
- قَمَلَة تشكّل المستقبل ..... ١٧٥
- صدرًا أعظم في سنّ التاسعة والثلاثين ..... ١٧٦
- عزاء لملك بولندا "زيجموند" ..... ١٧٨
- تكفي يد واحدة ولا داعي أن تمتد الأخرى ..... ١٨٢
- "بيازيد" لا يابئه بالنصيحة ..... ١٨٥
- نهاية "بيازيد" الحزينة ..... ١٨٧
- مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه" ..... ١٨٩
- كل شيء خاضع لقدرة إلهية ..... ١٨٩
- وفاة السلطانة الخيرة! ..... ١٩١

أعمال "السلطنة مهريمة" الخيرية .....	١٩٣
"السلطنة مهريمة" تتأفّس الآخرين على نيل الثواب والأجر .....	١٩٣
مجمع "السلطنة مهريمة" في "أسكودار" .....	١٩٣
براعة المعماري "سنان" في هذا الأثر .....	١٩٧
الساعة الشمسية الموضوعة في القسم الجنوبي .....	٢٠١
بساطة تليق ببنت السلطان .....	٢٠٥
باب منقطع النظير في الزخرفة .....	٢١٠
ضريحان بلا تاريخ أو كتابة عليهما .....	٢١١
خمس قطع من النقود الفضية للطالب المجتهد .....	٢١٣
السبيل العام الذي تم تأجيله .....	٢١٥
القصر العظيم المشيد على هضبة السلطان .....	٢١٨
المنزل الكبير الذي تم تفجير به بالديناميت .....	٢١٨
دار إعداد الطعام التي هُدمت بحجة شق الطريق .....	٢١٩
مجمع "السلطنة مهريمة" في "أبرته قايي" .....	٢٢٢
جامع مضيق وواسع .....	٢٢٦
ترميم الجامع بدأ في عهد "مندرّس" .....	٢٢٧
ضريح "سمير أحمد باشا" .....	٢٣٠
الحمام المزدوج الذي تحول إلى ورشة لتصنيع الخيوط .....	٢٣٢
قناة للمياه تحت الأرض بتكلفة خمسين مليون في مكة .....	٢٣٥
وقف قراءة القرآن على روح الرسول ﷺ .....	٢٣٨
المصادر .....	٢٤١





## مقدمة

كانت مراعاة الدولة العثمانية للإنسانية مراعاةً عظيمةً وغيرَ مسبوقة، فقد اتّسمت الدولة العثمانية بالتسامح مع مختلف الأديان والمعتقدات، إلى جانب سعيها الحثيث نحو ضمان الحقوق وحريات الشعوب، وقد استمرت على تلك الحال قرابة ستّة قرون، استطاعت خلالها تكوين قوّة عظمى تهيمن على العالم، وكانت هذه السمات بمثابة الركائز الأساسية التي جعلت الدولة العثمانية تعتلي مكانة مرموقة على رأس دول العالم، بحيث يمكننا أن نقول: إن هذه المكانة ستظل آثارها باقيةً إلى أن يشاء الله.

\*\*\*

فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا إلى المهندس المعماري الكبير "سنان" الذي عاش في العصر الذهبي للدولة العثمانية، نجده يعمل بكلّ جهد وعزم، ويتجوّل في الأماكن والبلدان الأخرى فيلاحظ ويسجّل مُشاهداته، كالبرّجل الذي نرى إحدى ساقيه ثابتةً ومستقرّة في مكانها وساقه الأخرى تتحرّك هنا وهناك، لقد استطاع هذا المهندس المعماري أن ينحت اسمه في تاريخ الهندسة المعماريّة العالميّة بحروفٍ من ذهب، وأن يحقّق نجاحًا باهرًا يظهرُ جليًّا في نحو أربعمئة تُحفّة معمارية، منها مائة وستة وثلاثون مسجدًا في ربوع الإمبراطورية العثمانية، وسبعة وخمسون مدرسةً، والعشرات من الأضرحة، ودور تحفيظ القرآن، والمشافي،

وقنوات المياه، ومياه السيل، والحمامات، والجسور، والأقبية، والتُّزُل<sup>(١)</sup>، والقصور، ودور إطعام المساكين.

وتحكي لنا "ديل" (Diehl) الخبيرة في تاريخ بيزنطة، وهي مُبْهَرَةٌ بِتُحْفَةِ "السُّلَيْمَانِيَّةِ" التي بناها "سنان"، فتقول:

"إنها أَكْثَرُ رُوعَةً وَجَلَالاً من كاتدرائية جُستِيان (Jüstinyen) (أياصوفيا)."

وفيما يتعلق بمسجد "السُّلَيْمِيَّةِ" الذي نجح المعمارى الفذ "سنان" في تغطية مساحة كبيرة منه بِقُبَّةٍ واحدة، وأخرجه تحفةً معماريةً فائقةً الدقة والجمال فيقول:

"لقد كان أساطينُ المعمار في الغرب يزعمون أنهم قد انتصروا على المسلمين؛ لعدم تمكُّنهم من بناء قُبَّةٍ واحدة في الدولة الإسلامية تُضَاهِي قُبَّةَ (أياصوفيا)، وكانت حجتهم في ذلك أنه من الصعب على المسلمين إنشاء قُبَّةٍ كبيرة بهذا الحجم كتلك الموجودة في "أياصوفيا"، فلقد أذمَّتْ هذه الكلمات قلبي، وبعثت في داخلي روح المنافسة."

فما كان من ذلك المعمارى الفذِّ إلا أن اجتهدَ بكلِّ ما أُوتِيَ من قوَّةٍ ومهارة، حتى استطاع أن يُخَلِّفَ لنا في تاريخ العمارة تحفةً "السُّلَيْمِيَّةِ" الرائعة، التي فاقت في روعتها وجمالها ودقة بنائها (أياصوفيا).

\*\*\*

وعلى مستوى آخر، فإننا إذا عقدنا مقارنةً بين الوضع الذي كانت عليه مدرسة الفاتح، والوضع الذي كانت عليه جامعة "فرانكفورت" (Frankfurt) أو "السوربون" (Sorbonne) في بدايات القرن السادس عشر، فنلاحظ تلك النتائج المُبْهَرَةَ:

(١) التُّزُلُ: بمعنى المنزل، وهي تطلق قديماً على أماكن الإقامة العامة، مثل الفنادق حديثاً. (المترجم)

وهي أنه في الوقت الذي كانت جامعة "السوريون" تشتمل على أحد عشر كتاباً في الطب، وجامعة "فرانكفورت" اثني عشر كتاباً، كانت مدرسة الفاتح تشتمل على تسعمائة وستة عشرين كتاباً في الطب.

بل إن سبعة من الكتب الموجودة في جامعة "السوريون" و"فرانكفورت" كانت عبارة عن ترجمات للعالمين "البیروني" و"ابن سینا"، فهذه المميزات التي امتازت بها مدرسة الفاتح عن غيرها من الجامعات، نجدها تزداد ازدهاراً بحلول منتصف القرن السادس عشر.

لقد كان عصر السلطان القانوني يُمثّل حِقْبَةً فريدة قامت على أيدي فنّانين مبدعين، حيث ظهرت في تلك الفترة أعمالٌ فنيّة بلغت الغاية والذروة في الروعة والإبداع؛ كتلك التي نراها في مجالات العمارة العثمانية والفنّ والخطّ والشعر والأدب والتذهيب<sup>(٢)</sup> والزخرفة والتطريز والمشغولات الخشبيّة.

كما برّز في تلك المرحلة شعراء عظام كثر، يكاد يكون على رأسهم السلطان سليمان نفسه بمُخلّصه الشعريّ "مُحِبِّي" الذي فتح الباب أمام ظهور روائع أخرى تأثرت بها بعد ذلك، هذا إلى جانب إبداعات شعراء آخرين؛ مثل: "فضولي" و"باقي" وغيرهما، كما لَمَعَ في ذلك العصر أيضاً الفنّان "قَرَاهِصَارِي" (Karahisari) الذي برّغ في فنّ الخطّ وأمتع الأُمّة بكتاباتهِ الفتيّة الجميلة، أما في علم القانون فقد ظهر رجالٌ أفاضوا مثل: "زُمَيْلِي علي أفندي" (Zembilli Ali Efendi)، و"ابن كمال أفندي"، و"أبو السعود أفندي"، وفي التاريخ نجد علماء أكفأ، كأمثال: "سَالَانِيكِي" (Selânikî)، و"عالي"، و"رَمَضَان زَادَه" (Ramazanzâde)، وفي الجغرافيا نجد: "بيري رئيس" (Piri Reis)، و"سيدي علي رئيس" (Seydi Ali Reis)،

(٢) التذهيب: هو فنّ التزيين بماء الذهب والألوان. (المترجم)

وأما فيما يتعلّقُ بأساطينِ البحرِ فإننا نجدُ عمالقةً في هذا المجال منهم: "بارباروس (Barbaros)"، و"بيالَه باشا (Piyale Paşa)"، و"تُوزْغُوث رئيس (Turgut Reis)".

وفي الآونة الأخيرة، نرى ثلّةً من الكتاب -من غير الأتراك- ممن يحملون الجنسية التركية اسمًا فقط، لكنهم يتسببون في الحقيقة إلى هويات أخرى، وقد تَجَاسَرَ هؤلاء الكتاب وتجرّؤوا، فأخذوا يوجهون أكاذيبَ وافتراءاتٍ مثيرّةً للاشمئزاز، في حق الدولة العلية العثمانية وحكّامها الأبطالِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى في حقّ نساء القصر اللواتي كنّ يعشن في الجناح الخاصّ بالحريم.

كان هؤلاء الكتابُ المُدَّعون الذين يعملون لصالح جهات وأجنداتٍ خارجيةٍ مختلفة، يُرَدِّدون ادعاءاتٍ باطلةً لا أساسَ لها من الصحة، متنبّئًا كُتّاب ومؤرّخون أجانب يُناصبون الدولة العثمانية العداء؛ في مُحاولَةٍ منهم إلى تقليصٍ وتحجيم دور تلك الحضارة الفريدة التي أثّرت العالمَ لعدة قرون مُدَّعين أنها حضارة الدم والسيف ويقول أحد الذين اتَّخذوا لأنفسهم اسمًا تركيًّا -مع أنه غيرُ تركيٍّ أصلًا- وهو يتحدّث عن السلطان سليمان وولّي عهده الأمير مصطفى:

"ولقد أمرَ سليمان جنوده المقرّبين بخنق ابنه وولّي عهده (مصطفى)... وجلس داخلَ خيمةٍ مجاورةٍ يستمعُ إلى أنينِ ابنه وولّي عهده -الذي كان يقبله ويشمّه عندما كان صغيرًا- وقد شرع الجلاّدون يخنقونه بصميتٍ خبيث.. ياللعجب..! أترى هذا حسنًا؟!".

وهكذا نرى هذا الكاتب يمدُّ يدَ الافتراءِ على هذا الحاكم العادل الذي كان قلبه عامرًا بالرحمة والمحبة، والذي كان يراقب نفسه ويخشى ربّه في معاملته لرعاياه حتى في أبسط الحقوق.

لكننا إذا أمعنا النظر والتدقيق في هذه الحادثة نجدُ أن الأمير مصطفى قد اتخذ بالفعل، وحاول القيام بشورةٍ على الدولة وعلى والده، أما السلطان سليمان القانوني فقد قام من جانبه بتقصّي الحقائق والتأكد من صحّة هذه الادّعاءات عن ابنه، واعتمد في هذا الصدد على مصادرٍ مختلفةٍ وحاسمةٍ ودقيقةٍ تُمدّه بالمعلومات، حتى توصّل في نهاية عمليّة البحث والتحري إلى أن ابنه مصطفى كان يسعى بالفعل إلى التمرد عليه؛ كي يستولي على الحكم.

كان السلطان القانوني يهتم بالشرعية ويولي الدولة أهميّة فوق كلّ شيء، فكان يحرص أشدّ الحرص على عدم إتاحة المجال أمام أيّ فرصةٍ قد تؤدّي إلى إلحاق الأذى بالشعب، أو إلى نشوب حربٍ أهليةٍ تُزاق فيها الدماء، لقد كان حرصه على الدولة فوق أيّ ضعفٍ أو عاطفةٍ إنسانيةٍ، فلو لا تصدّيه لاستمرار ابنه في الانحراف عن جادة الطريق، ولولا أنه منع ابنه من اقتراف الأعمال المؤدّية إلى نشوب الصراعات بين الإخوة من أجل الوصول إلى الحكم؛ لولا ذلك كلّه لكانت النتيجة الحتميّة هي تفكّت الدولة وانهيارها.

لقد كان شغلُه الشاغل مُنصبًا في المقام الأول على حماية وحُدة الدولة ونظامها وقوانينها، واستحوذ شعورُ الحفاظ على الدولة وكيانها على كامل عقله ووجدانه، بحيث صار مُقدّمًا على ما سواه من مشاعر الشفقة والأبوة.

إن الادّعاء بأن سليمان القانوني كان يُتابع عملية إعدام ابنه من الغرفة المجاورة، لهُوَ مَحْضُ ادّعاءٍ ملفّي واقتراءٍ زائفٍ وعاٍ تمامًا من الصحة، ولا يعدو كونه تزييفًا للحقائق.

فقد رُوِيَ أن السلطان سليمان أراد أن يؤمَّ المصلين في صلاة الجنازة على جُثمان ولده، إلا أنه اضطرَّ إلى الخروج من الصلاة وعدم إكمالها بسبب البكاء الشديد الذي سيطر عليه رغمًا عنه.

هل من السهل على أب أن يضحي بفُلْدَةٍ كبده، ويقتل ابنه الأكبر الشجاع!

لقد تَرَدَّد كثيرًا بين "بقاء الدولة" و"عاطفة الأبوة"، حاسمًا أمره في النهاية باختيار طريق التضحية بعواطفه من أجل بقاء وسلامة الدولة.

وإذا كان البعض يحاول استغلال الشعور بالشفقة تجاه الأمير مصطفى، فلا يفوتنا أن نتذكَّر أنه كانت هناك حروب طاحنة بين السلطانين "بايزيد" (*Bayezid*) و"جَم" (*Cem*)، وكلاهما من أبناء السلطان "الفتاح"، وقد قُتِل من جرَّاء تلك الحروب مئآت الجنود، كذلك فقد كانت بين "بايزيد" ووليِّ العهد "سليم"، -وهما من أبناء السلطان القانوني- صراعات سَقَط ضحيتها أبطالٌ وصناديد، وعلى الرغم من هذا، فلا نرى من يترحم على هؤلاء الضحايا الذين سقطوا من جرَّاء تلك الحروب، بل إن أحدًا لم يكثر لهم على الإطلاق.

إن الهاجس الوحيد لدى أتباع المدرسة الغريية الذين يسرون على خطأ سادة العالم الغربي، ممن تحملُ ظهورهم آثارَ ركلةِ العثمانيين، هو رغبتهم في تشويه سُمعة هذه الدولة العظيمة التي حكمت العالم لقرون، فصار شغلهم الشاغل هو الانتقام منها ومحاولة تشويه تراثها العريق.

\*\*\*

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن جناح الحريم، فإن مما ينبغي لنا أن نعلِّمه -أولًا وقبل أي شيء- أنه دارٌّ تابعة للسلطان، ومستودعٌ لأسراره.



وإن الهجوم بأبشع الأساليب على الحياة الأسرية الخاصة والمسائل الشخصية المتعلقة بالعثمانيين، وتحريف الأحداث والوقائع التي عايشوها، وتصويرها من خلال جوٍ مثير وشهواني، كل هذا ما هو إلا سموٌ نفتتها بُؤرٌ خارجية شريرة، والحقيقة أن جناح الحریم كان يُعتبر لدى العثمانيين بمثابة المهد، الذي تنشأ وترعرع فيه الأخلاق والعلم والتربية.

والجواري اللواتي سَنَحَتْ لهنَّ الفرصة للتواجد في جناح الحریم كانت كل واحدةٍ منهنَّ يتم تدريبها على آداب وأخلاق المعاملة وفقاً لقدراتها، ويتم كذلك تعليمها القراءة والكتابة وأحكام القرآن الكريم والعلوم الدينية، هذا إلى جانب فنون الأدب والموسيقى والتطريز، والمثالث من هؤلاء الجواري قد تزوجن بموظفين قد تخرجوا من "أندرون" (Enderun)<sup>(٣)</sup> ونجحوا في إدارة الدولة.

• • •

أما السلطانة الثقيفة الخيرة "خرم" زوجة السلطان سليمان القانوني، فقد كانت واحدة من النساء اللواتي امتلأت سيرة حياتهنَّ بأباطيل صاغتها السنة الدُمدمة المحلية والأجنبية؛ حيث أخذت هذه الألسنة تُلَقِّق في حقها قصص الشر والتآمر المختلفة، وتنسب إليها كل فعل مُشين.

لقد كانت الأعمال الخيرية للسلطانة خرم مُنصبةً بشكل رئيسي على مساعدة النساء العثمانيات؛ حيث لم تكن هذه الأعمال الخيرية مقتصرة على رجال الدولة العثمانية، بل شملت النساء عموماً، من داخل

(٣) (أندرون) هو الاسم الذي كان يطلق على الدرجة الأولى من رجال الإدارة الذين يتمون إلى "الجناح الخاص" الذي يعتبر في الدولة العثمانية مؤسسة هامة للغاية ويحتل المكانة الأولى. وكان أحد الأختام الأربعة للسلطان موجوداً في (الجناح الخاص). وكان هؤلاء الرجال يتحركون مع السلطان أينما ذهب، ويقومون بتلبيس السلطان الملابس في المراسم والمناسبات. وكانوا يُعتبرون في البروتوكول على درجة مساوية لدرجة الوزير.

قصر السلطان أو حتى من خارجه، وشملت أكثر هذه النفقات الفقراء والمساكين والمرضى والمُعْدَمِينَ، وهذا دليلٌ على رحمة السلطنة خُزْم وعلى مدى حبّها للخير.

لقد كانت الثقافة الرئيسيّة لدى هؤلاء النساء هي خدمة جميع أفراد المجتمع، من خلال إنشاء المراكز العلميّة من مساجد ومدارس دينية، بالإضافة إلى تَشْيِيدِ العمائر والمُسْتَشْفَيَات، والحمامات، والتُّزَلِّ، والنوافير، فإذا تَبَعْنَا هذه الناحية من حياتهنّ نجد أنّهنّ قدَّمْنَ خدمةً كبيرةً للمجتمع من خلال بناء منشآت عامّةٍ خيريّةٍ ضخمةٍ.

\*\*\*

هذا، وقد تَحَدَّثْتُ في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "السلطانتان: خُزْمٌ وَمِهْرْمَاهُ قَرِينَةُ الْقَانُونِي وَسَلِيلَتُهُ" عن شخصيّتهما النمودجيتين، مُحَاوِلًا الكشف عن حقيقة هاتين السيدتين اللتين تَعَمَّدَ الْكِتَابُ الْمُعَادُونَ للدولة العثمانيّة تصوّيرَهُنَّ على نحوٍ مغايرٍ للحقيقة؛ رغم أنّهما عَرَفْنَا بِمَحَبَّتِهِمَا لأعمال الخير وبناء الأوقاف الخيريّة، وفي النهاية فإنني أترك هذا الأمر إلى ضمير القُراء؛ كي يَتَبَيَّنُوا حقيقةَ هذا الأمر بأنفسهم.

كما تناولتُ بالشرح الحديث عن "مَجْمَعِ خَاصَكِي" الذي تَمَّ بِنَاؤُهُ من قِبَلِ المهندِسِ المعماريِّ "سِنَان"، وذلك بتكليفٍ من "السلطنة خُزْم" في المنطقة ذاتها التي صارت تحمِلُ اسمها فيما بعد.

حيث كان النظامُ المُتَّبَعُ الذي أمرت به السلطنة خُزْم في هذه الدار أن يَتِمَّ توزيعُ الطعام بشكل مُتَسَاوٍ على كلّ من المُسْلِمِينَ والمسيحيّين.

\*\*\*

أما "مِهْرِمَاهُ" الابنة الحبيبة للسلطان سليمان، فقد يَنْتُ أنها كانت سبباً في تحقيق خيرٍ عظيمٍ للبلاد والعباد، من خلال تكليفها المهندس المعماريَّ البارِع "سِنَان" بإنشاء مَجْمَعَيْنِ عِلْمِيَّيْنِ كبيرين؛ أحدهما قَرَبَ ساحلِ "أسكودار"، والآخر في "أَدِرْنَه قَايِي" (Edirnekapi)، بالإضافة إلى تشييد المؤسسات الاجتماعية والدينية؛ مَرْضَاةَ اللَّهِ ﷻ ولرسوله ﷺ ورغبةً في نَيْلِ الشفاعة.

إن أعداء الدولة العثمانية من الكُتَّاب الذين تحرَّكهم أصابعُ الغدير الخارجية الحاقدة لا يزالون يتناولون على الدولة العليَّة العثمانية عن طريق الهجوم على السلطان سليمان القانوني من خلال اختلاق الأكاذيب حول زوجته "السلطانة خُرَّم"، كما نراهم يذلون قُصارى جهدهم من أجل تشويه النواحي الإيجابية التي أَوْزَنْتْهَا الدولة العثمانية للأجيال المتعاقبة من بعدها.

لكن أطماع هؤلاء الكتاب لن تتحقق؛ لأن فهم وإدراك الشعب قد بلغ درجةً من السُّمُو والرُّقْيِ الأخلاقي تجعله لا يندفعُ بمثل تلك الترهات الفارغة والأباطيل المكذوبة.

إنني لأشعر بالفخر في المقام الأول بالصدقة التي كانت سبباً لما وجدته من مساعدات قيِّمة أثناء إعداد هذا الكتاب، وأتوجّه بالشكر والعرفان بالجميل إلى كل من السيد "محمد نِيَازِي" (Niyazi)، والأستاذ المساعد الدكتور "علي كايا" (Kaya) وصديقي الشاب الدكتور "سليمان كراجليل" (Karacelil)؛ على ما أسدَّوهُ إِلَيَّ من عون ومساعدة.

جَانُ أَلْبُجُونُج (Can Alpgüvenç)

إسطنبول/٢٨ آذار/مارس ٢٠١١م



"يا رباح الصِّبا! املِكِ لسلطانِي عن مالي المولم التميمي، قولي له:  
إن وردتْكَ عندما يفتقدُها وجربكِ يصيحُ حالها كالبلبل الذي يصرخ  
ويصيح!"

"السلطانة مُرَّم"



## السلطانة "خرم"

توشح المساء بوشاح الحمرة عند غروب الشمس، ضمن منظرٍ خلّابٍ أشبه ما يكون باللوحة الفنيّة، حيث تبدو الشمس وكأنّها كرةٌ من اللهب تنزل إلى سفوح "جيهانجيز" (Cihangir) متناغمةً مع الغيوم كأنّها تقودهم من حولها.

وأما تلال "جمليجا" (Çamlıca) فهي تلوح في الأفق بقممها، فتبدو للناظرين كأكوام ذات خطوطٍ حمراء.

وقطّع الغيم تسبح في سماء إسطنبول، مُلتحفةً بقمائشٍ مُغزّبلٍ أرجوانيٍّ ثَقِيلٍ أما برج "جلطة" (Galata) الشامخ فقد تتوّج بالنيّران.

"السلطانة خُرم"، تشعر وكأنّه قد شَبَّ في قلبها حريق.

إن مشاعر الجارية الشابة قد اشتعلت في جنباتها، وهي مُحمّلة بالحب الوحيد الذي في قلبها إلى السلطان سليمان القانوني.

وجنّاتها الورديتان تبدوان كزهرتين تضيئان من لهيب تحت حُمرّة الشمس الغاربة... فهي ترتدي رداءً بديعاً من الحرير المُحمّل الذي ينساب على جسدها الرقيق، وقد طُرزت عليه الورود بخيوطٍ من ذهب.

\*\*\*

تقدمت "السلطانة خُرم" برشاقتها المعهودة تمشي على البُسْطِ الفارسية الفارِهة، ثم جثت على ركبتها أمام الطاولة المزينة بالأحجار

الكريمة والصُّدْف الثمين، ثم أمسكت بأصابعها الرقيقة قَلَمًا من البوص<sup>(١)</sup> كانت قد تركته منذ قليل.

وأخذت "خُرْم" تكتب بذلك القلم بعد أن غمسته في الحبر:  
 "سلطاني، يا حبيب روعي، إن وجهك كوجه يوسف،  
 وكلماتك أحلى من العسل المصفى!  
 إنسى أنفصرع إلى الله ﷻ، وأبتهل إليه، وأرجوه أن يُريني في  
 أقرب وقت وجهك المبارك.

عجبًا! فلو صارت الأشجار أفلامًا، والبحار مداذا، فهل  
 ستكفي لتكتب وتعبر عن لوعة هذا الفراق وألم هذا البُعْد؟  
 فمن أراد أن يعلم ما أكابده بُعْدُكَ عني فليقرأ سورة يوسف،  
 عندها سيدرك آلام الفراق..".

وفي السطر الأخير، بكت "السلطانة خُرْم" وذرفت دموعين رقيقتين قد  
 سالتا من عينيها الزرقاوين التجلّاوين، ثم قامت في هدوء وريقة وطوت  
 الخطاب، بعد أن كتبت جملتها الأخيرة.

وفي تلك الأثناء كانت تحس أن صدرها يصعد ويهبط اشتياقًا، وهي  
 تشعر بخفقان قلبها، ولا تسمع إلا دقات قلبها المتسارعة من فُرط وجدها  
 وشوقها.

\*\*\*

لقد كانت "السلطانة خُرْم" محبوبة السلطان القانوني خلال فترة  
 حكمه، تلك الفترة التي أُطلق عليها في تاريخ الدولة العثمانية اسم "العصر

(١) البوص: جمع مفردة بوص، وهو نبات من نباتات المستنقعات المنقر، من الفصيلة النجيلية، له سيقان مجوفة وأوراق عريضة وعنايد زهرية دائمة مثل القصب وهو يستخدم كثيرًا كقلم كتابة. (المترجم)



الذهبي"، لقد كانت "السلطنة خُرْم" تتميز بالذكاء وتمتع بشخصية غامضة معقدة، فيحكى عنها أنها قد اشتركت وانخرطت في الأحداث السياسية والدموية التي وقعت في ذلك العصر...

إنها المرأة التي يُنسب إليها فرض سَطَوَتِها وهَيَمَتِها على النساء في بلاط القصر العثماني...

فقد كانت "السلطنة خُرْم" -بلا شك- أولى النساء التي جَسَّدت سيادة المرأة وسَطَوَتِها، سواء في قصور الشرق أو الغرب على حدٍ سواء. هذا، وينبغي علينا -إذا أردنا العلم والإحاطة بتفاصيل حياة السلطنة خُرْم- أن نمتلك القدرة على التحليل الصحيح للأحداث التاريخية التي تنسب إليها المشاركة فيها، وأن نعلم أيضًا أن الفهم الدقيق والكامل لتصرفات هذه المرأة العظيمة إنما هو أمرٌ في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلًا.

ويمكن إرجاع السبب في هذا الأمر إلى أن المؤرخين العثمانيين أنفسهم قد امتنعوا عن تسجيل الحقائق، كما أن بعض المؤرخين المعاصرين الأتراك تَعَمَّدُوا -في سبيل إعلاء فكرة الجمهورية- تشوية سُمعة كلِّ الشخصيات العثمانية بكلِّ ما أُوتُوا من جهد وقوة، دون تفريق بين رجل وامرأة، كذلك نجد أن مؤرخي الجمهورية قد عملوا على الحِطِّ مِن قَدْرِ كُلِّ القيم والمبادئ، وتحقيق كلِّ ما يرتبط بفترة الحكم العثماني، حتى إنهم وصلوا إلى درجة التناقض فيما بينهم؛ من أجل تحقيق هذه الأهداف الدنيئة..

أما إذا انتقلنا إلى المؤرخين الغربيين، فنجد أن هؤلاء قد امتازوا عن أسلافهم في تناولهم للأحداث والشخصيات التاريخية بالانحياز

النَّامَ وعدم الموضوعية والتزيف، فصرفوا جُلَّ جَهْدِهِمْ في سبيل لِيَّ عُنُقِ الحقيقة، وتحريف الوقائع.

### البنْت اللطيفة اسمها "خُرْم"

وفقاً لإحدى الروايات، فقد كانت "السلطانة خُرْم" ابنةً لِأُسْقُف كاثوليكي فقير يُدعى "مارسجلي"، وقد نشأت في منطقة "روجاتينو" "روهاطين (Rohatyn)" على ضفاف نهر "ليبيا (Lipa)" في "جاليتشيا (Galiçya)".

وفي أثناء الهجمات التي قام بها تَتَّارُ القِرْم على امتداد نهر "دنيستر (Dniester)" -والمناطق التي تقع ضمن حدود أوكرانيا حالياً- تَمَّ أَسْرُ "خُرْم"، وذلك في فترة حكم السلطان يوز سليم<sup>(٥)</sup>، وتمَّ إرسالُها إلى القصر في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م).

وقد اختلفت الآراء حول حقيقة أصل "خُرْم"، فعلى الرغم من إشارة مجموعة من الروايات من مصادر مختلفة إلى كونها ذات أصلٍ روسيّ أو بولنديّ، إلا أن "دَانِشْمَنْد" يؤكد لنا أنها بولندية الأصل<sup>(٦)</sup>.

لقد كان سكَّانُ منطقة "روجاتينو (Rogatino)" -التابعة لحكم دولة "لهستان" البولندية- غالباً من ذوي الشعر الأحمر، وكانت بَنِيَّة "السلطانة خُرْم" تشبههم.

ويذكر بعض المؤرخين أن "السلطانة خُرْم" قد وُلِدَت سنة (١٥٠٤م) تقريباً، وقد تمَّ تقديمُها بوساطة "مقبول إبراهيم باشا" عند دخولها القصر العثماني، وعمرها وقتئذٍ يتراوح بين الرابعة عَشْرَ والسابعة عَشْرَ عاماً<sup>(٧)</sup>.

(٥) "طَبِيبُ جُوتْبِيلْجِين (Tayyib Gökbelgin)"، "السلطانة خُرْم"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٦٤م)، الجزء الخامس، ص ٥٩٣.

(٦) إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد (Danışmend)، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٦١م)، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٧) "خُطْبَاتُي أُولُوجَايِي (Çoğatay Uluçay)"، نساء وبنات السلاطين، آققرة (١٩٨٠م)، ص ٣٤.

اسمها الحقيقي هو "أَلِكْسَنْدَرَا" (*Alexandra Lisowska*) وتعرف في المصادر الغربية باسم "روزا" (*Rossa*)<sup>(٨)</sup>، وكذلك "روسانا" (*Rosanna*)، ولكننا نجد في تلك المصادر الغربية أن اسم "روكسلان" (*Roxelane*)<sup>(٩)</sup> هو أشهر الأسماء التي تُنعتُ بها، في حين نجد أنها لا تكاد تُعرَف في المصادر العثمانية سوى باسم واحد فقط، هو "السلطنة خَاصَكِي" (*Haseki*)<sup>(١٠)</sup>.

وخلال الفترة الأولى التي عاشتها في القصر سُميَّت تلك الفتاة -التي لا نجد معلومات دقيقة حول أُولَى أيامها في القصر- باسم "خُرْم" (*Hürrem*)<sup>(١١)</sup> أو "خُرْم شاه" (*Hürremşah*)<sup>(١٢)</sup>؛ وذلك لأنها كانت بشوشة الوجه ودائمة البهجة، وبعد عدة سنوات قَصَّتها "خُرْم" في قصر القِرْم مُنْشِغَلَةً بالتدريب وتحصيل العلم، تم إرسالها كهدية إلى القصر السلطاني من قبل حاكم القِرْم.

وعلى هذا النحو، لم تكن "خُرْم" قد أتمَّت في القصر القديم، الذي جاءت منه، مرحلة التدريب والتعليم، وبقَما تَمَّ تقديمها إلى السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٠م) الذي لم يَمُضِ على اعتلائه العرش العثماني أكثر من شهرين.

ويفهم من هذا أنها -حتى ذلك الوقت- كانت قليلة الخيرة، ولم تكن على قَدْر من الوعي والثقافة اللذين يؤهلانها لِأَنْ تكونَ زوجةً للسلطان<sup>(١٣)</sup>.

(٨) "روسا" تعني في اللغة الإيطالية الأحمر.

(٩) لقد ذكر مغفور وأدياء عصر النهضة أن اسم "روكسلان" (*Roxelane*) بُنِيَ على معناه يعتبر من أسماء النساء في روسيا. وربما قصدوا أيضاً بذلك التلميح إلى القبيلة التي يشير إليها هذا الاسم، تلك القبيلة التي عاشت في روسيا منذ القدم.

(١٠) جاماد بلطجي (*Baltacı*)، "السلطنة خُرْم"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر، ص ٤٩٨.

(١١) "خُرْم" هو اسم فارسي معناه المرححة وذات الوجه الباسم.

(١٢) يلماز أوزتونا (*Yılmaz Öztuna*)، تاريخ تركيا، الجزء السادس، ص ١٨٢.

## اللوحات المُجسّدة لصورة "خُرُم"

تعتبر اللوحات التي رُسِمَتْ في ذلك الوقت للسلطانة "خُرُم" دليلاً مهماً يوضح لنا الهيئة والصورة التي كانت عليهما "السلطانة خُرُم"، ولكن على سبيل التقريب لا المطابقة؛ إذ إنه وفقاً لتقاليد ذلك العصر، لم يكن من الممكن للسلطانة "خُرُم" أن تقف أمام أحد الرسامين لتأخذ الوضع الذي سيرسمها عليه!

وبناءً على هذا، فإن الصور المتاحة بين أيدينا اليوم، والتي تُنسب إلى "السلطانة خُرُم" لا يمكن اعتبار أي منها صوراً حقيقية لها، وإنما هي صور تقريبية لما كانت عليه من هيئة وشكل.

ولا يذكر لنا المؤرخون أن "خُرُم" كانت تتمتع بجمالٍ بارع، لكنهم يذكرون لنا أنها كانت تتمتع بجاذبية ذات طابع خاص؛ حيث أحبها القانوني عندما رآها لأول وهلة، وارتبط معها برباط الزوجية، في علاقة امتدّت طوال سنوات حياته، مانحاً إياها مكانة خاصة في قلبه<sup>(١٣)</sup>.

وها هو الرحالة الإيطالي "بيetro براجادينو" (Pietro Bragadino) يصف لنا "خُرُم" الروسية، التي شَغَرَ بالسعادة عند رؤيتها عام (١٥٢٦م)، قائلاً: "ليست جميلة، لكنها لطيفة"<sup>(١٤)</sup>.

## لم يكن السلطان القانوني مولعاً بالنساء

باعتلاء السلطان القانوني عَرْش الخلافة العثمانية، بدأت أكثر مراحل التاريخ العثماني عَظْمَةً وَرَوْعَةً، فقد شاع نبأ اعتلائه العرش في كل أرجاء المعمورة، وعلمت به كل المدن والدول الأوروبية.

(١٣) ظَلَمْتُ خَضِرْجِي أُوغْلُو (Hasrevoglu)، "السلطانة خُرُم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول (١٩٥٦م)، الجزء السابع، المجلد، ٧٣، ص ١٧.

(١٤) ترجمت هذه العبارة من الجملة التالية التي كتبت بالإيطالية: (Giovine non bella ma grassata).



"السلطانة خُرَم" وزوجها سليمان القانوني



لقد كان سليمان القانوني الذي اعتلى العرش، وهو في السابعة والعشرين من عمره، يتمتع بهيبة تُجبر أي شخص على توقيعه بمجرد أن يراه.

كان مستدير الوجه، ذا حاجبين مقوسين، وعَيْنَيْن عَسَلِيَّتَيْن، وشارِبَيْن عَظِيمَيْن؛ كانت له هَيئَةُ السَّبْع، وصوت كالرعد، كان من طِرَازِ وَالِدِهِ السلطان "ياووز" (*Yavuz*)؛ حيث كان ذا أَنْفٍ معقوف<sup>(١٥)</sup> تُمَيِّز الرجال الْمُتَحَدِرِينَ من نَسْلِ آل عثمان، وكانت أفعاله توحى بالخصال التي ورثها من أجداده.

تميّز القانوني -طوال فترة حياته المزدهرة- بالاعتدال وعدم الميل إلى العصبيّة والتأني في جميع الأمور، وقد كان لتلك الخصال دور كبير في اتخاذ القرارات.

ويروي الكثير من المؤلفين عن السلطان سليمان أنه لم يكن يشرب الخمر رغبةً منه لكيلا يكون لديه أي نوع من أنواع الهوس أو التعلق بالنساء أو ذهاب العقل، رغم عدم وجود ما يحول بينه وبين ذلك.

وكان من المعروف عن زوجته السلطانة "جُلْبَهَار" (*Gülbahar*) والدة ابنه الأكبر الأمير مصطفى، أنها كانت للقانوني بمثابة قُرّة عينه ومحبوته الأولى التي تعرّف إليها أثناء فترة ولايته للعهد، ولكنه بعد أن تعرّف إلى "خُزْم"، أصبحت هي المسيطرة على قلب القانوني، وملأت عليه كل لحظات حياته.

وَلَعَلَّ بَقَاءَهُ مع المرأة نفسها لمدة سبعة وثلاثين عامًا من حياته، لَهَوَ أكبر دليل مُقنِع على بُطْلان الادِّعاءات التي أشاعت عنه أنه كان فاسقًا و زيرَ نساءٍ.

(١٥) أَنفٌ مَعْقُوفٌ: أي مُنْعُوجٌ مِن أَوْتَانِيَّتِهِ، ومكوّز من وسطه. (المترجم)



## السلطانة الوالدة

قام السلطان سليمان بعد اعتلائه العرش، بإحضار والدته السلطانة "حفصة (Hafsa)" التي كانت مقيمة في "مانيسا (Manisa)" إلى إسطنبول، بعد أن هُيِّأَ لها وضْعًا يليق بها وبمكانتها.

وبذلك يَتَسَنَّى لهذه السيدة -التي كانت تعيش الحظ، وأقصاها السلطان "سليم" من الحریم لسنوات طويلة- أن تحيا أخيراً بسلامٍ وطمأنينة، وأن تنال مكانتها في بلاط القصر العثماني.

وقد حصلت السلطانة حفصة على لقب "السلطانة الوالدة" -الذي أصبح يُطلَق عليها بعد تولي السلطان سليمان الحكم- وتمكنت من الوصول إلى النفوذ والقوة اللذين لم تستطع أن تنالهما في عهد زوجها الراحل.

لقد أصبحت السلطانة حفصة الآن هي المتحكمة في قصر السلطان الذي يهيمن على الدُّول ويحكم شئى بقاع الأرض، فلقد أصبحت شؤون القصر تحت سيطرتها، والجواري رهن إشارتها، وصارت أخص نساء السلطان القانوني؛ أي: "جُلْبَهَاز" و"خُرْم" تبدلان قسارى جهدهما لعدَم إبداء ما قد يزعجها أو يُكدِّر صفوها؛ ليتألا رضا السلطانة الوالدة عنهما.

## فرحتا السلطان

كان أول ما قام به السلطان القانوني بعد أن اعتلى العرش هو إخماد التمرد الذي تزعَّمه والي الشام "جَنْبُرْدِي غَزَالِي (Canberdi Gazali)"، الذي انتهز فرصة انتقال مقاليد الحكم في السلطنة، وأعلن العصيان على السلطان سليمان.

كان الغزالي يطمح إلى إعادة إحياء الإمبراطورية المملوكية؛ معتقداً أنه أمام حاكم شابٍ جديدٍ بلا تجربة، فأقام حلفاً مع كلٍّ من إيران وفرنسا رودس.

لكن "شَهْسُووَرَزْ أُوغْلُو" (*Şehsuvaroglu*) علي بك "حاكم دولقادر" والذي عينه السلطان الجديد تَمَكَّنَ من إلحاق الهزيمة بوالي الشام وضرب عُقْبِهِ في السادس من شباط/فبراير عام (١٥٢١م).

\* \* \*

وبينما كانت حرب القضاء على التمرد في الشام مستمرة، كان السلطان سليمان مشغولاً في إسطنبول بالإعداد لحملة عسكرية جديدة.

حيث إن سفير الدولة العثمانية "بَهْرَامْ جَاوُوش" (*Behram Çavuş*) كان قد اغْتِيلَ بأمر من "ليوش" (*Layos*) الثاني ملك المجر بعد أن قام بتعذيبه، وكان هذا السفير قد تمَّ إيفاده إلى المجر من قِبَلِ الدولة العثمانية من أجل تحصيل الجزية، حاملاً في الوقت نفسه الخبر السلطاني بجلوس السلطان الجديد على العرش، لقد اعتُبر هذا العمل الوحشي خرقاً واضحاً للقانون الدولي، وبالتالي كان سبباً لوقوع الحرب.

فمثل ذلك العمل لم يكن مما يجوز أن يُرتكَبَ في حقِّ سلطانٍ يحكمُ العالمَ مثل سليمان القانوني، فضلاً عن التزامه في الوقت نفسه بكلِّ المعاهدات والقوانين والحقوق مع الدول والكيانات الأخرى.

كان ملك المجر قد أصابه الغرور، لا سيّما وأنه كان متزوجاً من أخت الإمبراطور "شارلكان" (*Şarlken*) الألمانية، وقد اعتمد في اقترافه هذا الفعل الشنيع على علاقة النسب التي تَرَبُّطُهُ بذلك الإمبراطور؛ متوهماً أن هناك قوّة ستقف وراءه وتحميه<sup>(١٦)</sup>.

(١٦) ضياء نور أفتشور (Akşun), التاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٩٤م)، المجلد الأول، ص ٢٣٩.

تحرك الجيش العثماني مُتَجِّهاً إلى المَجَر، قاطعاً شبة جزيرة البلقان، واستمر في الزحف حتى استطاع الوصولَ إلى مشارف نهر "سافا" (Sava) في وقت قصير جداً، وفي غضون تسعة أيام تمكَّن من الانتهاء من إنشاء جسرٍ كبيرٍ على ذلك النهر الذي يبلغ طوله ألفاً وثمانمائة ذراع، ثم استطاع بعد ذلك أن يعبرَ النهر ويصل إلى منطقة "سيرم" (Sirem) التي تضم داخل حدودها "بلجراد" (Belgrad).

كانت (بلجراد) واقعةً تحت الحصار منذ قرابة الشهر، من قبل الجيش الذي أرسله السلطان سليمان قبل ذلك تحت قيادة الوزير "بيري (Piri) باشا"، وبعد أن اشتدَّ الحصار بدعم من القوَّاتِ الإضافية ازدادت الهجمات على المدينة.

وفي نهاية الأمر، سقطت مدينة "بلجراد" في يد العثمانيين يوم الثامن من آب/أغسطس من عام (١٥٢١م)<sup>(١٧)</sup>.

أراد السلطان سليمان إعادةَ إعمارِ المدينةِ المدمَّرةِ، فأمر بإنفاق عشرين ألف قطعة من الذهب من أجل تحقيقِ هذا الهدف، ثم بعد ذلك القرار -الذي يدلُّ على تحضُّر وحكمةِ العثمانيِّين- أخذت المدينة في التطوُّر والازدهار؛ حتى أصبحت مدينةً تجاريةً كبيرةً.

أما أوروبا فقد تلقت خبر فتح "بلجراد" بحزن عميق، في الوقت الذي أُضِيفَتْ إلى هذا النصر الكبير فرحةٌ ثانيةٌ أثلجت قلبَ السلطان القانوني، وذلك عندما أنجبت له زوجته الحبيبة "خُرُم" الأميرة محمدًا، الذي عمَّت البهجةُ الدنيا بقدمه.

وبهذا القدوم السعيد للمولود الجديد استطاعت "خُرْم"، وهي لا تزال جارية شابة ذات السبعة عشر ربيعاً، أن تنال وتفوز بلقب "خَاصِكِي" (١٨)، وتمكّنت في الوقت نفسه من أن تجعل الشاب الحاذق ذا الثمانية والعشرين عاماً يعيش فرحتين.

### "لا أنكرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر"

قضى السلطان القانوني موسم الشتاء من عام (١٥٢١م) في إعداد أسطول بحريّ جديد؛ لقد كان يرغب في الاستيلاء على قلعة "رودس" التي كانت بيد فرسان "سانت جين (Saint Jean)"، لا سيّما أنّ هؤلاء الفرسان كانوا قد دأبوا على القيام بأعمال السلب والنهب تحت دعوى خدمة المسيحية، وكان هؤلاء الفرسان يجنون ربحهم عن طريق نهب سفن المسلمين وبيع كل من كانوا يجدونه بها كأشياء وعبيد.

كانت "رودس" تتمتع بالتماسك الداخلي في ذلك الحين، وكان يُعدّ ضرباً من المستحيل الاستيلاء عليها؛ فقد قام الفرسان باتخاذ كافة التدابير اللازمة لتحصين القلعة ومنع الجيش العثماني من دخولها، وسدّوا مدخل الميناء في وجه سفن البحرية التركية بسلسلة معدنية طويلة؛ كذلك التي كانت موجودة عند مدخل ميناء بيزنطة.

لكن بفضل ما تمتع به الجيش العثماني من تقنيات حربية متطورة إلى جانب قوة النيران التي كان يقذفها بحرفية ودقة، فقد استطاع أن يحسم هذه الحرب بشكل سريع لصالحه، ورغم الخسائر الكبيرة فقد تمكّن العثمانيون من القضاء على قوات فرسان "سانت جين" في الثلاثين من

(١٨) خاضكية: إنه أطلق على الجوّاري اللاتي وجدن القبول من السلطان واحتظن بحظوته. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض-٢٠٠٠م)، ص ٩٥. (المترجم)

تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٢٢م)، حيث وافق قائد قلعة "رودس" على تسليمها بعد أن أدرك أنه لا فائدة من المقاومة؛ شريطة أن يخرج سالمًا بسفنه وأن يأخذ معه كل ما يمكن حمله.

وقد فرح السيد الأعظم "فيليرس د. إيسلي (*Viliers de l'Isle*)" فرحًا شديدًا لدرجة أنه قَبَّل يد السلطان سليمان مُعربًا عن شكره وتقديره لِقبُولِهِ بشروط التسليم التي عرضوها عليه، وأخذ في الاستماع إلى كلمات الشفقة من السلطان سليمان، حيث تحدّث إلى المسؤول عن جناحه الخاص، الذي كان يقف إلى جواره في تلك الأثناء قائلاً:

"لا أَكْثِرُ شعوري بالأسف؛ إذ أُخْرِج هذا الرجل في مثل هذه السن من دياره".

وبالطبع، فإن مثل هذه الكلمات لا تشير سوى إلى راحةٍ عقلي القانوني، وكيف كان إنساناً مُرهَفَ المشاعر رقيقَ الإحساس<sup>(١٩)</sup>.

لقد أحدث سقوطُ رودس أثرًا كبيرًا وصدى واسعًا في أوروبا، وكان هذا السقوط إيذانًا ببداية صفحةٍ جديدةٍ من الصراع بين الشرق والغرب.

### مِنْ مسؤول الجناح الخاصِّ إلى منصب الصدر الأعظم

كانت هناك مفاجأة جديدة بانتظار السلطان أثناء عودته إلى إسطنبول عابِرًا بحر "مرمرة" (*Marmara*)، فقد أنجبت له حبيبته وأم ابنه "خُرم" مولودةً جديدةً هذه المرأة<sup>(٢٠)</sup>.

كذلك فقد شهد القصر السلطاني في السابع والعشرين من حزيران/يونيو من عام (١٥٢٣م) حدثًا آخَرَ غير مُتَوَقَّع، فبعد أن خدم "بيري باشا"

(١٩) أكثرُ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

(٢٠) "السلطنة بمهرنما" هي الابنة الوحيدة للسلطان "القانوني" و"السلطنة خُرم"، يعتقد أنها قد ولدت عام (١٥٢٢م).

بنجاح لمدة خمس سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً في منصب الصدر الأعظم فقد تمَّ عزله، وخُصِّصَت له مكافأة تبلغ مائتي ألف عملة عثمانية، وعُيِّن مكانه "إبراهيم آغا"<sup>(٢١)</sup> مسؤول الجناح السلطاني الخاص (الذي سيصبح فيما بعد إبراهيم باشا)، وذلك بعد أن حاز ثقة السلطان التي كانت تزداد به يوماً بعد يوم أثناء حملتي "رودس" و"بلجراد" اللتين سبق أن اشترك فيهما<sup>(٢٢)</sup>.

كان تعيين الشاب المسؤول عن الجناح الخاص والبالغ من العمر ثمانية وعشرين سنة في منصب الصدر الأعظم<sup>(٢٣)</sup> متجاوزاً كُلَّ الوزراء الآخرين حَدّاً غير عادي، ومُخَالِفاً للتقاليد؛ حيث لم يُقَابَلْ هذا التعيين بترحيب كبير في أوساط القصر، لكن هذا التعيين يدلُّ بوضوح إلى مدى قدرة السلطان على اختيار الرجل المناسب ذي الكفاءة العالية، ووضعه

(٢١) - "إبراهيم باشا" (١٤٩٥ - ١٥٣٦م)، كان والده صياداً إيطالياً من مدينة (جنوة)، حيث ولد "إبراهيم باشا" في منطقة (بارجا) المواجهة لجزيرة (كورفو)، وقد أُخِذَ أسيراً في إحدى هجمات القراصنة الأتراك، وتم بيعه لامرأة غنية في (مانيسا)، وقد قامت هذه السيدة بتربية ذلك الطفل الذكي الموهوب، حيث أعطت اسم "إبراهيم" الشائع في الثقافة التركية، وبفضل ذكائه واجتهاده فقد اتقن "إبراهيم" اللغات الكرواتية والإيطالية واليونانية إلى جانب تعلمه في البداية اللغات التركية والعربية والفارسية، كذلك فقد أظهر تفوقاً كبيراً في الموسيقى والأدب، وكما يروي "هامر" عنه، فقد كان "إبراهيم باشا" يهوى بشغف الأعمال المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا، حتى إنه كثيراً ما كان يطالع تاريخ الحروب التي خاضها القائلان "الإسكندر" و"هنريال"، وذات يوم وبينما كان ولي العهد "سليمان" -الذي كان في الوقت نفسه حاكم صاروخان (مانيسا الآن)- يتجول في المدينة فلما به يسمع صوت عزف بديع على الكمان، كان "القانوني" مولفا بالموسيقى، فأراد أن يتعرف على الشخص الذي كان يعزف، واستطاع "إبراهيم" أن يترك أثراً لدى ولي العهد بعد أن تم استدعاؤه لمقابلته، حيث بدأت توجه له بعد ذلك الكثير من الدعوات إلى قصر (صاروخان)، وعندما رأت السيدة التي تعيش في (مانيسا) العلاقة الوثيقة التي كانت تجمع "إبراهيم" وولي العهد "سليمان" الذي سيصبح بعد فترة على رأس الدولة العلية فقد قامت بغثي "إبراهيم" -الذي رتبته كابنها- من غُلِّ البودية ليصبح حوّاً، وكان من ضمن القرارات التي اتخذها ولي العهد "سليمان" عند اعتلائه العرش في الثلاثين من سبتمبر (١٥٢٠م) قراره بتعيين "إبراهيم" ضمن موظفي (الجناح الخاص) الذي كان يعتبر من أقرب المؤسسات إلى حاكم البلاد.

(٢٢) "دنيز أوزر (Deniz Özer)، (الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلطنة "خُزَم"، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤، ص ٢٩.

(٢٣) على امتداد تاريخ الدولة العثمانية كان "إبراهيم باشا" هو أصغر الشخصيات بشاً التي تولّت منصب الصدر العظيم باستثناء "كوبورلو زاده (Köprülüzade) فاضل أحمد باشا".

في المكان المناسب والمناصب الحساسة وفقاً لقدراته<sup>(٢١)</sup>.

والحقيقة أن إبراهيم باشا كان على الدوام عند حسن ظن السلطان، ولم يكن يخذله إلا نادراً.

### مجمع السلطنة الوالدة حفصة

لقد بدأت السلطنة الوالدة "حفصة" التي كانت مشهورة بخيبتها للأعمال الخيرية، في عام (١٥١٣م) بإنشاء مُجْمَع<sup>(٢٢)</sup> كبير في مدينة "مانيسا" (Manisa) التي كانت تقيم بها، في الوقت الذي كان ابنها الأمير سليمان يشغل منصب حاكم ولاية "صاروخان"، وقد كان ذلك المُجْمَع الكبير يضم مدرسة وداراً لتحفيظ القرآن للصبيان ومسكناً وتكية للصوفية ومشفى وحماماً.

وفي أواخر سنة (١٥٢٣م) بعد عمل استغرق عَشْرَ سنوات، تم الانتهاء من بناء جزء كبير من هذا الصرح الشامخ المعروف باسم "مُجْمَع السلطانية" بما في ذلك الجامع والأبنية الملحقة به، ولم يكن ينقصه سوى المشفى والحمام<sup>(٢٣)</sup>.

ومما أدخل السرور إلى قلب السلطان الشاب أن "مجمع السلطانية" التي كانت أمه شغوفة به جداً قد اكتمل بناؤه بعد ولادة ابنته الوحيدة مَهْرَمَاءَ سلطان...<sup>(٢٤)</sup>

(٢٤) حتى زمن "القانوني" لم يظهر على الساحة خير في مجال السياسة الخارجية مثل "إبراهيم باشا". فقد استطاع في مدة وجيزة للغاية أن يحل المشاكل التي كانت موجودة في ولاية كبيرة وحديثة العهد من ناحية ارتباطها بالدولة العثمانية كولاية مصر، ومن خلال الإصلاحات التي قام بها استطاع أن يرتقي بمستوى المعيشة في تلك الولاية. وهكذا تمكن من خلال إنجازاته في مصر أن يظهر براعته في ميدان السياسة الخارجية إلى جانب تمتعه بكفاءة عالية في الجوانب الإدارية.

(٢٥) مجموعة من الأبنية تحتوي في داخلها على مسجد ومدرسة ومكتبة وحمام ومشفى وسوق وتكية وزاوية لأجل تحقيق أهداف اجتماعية. (المترجم).

(٢٦) بعد وفاة السلطنة الوالدة "حفصة" قام ابنها السلطان "القانوني" عام ١٥٣٤م بإضافة حمام ومشفى إلى المجمع الخيري الذي ينسب إليها.

وفي نهاية هذا العام أنجبت "السلطانة خُزْم" أيضًا للسلطان ابنه الذكر الثاني الأمير عبد الله.

### زفاف ليس له مثيل!

بعد أخذ عَشْرَ شَهْرًا من تولي إبراهيم باشا مَنْصِبَ الصدر الأعظم، عقد قرانه على أخت السلطان سليمان، التي هي في الوقت نفسه إحدى بنات السلطان "ياووز سليم الأول وبمناسبة الزفاف أُجريت احتفالات عظيمة"<sup>(٢٧)</sup> في ساحة "آت (At)" ("ميدان سلطان أحمد" حاليًا)، الذي عُرف فيما بعد بـ "قصر إبراهيم باشا".

وبهذا الزفاف الرائع عظمّت مكانة وسلطة إبراهيم باشا إلى حدٍ كبير، فمع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا أنه وضمن فترة وجيزة -من خلال ذكائه المتوقّد، ووفرة حيلته، وكثرة دهائه، ونضوج خبرته- استطاع أن يُحيطَ ويُمسكَ بمفاصل الدولة، وأن يُظهرَ لِمَنْ حوله مدى نفوذه وإدارته الداخلية، وعظمة حُكْمَتِهِ على صعيد السياسة الخارجية، ولقد ظهر هذا للعلن عندما نجح في تجاوز الأحداث التي حصلت في مصر -وكانت مصر قد انضمت حديثًا كولاية جديدة من ولايات الدولة العثمانية- واستطاع أن يُحسن الظروف المعيشية للشعب هناك، وظهرت حُكْمَتُهُ أيضًا حينما استطاع أن يُخمدَ التمردَ الذي قام به العلويون في الأناضول<sup>(٢٨)</sup>.

\*\*\*

(٢٧) استمر هذا العرس التاريخي من الثاني والعشرين من أيار/مايو إلى الخامس من حزيران/يونيو (١٥٢٤م)، لقد كان زفافًا عظيمًا يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة. حيث نُصبَ عرش السلطان داخل قسطنطينية عظيم، تم إعداده من أجل "سليمان القانوني" في ميدان "آت". كما تم تجهيز التبريدات والأرائك والمجالس من أجل الوزراء والأمراء وسائر رجال الدولة. وقد اتجه الوزير الثاني إياس باشا الذي تولى مهمة أن يكون وكيل المراسم مع رئيس الإنكشارية إلى السلطان، حيث وجهوا له الدعوة رسميًا لحضور الزفاف، وقبل "القانوني" الدعوة بعد أن مدح كثيرًا الوزير الأعظم الشاب. ويعتبر استمرار حفلات الزفاف الخاصة بالقصر العثماني القديم لعدة أيام وليالي، من أهم السمات التي تلفت النظر في هذه الاحتفالات من ناحية المراسم والتقاليد، (فان شينغه المصنوع السابق، المجلد الثاني، ص ١٠٣).

(٢٨) إسماعيل حقي أوزون جازيشيلي (Uzunçarsili)، التاريخ العثماني، أنقرة (١٩٧٥م)، المجلد الثاني، ص ٣٥٦.



أثناء العرس اقترب السلطان سليمان من العريس إبراهيم باشا، وتوجّه إليه بالحديث قائلاً:

- "قل لي: أيُّهما الأروغ حفل زفافك أم حفل ختان أولادي؟".

أجاب إبراهيم باشا بلا أيّ تردّد:

- "لم يكن، ولن يكون هناك أيّ حفلٍ في روعةٍ أو جمالٍ حفلٍ زفافي!"

أحسن القانوني بالضيق عند سماعه هذا الجواب غير المتوقع، واجتهد لكي يُخفي غُصْبَه سائلاً:

- "لماذا؟"

فأجابه إبراهيم باشا بكلّ هدوء:

- "إنّ ذلك الحفل لم يكن في روعةٍ حفلٍ زفافي؛ لأنّ في حفلٍ عُزّيسي يوجد السلطان سليمان: سلطانُ التّزيّن والتّخزين وخادمُ الحَرَمين الشريفين، لقد نال زفافي شرفَ حضور جلالَتكم!".

ارتاح السلطان كثيراً عند سماعه لهذا الجواب العاقل وعلّق قائلاً:

- "إنني أهنّئك ألفَ مرّة، لقد أبهرتني" (٢٩).

أثناء احتفالات الزفاف جرى هناك حدثٌ آخر هامٌّ ومؤثّرٌ، فقد وُلِدَ الأميرُ "سليم" الذي سيُجلِسُ على العرشِ بعد والده السلطان سليمان؛ ليحتلّ بذلك الرّقْمَ الحادي عشرَ ضمنَ تسلسلِ حكامِ وسلاطين الدولة العثمانية.

(٢٩) محمد هُندُبي شَلبي (Hemdi Şelbi)، تاريخُ سُلُوكِ زَاذَه (Salakzade)، أنقرة (١٩٨٩م)، المجلد الثاني،

ففي الثامن والعشرين من أيار/مايو من عام (١٥٢٤م) وُلِدَ الأمير سليم ليكون الابن الثالث للسلطان سليمان من "السلطنة خُزْم"، الذي بمولده ارتفعت مكانة "خُزْم" لدى السلطان القانوني، بينما أخذت مكانة السلطنة "جلبهار" -أم الأمير مصطفى ولي العهد- تتلاشى شيئاً فشيئاً.

ويعتبرُ قدومُ هذا المولود هو البداية الحقيقية للعداوة والمنافسة بين كلٍّ من "خُزْم" و"جلبهار".

### إلهي لا تخذل أُمَّة محمد المسلمة!

بدأ الإعداد لحملةٍ عسكريةٍ كانت موجهةً ضدَّ دولة المَجَر بناءً على عدّة تطوّراتٍ شهدتها المنطقة، كانت من هذه التطوّرات الأعمال العدائية التي قامت بها دولة المجر تجاه السفن العثمانية، بالإضافة إلى قيام المجر بعقد حلفٍ عسكريٍّ مع "بوغدان"، هذا إلى جانب ظهور علاماتٍ على نشوء إمبراطوريةٍ أوروبيةٍ جديدةٍ تحت قيادة "شارلس كنت (Charles Quint)"، لا سيما بعد المعاهدة التي تمَّ إبرامها مع الصفويين.

ففي الثالث والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٢٦م) وبعد أن قام السلطان بزيارة ضريحي كلٍّ من "أبي أيوب الأنصاري: خالد بن زيد ؑ" و"أبي الوفا" خرج على رأس حملةٍ عسكريةٍ إلى المَجَر مع جيش قوامه مائة ألف جنديٍّ مدججين بالسلاح ومعهم ثلاثمائة مدفع.

تمكّن السلطان سليمان من الوصول إلى "بلجراد" مع جيشٍ تميّز بالدقّة والانضباط بعد أن اجتاز "أدرنه" و"صوفيا"، وفي الوقت نفسه فقد تمكّن الأسطول العثمانيّ المكوّن من ثمانمائة سفينةٍ صغيرةٍ من الوصول إلى المدينة عن طريق نهر الدانوب، وفي أواخر آب/أغسطس وصلت القوات العثمانية إلى سهل "موهاج (Mohaç)" ولكن العدو لم يكن هناك.

خرج السلطان من مركز قيادته واصطحب معه إبراهيم باشا وباقي القواد والأمرء، وأخذ يتجول بين الأفواج العسكرية مُلقياً كلمات مشجعة يُلهب بها حماسة جنوده، وكما ينقل لنا المؤرخ "بَجْرِي":

"كان السلطان الغازي على رأس المجاهدين، يرفع يديه المباركين عند كُلِّ غَلَمٍ وراية، دائم الدعاء والمناجاة بعيون دامعة وهو يقول:

- يا إلهي، إن القوة والقدرة لك، والرعاية واللفظ منك! فلا تخذُلْ يا ربنا ضعفاء أمة محمد، وانصرنا على القوم الكافرين". (٣٠)

\*\*\*

وفي النهاية، دخل جيش الصليبيين وعلى رأسه "لايوش الثاني" إلى سهل "مُوهاج"، وبعد ذلك أخذت الفرق العسكرية الكرواتية والسلفوانية والسلفاكية والتشيكية والألمانية والبولندية في التقدم هي الأخرى.

كان فرسان الجيش المَجْرِيّ<sup>(٣١)</sup> هم أكثر وحدات الجيش قوة وبأساً، وكان هؤلاء الفرسان قد استطاعوا أن يكتسبوا خبرة في قتال العثمانيين لكثرة المواجهات التي كانت دائمة بينهم لسنوات طويلة، بحيث كانت كل وحدة من هؤلاء الفرسان تُقاتل في الغالب كأنها آلة حرب ملتزمة.

وقبل العصر، شرع الجيش المَجْرِيّ في الهجوم بعد أن كان قد نفذ صبره، وبعد اشتباكات عنيفة بين الطرفين بدأت وحدات العثمانيين الذين يتركزون في قلب الجيش في الانسحاب بناءً على خطة موضوعة، وفرح الفرسان المَجْرِيّون وبدؤوا يلاحقون جنود الجيش العثماني دون أن يدركوا الفخ الذي كان بانتظارهم، وخلال فترة وجيزة وجد الجيش

(٣٠) أختون، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٥٨.

(٣١) يروي أن جيش المجر كان قوامه مائة وخمسين ألف شخص ومجهز بحوالي مائة مدفع.

المجري نفسه بكامل وحدانيته مُحاصراً من قِبَل قَوَاتِ العثمانيين؛ بعد أن تصدَّع من كثرة الحِمَمِ والنيِرَانِ التي كان يقذفها الجيش العثماني.<sup>(٣٢)</sup>

كان هناك قرابة ثلاثمائة مدفع تُصَبُّ نيرانها في وقت واحد دون توقُّفٍ، ساجقةً أمامها الفِرَقَ المَجْرِيَّةَ المُدْرَعَةَ، ومن ناحية أخرى فقد غادرَ السلطانُ الهَضْبَةَ التي يوجد بها مركز قيادته مُتَقَدِّماً بنفسه صوبَ الخطوط الأمامية، وقد تَمَكَّنَ الفرسانُ التيماريون<sup>(٣٣)</sup> بعد مدَّةٍ قصيرةٍ من تضيقِ الجِنَاقِ حول الجيش المسيحي، ولم يترك للمجريين سوى مَخْرَجٍ واحدٍ للهربِ من جهةٍ مستنقعٍ "كاراسو" (Karasu).

لقي عشرات الآلاف من جنود الأعداء مَضْرَعَهُمْ في ذلك المستنقع بعد أن وصلوا إلى حالة من الإعياء والضعف الشديدين، فمنهم من قُتِلَ بالسيف، ومنهم من قُتِلَ بنيرانِ المدافعِ أو البنادق، في حين سقطَ الآلافُ أيضاً منهم أُسْرى.

لم يستطع أحدٌ من الأعداء أن ينجو بنفسه في هذه المعركة، أما الملك "ليوش" الثاني، فقد لَقِيَ حَتْفَهُ غريباً في المستنقع وقد رافقه في رحلة الموتِ هذه جميعُ قَوَادِ جيشه وسبعةٌ من الأساقفة.

(٣٢) أُنْقِصَ خمسةٌ وثلاثون فارساً مُخَرَّباً منذ ثمانية وثلاثين يوماً قبل ذلك الوقت في (بودابست) أمام ملكهم على أن يُضْمَحُوا بأرواحهم في سبيل قتل "السلطان سليمان"، اشتدَّ وطيشُ المعركة، وانخرطَ جنودُ الإنكشارية في قتالٍ شديد، ولم يَتَّقِ حول السلطان سوى وَخْذَةٍ عسكرية صغيرة، وأخذ الفرسان الخمسة والثلاثون في الاقتراب من السلطان مُسْتَفْزِلِينَ تلك الفرصة، فقدموا نحو السلطان وهم يقاتلون بشجاعة وبأسٍ شديدين، ولقي اثنان وثلاثون فارساً من هؤلاء الفرسان مَضْرَعَهُمْ في سبيل ملكهم، ولكن دون أن يتمكنوا من بلوغ موضع السلطان، وتبقى من هؤلاء الفرسان "مرجزالي" واثنان من الفرسان نجحوا في الوصول إلى السلطان، وعندما رأى السلطان انشغال الضباط المكلفين بحمايته والدفاع عنه بالحرب، وأنه قد أصبح وحيداً، اسْتَلَّ سَيْفَهُ الطويل ذا المقبض الماسي، فأخذ الفرسان المجريون الثلاثة في إطلاق السهام نحو السلطان، لكن عِلَّةَ سَهَامٍ لم تنجح في أن تُفَشَّ جسده وإن كانت اخترقت بَزْغَهُ فحشِب، وسرعان ما أخذ "القانوني" في مبارزة الفرسان، حتى تمكن من أن يحصد أرواحهم جميعاً الواحد تلو الآخر. (بُلْغَاذُ أَوْزُونُ، قصص حياة السلاطين العثمانيين، إسطبول، الجزء ٢١، ص ٢).

(٣٣) الفرسان التيماريون: اصطلاح عثماني يُطلق على الفرسان المدوَّبين من ذوي الكفاءة العالية، ويعبر عنه في عصرنا مثلاً "القوات الخاصة" أو "الحرس الجمهوري" أو "قوات الصاعقة". (المترجم).

وبهذا النصر، استطاع السلطان سليمان تدمير الإمبراطورية المَجَرِيَّة بضربة واحدة، بعد أن دامت قرابة ستِّ مائة وسبعة وثلاثين عامًا.

في اليوم التالي، نظَّم السلطان احتفالاً كبيراً في سهل "مُوهاج"؛ حيث كانت المراسم الفخمة لتلك الاحتفالية بمثابة تجسيد لعادات وتقاليده عاشت مدة ألف عام مع الأتراك، أما السلطان سليمان فقد تقبَّل التهاني من جيشه، وسمح لجنوده وقواد الأفواج والألوية -وعلى رأسهم إبراهيم باشا- أن يُقبِّلوا يديه.

\*\*\*

وبحلول اليوم الثامن، بدأ الجيش العثماني، وعلى رأسه السلطان فاتح المَجَر، في التحرك من "مُوهاج" إلى أن دخل "بودين"، وبذلك تصير خزينه مملكة المَجَر -التي دامت ستِّ مائة وسبعة وثلاثين عامًا- تحت إمرة السلطان سليمان القانوني.

### كَلاُمُكَ حُلُوٌّ وَوَجْهُكَ يَوْسُف

في تلك الأيام المليئة بالإنارة ورائحة الدم والموت والبارود، التي يعيشها السلطان، وصلت إليه من "السلطنة خُرْم" رسالة تُحرك القلب وتَمَسُّ الرُّوح.

بدأت "خُرْم" خطابها بكلمات مثل: "الحبيب ذو الوجه الوردِي" و"سلطاني حبيب روحي"، واستمرت في رسالتها كاتبة له:

"يا مَنْ يُداوي قلبي الخزين، يا مَزَهَمَ فُزادي الجريح، إن عَشَقَكَ هو سلطانُ عَزِيص قلبي، لو كنتُ أملك سعادة العالم كله فأنأ في النهاية جاريةً لديك..."

أَنْتَضِرُ بِقَلْبٍ قَدْ احْتَرَقَ مِائَةَ أَلْفِ مَرَّةٍ:

سلطاني، يا جَنَّةَ فَرْدُوسِي!

إِن الدُّنْيَا الْغَدَّارَةُ تُؤْلِمُنِي بِظُلْمِهَا، وَتَطْعُنُنِي فِي جَنْبَاتِي بِخَنَاجِرِ  
الْفِرَاقِ، إِنَّهَا لَا تَرَى دِمْعَاتِي الْمُسْكِينَةَ.

إِذَا مَا فَقَدْتُكَ يَا مَتَّبِعَ جَنَّتِي الْأَبَدِيَّةِ، فَسَتَقْلِبُ سَعَادَتِي إِلَى  
شِقَاءٍ، وَسَيَنْقَلِبُ عَالَمِي إِلَى تَعَاسَةٍ مُحَقَّقَةٍ، لَقَدْ احْتَرَقَ الْإِنْسُ  
وَالْجَنُّ مِنْ هَؤُلَاءِ أَلَمِي وَصِيَاخِي يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ...

وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ ﷻ أَنْ يَرْحَمَ دِمْعِي، وَيَسِّرَ أُمُورِي، فَيُرِدَّ لِي  
الْحَيَاةَ، وَيَنْقُذَنِي مِنَ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَالْبَعَادِ...!

"يَا سُلْطَانِي الرَّائِعَ اللَّطِيفَ..."

يَا مَنْ أَرَى فِيهِ جَمَالَ يُوسُفَ، وَأَتَذُوقُ بِكَلِمَاتِهِ حُلَاوَةَ الْعَسَلِ  
الْمُضْغَى، إِنْسِي أَبْتهِلُ إِلَى اللَّهِ وَأَدْعُوهُ كَيْ يُبَيِّرَ وَجْهِي بِرُؤْيَا طَلَّةٍ  
وَجْهَكَ الْمُبَارَكَةِ!

يَا ثَرَى... لَوْ كَانَتِ الْبَحَارُ مَدَاذَا لِكَلِمَاتِي، وَالْأَشْجَارُ أَقْلَامِي،  
فَهَلْ سَيَكْفِي هَذَا لِلتَّعْبِيرِ عَنْ آلَامِي بِبَعْدِكَ عَنِي وَفِرَاقِكَ لِي؟!...  
مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ أَلَمَ الْفِرَاقِ فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ يُوسُفَ، لِيُدْرِكَ آلَامَ  
الْمُشْتَاقِ وَهَمُومِهِ...

سلطاني، يَا ثَوْرَ عَيْنِي! عِنْدَمَا لَا أَجِدُكَ بِجَانِبِي أَخْشَى أَنْ  
تَحْتَرِقَ الدُّنْيَا بِأَسْرَافِهَا مِنْ نَارِ آهَاتِي... وَفِي الْفَجْرِ عِنْدَمَا يَغِيبُ عَنِي  
وَجْهَكَ الْوَرْدِيُّ أَخْشَى أَنْ يَنْفَرَطَ عَقْدُ الْأَكْوَانِ مِنْ بُكَائِي وَأَيْنِي.  
إِنْ حَنِينِي إِلَيْكَ يَا بَدْرَ الْاِسْتِيقَاقِ يُشْعِرُنِي بِالنَّهَارِ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ  
حَالِكُ السَّوَادِ، بَلْ إِنْ الدُّنْيَا كُلُّهَا تَسْوَدُّ أَمَامِي عِنْدَ فِرَاقِكَ.

فِرَاقُكَ يَا مَلِيكِي قَدْ كَوَانِي      وَبَعْدُكَ قَدْ سَبَى مَنِّي جَنَانِي

فَأَهْ مِنْ بَعَادِكَ ثُمَّ أَهْ      مِنَ الْأَشْوَاقِ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ

يا لَهْؤُل هذا الاشتياق، آو من الاشتياق، آو من الاشتياق<sup>(٣٥)</sup>  
 آه يا سلطاني... لا يوجد حدٌ لألمِ الحنين، فإذا أردتم تخفيفَ هذا  
 الألم عني، فلا تتأخروا في إرسال خطابكم الغالي؛ عسى أن نجدَ  
 رُوجي فيه السُّلُوى والراحة  
 الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرم".<sup>(٣٥)</sup>

• • •

إن "خُرم" في رسالتها تلك تُشيرُ إلى الفراق الأليم الذي حلّ بها.  
 لقد كانت "خُرم" تسعى إلى أن تأخذ السلطانَ من العالم الذي كان  
 يعيش فيه -الذي لم يكن به سوى سهيل الخيول، ووقع السيوف، وقرعِ  
 الطبول- إلى عالمٍ آخر، هو عالمُ العُشْق والفرِّ والشَّعر، وكانت تقصد  
 بهذه العباراتِ الغزليَّة اللطيفة أن ترقِّقَ قلبه العسكري المتين.

وفي نهاية الرسالة، نراها تتحدَّث إلى السلطان عن أبنائها محمد وعبد  
 الله<sup>(٣٦)</sup> وسليم ومِهْرِمَاة، وتضيف إليه كذلك سلامَ نَجْلِهِ الأمير مصطفى.

وعلى الرغم من أن "خُرم" قد نقلت إلى السلطان حتى سلام جاريته  
 "جُولْفَم" (Gülfem) إلا أننا لا نجد ذِكْرًا على الإطلاق لوالدة الأمير  
 مصطفى السلطانة "جولبهار" (Gülbahar) (ت: ١٥٨٠م)<sup>(٣٧)</sup>، التي كانت  
 في ذلك الوقت تعيش معها في القصر السلطاني، ولعله من الجدير بالذكر

(٣٥) أصل هذا البيت لم يتم العثور عليه، ولكنني على قناعة من أن المعنى الذي يمكن فهمه عند قراءة الشطر الأول،  
 وارتباط كلمة الاشتياق بالشطر الثاني تفهم على هذا النحو:

إن حيني يا پدر الاشتياق يأتي كالليل الذي يطرق الأبواب

ياله من مصيبة هذا الاشتياق، أه من الاشتياق، وآه من الاشتياق

(٣٥) جافغاناني أولوخاني (Çağatay Uluçay)، رسائل العشق للسلطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٠-٤٣.

(٣٦) لقد توفي الأمير عبد الله بعد فترة وجيزة.

(٣٧) جُولْبَاهَر، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

الإشارة هنا إلى أن هذا يُعدُّ دليلاً ملموساً على مشاعر الغيرة ونيرانها، التي كانت تضطرمُّ بين السلطانتين في تلك المرحلة.

\*\*\*

لقد أثار السلطان صانع نصر "موهاج"، وفتح قلاع المَجَر ومدينة "بودين" العظيمة مَسَاعِرَ والدَتِهِ السلطانة "حفصة"، لقد كان ابنُها البطل يُحرز الانتصارات في المعارك الكبرى، ويفتح القلاع أينما ذهب، فأبى سعادة يا تُرى أكثر من هذا قد تنالها أمُّ، وهي ترى ابنها يحقق كلَّ هذا النجاح.

كانت السلطانة الوالدة حفصة تُذِيلُ رَسَائِلَها بِـ "المتوكلة على الله" أو "والدة السلطان سليمان شاه" شاعرة بالفخر بأنها أمُّ لابنٍ مثل سليمان<sup>(٣٨)</sup>.

### نَصْرُكَ اللهُ على الكافرين

بينما كان السلطان سليمان في "بودين" وَصَلَهُ الخطابُ الثاني من "خُزْم". وفي هذه الرسالة الثانية كانت "خُزْم" تُناجي السلطان سليمان على النحو التالي:

"سلطاني ومليكي!

إن بكائي واشتياقي ولوعتي تفيضُ بأهائي الحزينة ودموع عيني وتعاसे قلبي.

إن قَدْرِي أن أتألمَ لِعَيْةِ طَلَّتْكَ البهية التي فاق نورها ضياء الشمس، ولكن حيرتي واندهاشي قد زادا مع طول غيبتك وانحجاب وجهك البديع عني...

"سلطاني يا حبيب قلبي ونفسي... يا مليكي، يا مَنْ مَلَكْتُ رُوحِي إنك أُمْلِي في الدنيا والآخرة!



كان الله في عونك، اللهم كن معه، وسخر له كل أجزاء الكون، وأبعد عنه الأمراض والأسقام، والطّف به لطفًا أبديًا بحرمة وجه حبيبك محمد ﷺ واجعل أرواح أوليائك الكرام إلى جواره، واجعله إلهي مظفرًا ومنصورًا على الكفار في كل زمانٍ ومكانٍ...".

"يا سلطاني، إن خطابك وكلماتك التي وصلت إليّ قد أحتيتني وزدّت إليّ الرّوح، لقد بعث خطابك النور في عيوني المظلمة، وأنهج قلبي الخزين، فبا لسعادتي! أرجوك... لا تتوقّف أبدًا عن إحياء قلبي وروحي..."

"سلطاني.. لقد جاء أحد الأولياء الصالحين من مكة المكرمة، وقال: إنه قد شاهد رسول الله ﷺ في الرؤيا، وقد أمره سيّد الخلق ﷺ أن يجهّز قميصًا مخصوصًا يرتديه السلطان سليمان في الجهاد، فأطاع ذلك الولي أمر النبي ﷺ، وعرض الأمر على "شهرستاني (Şehristânî) وبعدما تحوّر هذا الأخير الأمر وتأكد من صدق هذا الرجل، سلّم القميص إلى "أمه كوجا (Emre Koca)"، وقد أرسله "أمه كوجا" بدوره إلينا، وها أنا ذا أرسله إليكم.

واني أستحلفك بالله ﷻ وبحرمة النبي ﷺ أن لا تمتنع عن لبس هذا القميص المبارك".

الفقيرة الذليلة، جاريتمكم "خُرُم" (٣٩)

كانت "خُرُم" حريصة على أن تُزيّن خطاباتها إلى السلطان بآيات من الشعر تفيض رقةً وعزوبةً تنشرها بين سطور هذه الخطابات:

أيّا رياح الصبا! قولي لسلطاني: كم أنا مشتاقةٌ وبى لوعة!

قولي له: إن فراقي لوجهه الوردّي قد جعلني كالبلبل الجريح، أخبريه أنّ ألمي لم يجد له أحدٌ دواءً أو علاجًا،

لقد صار قلبي مَرْتَعًا للآلام والأحزان التي سكنته،

قولي له: إنه قد صار كالنايٍ مريضٍ وهزّيلٍ من أثر الفراق"

وكما نرى فقد كانت "السلطنة خُرْمٌ" تتضرع إلى الله ﷻ؛ من أجل أن يحفظ الله السلطانَ ويرعاه، وتبتهل إلى المولى ﷻ؛ لكي يُبعدَ عنه المرض والمصائب والأحزان، كما كانت تلتمسُ بركةَ النبي ﷺ والأولياء الصالحين من أجل أن يتصرَّ في حروبه ويفوزَ على الكافرين، لقد قامت بنفسها بخياطةِ القميصِ الذي حدَّدَ هيئته رسول الله ﷺ في الرؤيا، وأرسلته إلى السلطان وهي مُصرَّةٌ على أن يرتديه أثناء الجهاد.

وإذا كان يتضحُ من الخطاب مدى غلبةِ الشعور الدينيِّ والصوفيِّ، فإنه لا يغيب عن أنظارنا أيضًا فيضُ المشاعر الجياشةِ التي تعبَّرُ عن أحاسيسِ الفراق والاشتياق.

يتضح لنا كذلك بشكلٍ جليٍّ -من خلال تلك الخطابات التي كتبها "خُرْمٌ" الشابة ذات الاثنين والعشرين ربيعاً وبشكل لا يمكن الجدل فيه- مدى تفوقها الكبير في مجال الأدب، وتمتعها بحسِّ بلاغيٍّ عالٍ، سواءً في الشعر أم في النثر، إلى جانب تمتعها بمشاعرٍ دينيةٍ وصوفيةٍ وتراثيةٍ<sup>(١٠)</sup>. كذلك تشير تلك الخطابات أيضًا إلى أن "خُرْمٌ" قد وصلت إلى درجةٍ عاليةٍ من التعليم، سواءً أكان من ذلك النوع المتاح في القصر أم من مصادرٍ مختلفةٍ، كما تدلُّ تلك الخطابات بقوةٍ على ما كانت تتمتع به من ذكاءٍ وفطنةٍ.

كان السلطان سليمان الذي أخضع أقوى الجيوش الأوروبية في فترةٍ وجيزةٍ، قد قابَلَ أشعارَ "خُرْمٌ" المليئةً بالأحاسيسِ والحبِّ والعاطفةِ، بإرساله إليها بأشعارٍ مُفعمةٍ بالمشاعر والأحاسيسِ والحبِّ الممتزجِ بالعاطفةِ الدينية:

(١٠) في تلك الأثناء أنجبت "خُرْمٌ" مولوداً آخر هو "الأمير جهانجير"، وإذا استثنينا ابنتها الأولى "بَهْرَمَاء" فإن كل أمير كانت "خُرْمٌ" تنجبهُ للسلطان كان من العوامل التي تقربها أكثر منه.

لا تَسَلْ مجنونًا ما الحب لِيَشْرَحَهُ لك فإنه مجنون،  
 ولا تَكْشِفْ سِرَّ الحب لـ "فرهاد" فهو مجرد أسطورة،  
 إذا أردت أن تسأل عن رموز العشق فسلني، فأنا بها خبير،  
 إن العاشق يترك لمحبيه رُوحه وعَقْلَه وقد عَمِيَ عَمَّا سِوَاهُ،  
 تعالي وشاهدي فؤادي الذي صار كالقصر.  
 إنه دار مزينة وقد نُقِشت جدرانها بدموع عيني الحمراء الدامية<sup>(١١)</sup>

• • •

إلى جانب هذا نجد السلطان في الرسالة التي أرسلها إلى "خُرُم"  
 من المَجَرِ يخاطبها قائلا:

"إنني أشاق إليك يا زوجتي "خُرُم"،  
 ولا أرى سواك في أحلامي."<sup>(١٢)</sup>

ثم يُزَيِّن رسالته بالأشعار التالية:

أيها الطبيب! إن ألم رأسي يزداد، فاتركني كي أرتاح،  
 إنني مريض بالعشق ولن يفيد في علاج ألمي ما عُرِفَ من دواء،  
 يا حبيبي! لقد صرت مجنونًا منذ أن عشقت ليلى،  
 حتى صارت الطيور تصنع أعشاشها فوق رأسي.

### حصار فيينا

اتفق أغلب أمراء المجر على اختيار أمير جديد لمنطقة "أردل" -وهي  
 الآن أحد أقاليم دولة رومانيا- ألا وهو الأمير "يانوش" (Yanos) الذي اعتلى  
 عرش المَجَرِ بتأييد من الدولة العلية العثمانية، وبعد اعتلاء الملك الجديد

(١١) أولوغجائي، رسائل العشق للسلطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٢٢.

(١٢) نَجاة ر. أوجتوم (Nejat R. Uçtum)، الرسائل المكتوبة من قبل السلطنتين "خُرُم" و"يهرغانة" إلى ملك بولندا  
 "زيجموند الثاني"، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد ١٧٥، ص ٧٠١.

عرش المجر رجع الجيش العثماني إلى إسطنبول، لكن بعد مغادرة الجيش العثماني أراضي المجر قام باقي أمراء ووجهاء المجر المناهضين لاعتلاء "الأمير يانوش" عرش المجر في "أردل" بتصرف غريب حيث قاموا بتنصيب قائد جيش النمسا وأحد عقلائها وتبلائها "فرديناند" ليجلس على عرش المجر.

وهكذا أصبح للمجر ملكان، أحدهما مدعوم من قبل العثمانيين، أما الآخر فمدعوم من إمبراطور ألمانيا.

قام "فرديناند" بعد مغادرة الجيش العثماني للبلاد بالهجوم على "بودين"، وبناءً على الوعد الذي قطعه السلطان سليمان بحماية الملك "يونوش"، فقد خرج السلطان من دار السعادة وعاصمة الدولة العثمانية -إسطنبول- على رأس جيش جزار قوامه مائتين وخمسين ألف جندي، وذلك في أيار/مايو من عام (١٥٢٩م)<sup>(٣٢)</sup>.

دخل الجيش العثماني المجر عابراً شبه جزيرة البلقان، وقام السلطان سليمان بتتويج "يونوش" ملكاً على المجر في احتفالية مهيبه، ثم سار بعدها الجيش السلطاني بعد أن استعاد "بودين" في اتجاه "فيننا" التي يوجد بها "فرديناند"<sup>(٣٣)</sup>.

ولم يكن الوقت الذي صادف أواخر أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م ملائماً لإقامة الحصار حول "فيننا"، فاضطرّ العثمانيون في نهاية اليوم الحادي والعشرين إلى رفع الحصار؛ بسبب الظروف المناخية القاسية في فصل الشتاء، وعاد الجيش العثماني إلى بودين وبصحبه ستين ألف أسير.

(٣٢) أوزون جازييلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣٣) في أثناء حصار (فيننا) وصلت هجمات العثمانيين تحت قيادة "محمد بك" ابن "بالي بك (Bali Bey)" حتى مدينة "راتسبون (Ratisbon)" الواقعة في مقاطعة بافاريا (Baviera) وكذلك بلغت مدينة "برون (Brün)" إحدى مدن التشيك،

أثناء هذه الحملة العسكرية كان إبراهيم باشا يشغل عدّة مناصب، فقد كان يشغل منصب الصدر الأعظم، ومنصب قائد الجيش، وفي الوقت نفسه كان إبراهيم باشا أيضاً هو كبير أمراء وقواد الدولة العثمانية على الأراضي الأوروبية، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إن إبراهيم باشا كان يجمع في يديه كافّة الصلاحيات السياسية والعسكرية والإدارية، وعلى هذا النحو أصبح لإبراهيم باشا اسم جديد صار يطلق عليه، ألا وهو "مقبول باشا"<sup>(١٥)</sup>.

### وفاة السلطنة الأمّ "حفصة"

بعد أن اطمأن "السلطان سليمان" إلى استقرار الأوضاع على الجبهة الغربية، قرّر أن يتوجّه صوب الشرق.

لقد كانت إيران منذ حكم الصفويين في صراعٍ مريرٍ مع العثمانيين، وكان شاه إيران "طهماسب" يمارس ألامه القدرة على أراضي الأناضول كلما سنحت له الفرصة، وعندما كانت حركات العصيان والتمرد تندلع، كان الصفويون يتجهزون الفرصة ويعملون بكلّ جهدهم على تأجيجها وعلى إذكاء روح الفتنة؛ لذلك ومن أجل وضع حدٍ لهذه المسألة فقد اتخذ "السلطان سليمان" قراره بتوجيه حملة عسكرية إلى الشرق<sup>(١٦)</sup>.

لقد كانت لدى "السلطان سليمان" رغبة قويّة في السيطرة على بغداد وإخضاعها إلى الدولة العثمانية، ومن أجل تحقيق تلك الرغبة تمّ أولاً

(١٥) يروى أن هذا التحين في منصب الصدر الأعظم قد تم بسبب اتساع رقعة الدولة، وتنامي وزيادة الأعمال، حيث يروى كذلك أن "سليمان القانوني" قد أعرب عن هذا الأمر قائلاً: "ليس من المناسب أن يبت السلطان وينظر في كل شيء". (أخسرون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤).

(١٦) كان لدى "شلي" دراية واسعة بالأمور المالية، حيث استطاع أن يحفظ بمنصب "باش دفتر دار" لسنوات طويلة. ولقد كان لدى "سليمان القانوني" ثقة كبيرة واعتماد عليه. ومن أجل الاستفادة من خبرته في "حملة العراق" فقد قام بتعيينه في منصب "كتخدا سر عسكر" إلى جانب "إبراهيم باشا" الذي أوصاه "القانوني" بنفسه عند التحرك من "دار السعادة" قائلاً: "إن إسكندر شلي رجل عالم وخبير، فلا تخالف رايه".

إرسال الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على رأس جيش في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٣٣م). كذلك فقد تمَّ تعيينُ رئيسِ دفتردار "إسكندر شليبي" (*İskender Çelebi*) بناءً على سابق خبرته وتجربته في وظيفة مستشار وقائم بأعمال الصدر الأعظم.

وفي أثناء حملة الشرق الموجهة ضدَّ إيران، حدثت واقعة أليمة هزَّت أرجاء القصر العثماني؛ إذ تُوفِّيت السلطانةُ الوالدةُ "حفصة" في التاسع عشر من آذار/مارس من عام (١٥٣٤م) الموافق الرابع من رمضان من عام (٩٤٠هـ) عن عُمرٍ يُناهزُ السادسةَ والخمسينَ عامًا،<sup>(١٧)</sup> حيث ظَلَّت السلطانة "حفصة" تتمتع بقلب "السلطانة الوالدة" لمدة ثلاثة عشرَ عامًا وخمسة شهور وسبعة وعشرين يومًا، كانت خلالها هي المسيطرة على جناح الحريم بوصفها "والدة السلطان"، كما كانت في الوقت نفسه محبوبةً من الجميع، لقد كانت السلطانة "حفصة" معروفةً بين الناس أنها تُحبُّ القيام بأعمال الخير، إلى جانب اشتهاها برقة القلب والرحمة والشفقة، ولقد تمَّ دَفْنُ السلطانة "حفصة" في صُحْن جامع السلطان "سليم"، بالقرب من قبر زوجها السلطان "ياووز سليم"؛ حيث قام ابنها السلطان "سليمان القانوني" فيما بعد بإنشاء مقبرة فخمة هناك<sup>(١٨)</sup>.

وبناءً على ما يذكره بعض المؤرخين، فلقد كانت وفاة السلطانة "حفصة" نقطة تحولَ هامة للغاية، أدَّنتُ بداية ما عُرفَ في القصر العثماني باسم "سلطنة النساء".

(١٧) علي خيَنَزِيَّات (*Haydar Bayar*)، السلطانة خُفْصَة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٧م، الجزء التاسع، ص ١٢٢.

(١٨) لقد أنهك هذا الفزع الفخم في زلزال عام (١٨٩٤م)، ولم يتم ترميمه رغم مرور حوالي مائة وعشرين عامًا على إنشائه.

وكما يقول لنا "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد": فإن "السلطنة خُرُم" قد بدأت تستغلَّ ضَعْفَ السلطان تجاهَّها، والنفوذَ الكبيرَ الذي نالته بناءً على هذه العاطفة التي يَكُنُّها نحوها السلطانُ في تحقيقِ مصالحِها الشخصية<sup>(١٩)</sup>.  
لقد أصبحت "خُرُم" هي قُرَّةُ عينِ السلطان بعد أن أنجبت له الأطفالَ ونجحت في جَذْبِ انتباهِهِ من بين بقيَّةِ الجوّاري، لكننا لا نستطيع القول إنها قد أصبحت المَهْمِيْمَةُ على السلطان تماماً، في الفترة التي كانت فيها السلطنة "حفصة" على قيد الحياة.

بالطبع لقد كانت لها مكانة مرموقة بين بقيَّةِ الجوّاري الأخريات، لكن بعد وفاة السلطنة الأمِّ، ويفضل الأطفال الذين أنجبَتْهم للسلطان، نالت حريَّتُها بعد أن عاشت في القصر -كجارية- فترة من الوقت.

• • •

كانت "ماهيدوران جلبهار خاتون" (*Māhidevrān Gülbahar Hatun*) أمُّ الأمير مصطفى هي قُرَّةُ عينِ السلطان والمفضلةُ لديه في تلك الأثناء التي بدأت تتفوق فيها "خُرُم" على غيرها من نساء القصر، وتسعى لجذب انتباه السلطان سليمان، ولكن مع تنامي حبِّ السلطان لجاريته الجديدة "خُرُم" بدأت مشاعرُ الغيرةِ الشديدةِ والنفورِ الواضحِ تتصاعدُ بين الاثنين، ولكن هذا الجوُّ السلبيُّ والمشحون بين المرأتين المتنافستين لم يظهر ويتضح للسلطان القانوني إلا بعد وفاة أمه، التي كانت تُسيطرُ -وبشدة- على جناح الحريم في القصر، لكن بعد وفاة السلطنة "حفصة" تزايد الصراعُ جذَّةً بين كلٍّ من "خُرُم" و"ماهيدوران"؛ حيث دخلت المرأتان في طورٍ أكبر وأوضح من العداوة المستمرة التي لا تهدأ.

وقد تصاعدت حدة التوتر بين هاتين المرأتين، وظهر التناحر والتباغض والتنافس من كليهما بشدة، حتى وصل الأمر بالسيدة "ماهيدوران جلبهار" أن تناولت مرةً على منافستها "خرم"، وأهانها إهانةً بالغةً؛ حيث لَطَمَتْها على وجهها بكل قسوة، ودون شفقة<sup>(٥٠)</sup>.

وعندما عَلِمَ السلطان بالواقعة تدخل في الأمر، وقام بإرسال "ماهيدوران جلبهار" إلى ابنها وَلِيِّ العهد الأمير مصطفى الذي كان في ذلك الوقت يتولّى حكمَ "صاروخان" (Saruhan) (أي: مانيسا)، وعلى الأرجح أنه قد عَقَدَ قِرَانَهُ على "خُزْم" بإصرارٍ والحاحٍ منها. وبناءً على ما يرويه سفير ألمانيا "بوسبيك" (Busbecq):

لقد كان "القانوني" يحب تلك المرأة (أي: خُزْم) إلى درجة أنه قد رفعها إلى مرتبة الزوجة الشرعية، كما قام بإعداد وتجهيز جهاز العروس من أجلها، وهو ما يُعَدُّ في عُرْفِ الأتراك علامةً واعتراكاً بحدوث زواج شرعيٍّ ورسميٍّ.<sup>(٥١)</sup>

### استسلام بغداد بدون مقاومة

تَوَجَّهَ "إبراهيم باشا" إلى "حلب" أولاً فدخلها، وكانت نيَّته أن يستولي على بغداد عن طريق "الموصل"، لكن الدفتردار<sup>(٥٢)</sup> "إسكندر باشا" نصَّحه أن يَتَّجِهَ بدلاً من ذلك إلى مدينة "تبريز"، وبحلول الثالث عشر من حزيران/ يوليو من عام (١٥٣٤م) أصبحت "تبريز" جزءاً من الدولة العثمانية بدون الدخول في حرب.

(٥٠) لم يكن السلاطين مُلْزَمِينَ بِعَقْدِ القران على الجوّاري.

(٥١) أوجثوْم، المصدر السابق، ص ٦٩٨.

(٥٢) الدفتردار: اصطلاح عثماني يطلق على القائم بأعمال أموال الدولة، مثل وزير المالية أو الاقتصاد في عصرنا.

(المترجم)



وبعد أن قضى "السلطان سليمان" فصل الشتاء في إسطنبول توجه إلى "تبريز" بناءً على دعوة "إبراهيم باشا" الصدر الأعظم؛ حيث وصلها في أواخر أكتوبر، وبدون أن يضيّع أيّ وقت استطاع أن يصل إلى بغداد في غضون سبعة أيام، كان والي بغداد قد انسحب من المنطقة، وترك بغداد -دون أيّ مقاومة تُذكر- قبل وصول القوات العثمانية؛ حيث استسلمت المدينة والقلعة بمتهى السهولة في يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٤م).

وبعد يومين من استسلام بغداد، ووسط جو مليء بالثناء على السلطان، والدعاء له من البغداديين، دخل السلطان القانوني إلى بغداد فتوجه أولاً وقبل كل شيء لزيارة ضريح الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان" عليه السلام مؤسس المذهب الحنفي، ثم أمر بتشييد ضريح جديد وعظيم له بدلاً من ذلك الضريح الذي خربه غلاة الشيعة <sup>(٥٣)</sup>.

ثم أمر "السلطان سليمان" -خلال الأربعة أشهر التي مكثها في بغداد- بإحصاء وتسجيل الأراضي الموجودة في المدينة، وفي نفس الوقت قام "السلطان سليمان" كذلك بتطبيق القوانين المُتبعة في الدولة العلية العثمانية، فيما يخص "قطاع الزراعة" من ناحية كيفية إقطاع الأراضي الزراعية، ومنح حق الانتفاع بها، وذلك من خلال مجموعة من اللوائح الإدارية التنظيمية التي تكفل تحقيق العدالة، ومن خلال هذه الإجراءات التي اتخذها السلطان استطاع أن يبرهن ويثبت براعته ودقته فيما يتعلق بالإدارة والقيادة.

(٥٣) تحمل "بغداد" العديد من الأسماء الأخرى مثل "برج الأولياء"، حيث إن "الشيخ عبد القادر الجيلاني" وغيره من كبار الأولياء قد عاشوا في هذه المدينة، التي تسمى أيضاً "دار الخلافة"، حيث كانت مقراً للخلافة العباسية، ويعتبر "فتح بغداد" من الأحداث التي تحمل قيمة معنوية كبيرة في التاريخ العثماني. (ضيا نور، المصدر السابق، ص ٢٧٥).

إِنْ شَعْرَةٌ مِنْ شَارِبِكُمُ الْمُبَارَكِ أَغْلَى عِنْدِي...

أثناء الحملة التي قادها "السلطان سليمان" للسيطرة على بغداد، لم تَتَوَّانَ "السلطانة خُرْمٌ" في إرسال الخطابات إليه؛ حيث كانت حريصةً في هذه الخطابات على بَيِّنَةٍ ما كانت تُحِسُّ به من حُبِّ صادقٍ، ومشاعرٍ جيَّاشةٍ تجاهَ السلطان.

ونجدها تبدأ إحدى الخطابات التي أرسلتها إلى السلطان سليمان بالجملة التالية:

"بعد أن أَعَفَّزَ وجهي في التراب، وبعد أن أَقْبَلَ الأرض التي تحت قَدَمَيْكَ أشْعُرُ بالسعادة..."

ونراها قد أخذت تشدو بالكلمات التالية مُعَبِّرةً بها عن العشقِ وألمِ الفراق:

"سلطاني يا شمس الدولة، ورأس مالِ سَعَادَتِي!  
إذا أردت أن تعرفَ حالِي من بعدك.. فإن قلبي قد احترق،  
وكبدِي أصبحَ كالجمرةِ الملتَهَبَةِ من الشوق، وصار صدري خرابًا،  
وأما عيناِي فهما مليتان بالدموع، لم أَغْذُ أعرف ليلي من نهاري،  
وأصبحتُ غارقةً في بحرِ الحسرةِ، مبتلةٌ بحَبْكَم، حتى صرتُ  
مسكينَةً وأشدَّ سوءًا من حال "فرحات" و"المجنون".

ثم أَخَذَتْ تكمل ما سطرته بالعبارات التالية:

"كَمْ طَالَ الأَمَدُ وأنا بعيدةٌ عن سلطاني، وآهاتي ونحيبي  
جعلاني مثلَ البلبِلِ الصَّدَاحِ، وهذا الأَلَمُ كُلُّهُ يامولاي سَيَبُثُّ بعدُكُمْ  
عني وفراقُكُمْ لي، حتى إنني من قَزْطِ أَلْبِي أصبحتُ لا أتمنى  
أن يبتلي الله أحدًا بمثلِ ما ابتلاني به، حتى ولو كان من عباده  
الكافرين".

ونجد "السلطانة خُرُم" في جزء آخر من الخطاب تتألم قائلة:  
 "لِعَدَمِ ورود الأخبار عنكم منذ شهر ونصف، فالله يعلم كيف  
 أصبحت في كَنَدٍ مَرِيرٍ، لقد صِرْتُ أبكى ليلًا ونهارًا، وأصبحت  
 زاهدة في الدنيا ومتاعها، وضاعت الدنيا في عيوني بما رَحُبْتُ".  
 وبينما أبكي ولا أدري ماذا أفعل، وأتَلَقْتُ حولي بعيونٍ مليئةٍ  
 بالدموع، وصَلَّيْتُ والحمدُ لله أخبارَ مُبَشِّرَةٍ وسارةٍ عن الفتح وأمورٍ  
 أخرى، لقد أَحْيَيْتَنِي تلك الأخبارُ وردَّتْ إليَّ رُوحي بعد أن كُنْتُ  
 ميتةً، فصرت -بفضل الله ورحمته- أرى كُلَّ شيءٍ من حولي  
 يَفِيضُ نورًا وبريقًا، بعد أن كُنْتُ أرى الكونَ كُلَّهُ غارقًا في بحار  
 الظلمة والظلام ... (٥١)".

وفي إحدى مقاطع رسالتها تردُّ على السلطان بالمدح بعد أن أمرَ  
 بإرسالِ خمسةِ آلافِ عملةٍ ذهبيةٍ (٥٢) إليها، فتقول:

"سلطاني لماذا أتعبت نفسك؟ إن شِعْرَةَ مِنْ شَارِبِكُم المُبَارَكِ  
 أغلى عندي من خمسةِ آلافِ عملةٍ ذهبيةٍ، بل أغلى عندي من مائةِ  
 ألفِ عملةٍ ذهبيةٍ... (٥٣)".

إن "السلطانة خُرُم" تقول في خطابها: إنها كانت تنتظر أن يُرْسِلَ إليها  
 السلطانُ بالكثير من الخطابات، كذلك نجدها في الوقتِ نفسه لا تجدُ ما  
 يَمْنُها من أن تُقَصَّ على السلطان ما كان يدورُ في القصرِ من إشاعاتٍ  
 حال غيابِه فتقول:

"إنني أتضرعُ إليكم وأرجوكم أن تُرسلوا لي الكثير من  
 الخطابات؛ لأنني -والله يعلم أنني لا أكذب- إذا لم يأتني ساعي

(٥١) أولوجاني، رسائل العثمانيين للسلطانين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٣.

(٥٥) هذه العملة التي تسمى "فلوري" تم استعمالها أول الأمر في دوقية "فينيسيا" (Venetia)، ثم أصبحت مستخدمةً  
 بعد ذلك في أوروبا وفي الدولة العثمانية، وهي عبارة عن عملة فضية عليها رسم لزهرة الزنبق.

(٥٦) أولوجاني، رسائل العثمانيين للسلطانين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٤.

البريد بخطابٍ منكم لأسبوعٍ أو لأسبوعين، فإن الناسُ يُكثِّرون من القليلِ والقال، وينشرون الإشاعات المختلفة...<sup>(٥٧)</sup>.

\* \* \*

وتبدأ "السلطانة خُرْم" خطابها الثاني الذي أرسلته إلى "السلطان سليمان" بالأسطر التالية:

"سلطاني الحبيب، بعد أن أَعَفَّرَ وجهي المتواضع بتراب قدميك المُبْجَل..."

وتستمر في كلامها قائلة:

"...أقسم بالله ياروحي! لم يغذ ليلى ليلاً ولم يعد نهاري نهاراً، بعد أن صِرْتُ بعيدةً ومحرومةً من وصالك، فماذا تتوقع أن يكونَ حالي وأنا بعيدةٌ عنك؟ إنني أقسمُ مراراً وتكراراً، أنني أحترق ليلاً ونهاراً من نار الفراق، فمَنْ عساه يا تُرى يعلم بحالي سوى الحقِّ ﷻ...".

ولا تنسى "السلطانة خُرْم" أن تُرَيِّنَ رسالتها بشيءٍ من الشعر، تنثره بين سطور الرسالة:

"عجباً! أياكون من نصيبي أن أراك مرة ثانية في هذه الدنيا؟  
أتمنى أن يمنحني الباري فرصةً واحدةً كي أَعَفَّرَ وجهي عند أقدامك...  
كم هي مؤلمةٌ وصعبةٌ مرارةُ الفراق والبعد عن السلطان  
إن نيران تلك الفرقة قد تمكنت مِنِّي، فاشتعلت بي وأحرقنتي"<sup>(٥٨)</sup>

(٥٧) مع الأسف لم يَنْشَأْ حتى الآن العثور في سجلات الأرشيف على تلك الخطابات التي كتبها "سليمان القانوني" إلى "خُرْم".

(٥٨) أولونجاقي، رسائل المشق للسلطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٧-٥٨.

## مقتل "إبراهيم باشا"

بعد أن انتهت "حملة العراق" تحرك الجيش السلطاني الذي يقوده "سليمان العظيم" من مدينة "تبريز" بتاريخ الثالث والعشرين من أيلول/سبتمبر من عام (١٥٣٥م)، متوجّهاً إلى مقرّ الخلافة في إسطنبول بعد أن مرّ على "حلب" و"أضنه (Adana)" و"أسكي شهير (Eskişehir)"، وبحلول الأسبوع الأوّل من شهر تشرين الأول/أكتوبر وصل السلطان على رأس جيشه إلى الآسِنَانَة (أي: إسطنبول)، حيث استقبل في جوّ احتفاليٍّ ومراسمٍ عظيمةٍ بعد رحلةٍ استمرّت عدّة أشهرٍ.

ولكن بعد مرور شهرين فقط على وصول "السلطان سليمان" مُظفراً إلى عاصمةٍ دوليّةٍ، حدث زلزالٌ سياسيٌّ داخل الدولة العثمانية حيث وقع خبرٌ أليمٌ كالصاعقة على أهل إسطنبول.

لقد قُتلَ الوزيرُ الأعظم "إبراهيم باشا"، الذي كان معروفاً بلقب "مقبول" قُتلَ مخنوقاً، لقد قُتلَ الوزيرُ الأعظم الذي زُفَّ كعريسٍ إلى القصر ليتزوَّج السلطنة "خديجة" شقيقة السلطان، وجاء مقتله بعد أن قضى قرابة ثلاثة عشر عاماً يشغل وظيفة الصدر الأعظم في الدولة العلية العثمانية، استطاع خلالها بإمكانياته العديدة أن يحظى بحب السلطان، وأن يترقى ليصل إلى رتبة القائد العام للأساطيل والجيوش العثمانية، مُزوّداً بصلاحياتٍ واسعةٍ، وحائزاً لقب "سر عسكر" (Serasker) (٥٩).

(٥٩) سر عسكر: اصطلاح عثماني يشابه في عصرنا وزير الدفاع، أو قائد الجيش والقوات المسلحة. (المترجم)  
(٦٠) لقد كتب "بوسبيك (Busbecq)" سفير "شارل الخامس" حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في إسطنبول في تلك الفترة ما يلي: "لا يوجد شك في أن عاصمة الدولة العثمانية وكل الولايات التي يلمتها تلك الحادثة أصبح مُغلّها الشاغل هو مسألة خنق "إبراهيم باشا" في القصر بناءً على فرمان السلطان، لقد كانت تلك حادثة غير متوقعة... إنني في غاية الدهشة والذهول..." (أولُجايي، بعض الوثائق والملحوظات المتعلقة بالسلطان "سليمان القانوني" وعائته" كتاب "هدية القانوني"، أنقرة - ١٩٧٠م، ص ٢٣٥).

وكثيراً ما كان السلطان، سواء في إسطنبول أم في أثناء الحملات الحربية، يُشارك صديقه العزيز الصدر الأعظم في المأكل والمجلس، حتى إنه كان ينزل ضيفاً عليه في القصر عندما كانت تطول بهم مسامرات الليل، ولهذا فقد خُصِّصَ لإبراهيم باشا جناحاً مميزاً في القصر، لقد كانا صديقين حميمين لا يفترقان عن بعضهما ليل نهار.

وفي اليوم الثاني والعشرين من رمضان دُعِيَ "إبراهيم باشا" إلى القصر - مثلما كان يحدث في كثير من الأحيان - حيث تناول الإفطار مع السلطان وتجاذاً أطراف الحديث حتى منتصف الليل.

لقد اتخذ "القانوني" قراره في تلك الليلة بالأبى يُخبر صديقه بشيء، ومع تأخر الوقت استأذن "إبراهيم باشا" في التوجه إلى غرفته التي كانت ملاصقة لغرفة السلطان، ثم استغرق في نوم عميق دون أن يدرك ما سيحلُّ به، وبينما كان "إبراهيم باشا" يبيت ليلته في جناح فاخر الأثاث، وقد أخذ خياله يطوف في عالم من الرؤى والأحلام، إذا به يُقتل مخنوقاً على يد الجلاد "علي" وأعوانه، بعد أن تلقوا الأمر السلطاني بقتله في السادس من آذار/مارس من عام (١٥٣٦م)<sup>(١١)</sup>.

أمنى كُلٌّ مِنَ بالقصر، وكذلك العلماء والوزراء، في خيرة من أمرهم، فلم يكن أي شخص يعتقد أو يُظنُّ أنَّ السلطان قد يتخذ قراراً مثل هذا، وجرت الشائعات على ألسنة الشعب، لكنَّ السبب الحقيقي وراء هذه الواقعة لم يُعرف بعدُ إلى الآن.

إنَّ السبب وراء هذه الحادثة الغريبة التي وقعت قبل أربعمئة وثمانية وسبعين عاماً في القصر السلطاني، لم يُعرف حتى الآن بشكلٍ مفصلٍ

أو كامل، وحتى يومنا هذا لا يزال هناك ستارٌ من الأسرار التي تُغلف هذا الحادث.

إن المؤرّخين الغربيين والمحليين لا يزالون يدّعون أن "السلطنة خُرُم" لها دور ضائع في تلك الحادثة الأليمة، ولم ينفكوا عن توجيه أصابع الاتهام إليها بشكلٍ جائرٍ وظالم، حتى لقد صارت "السلطنة خُرُم" تبدو لهم وكأنها "المسؤول الوحيد" عن تلك الحادثة، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل صاروا يلصقون بها التّهم عند وقوع أيّ حادثةٍ سلبيةٍ ضمن تلك الحِقبة الزمنية التي عاشت فيها.

لقد رَفَى السلطان القانوني إبراهيم باشا رجلَ الدولة الخارقَ الذكاءِ إلى أعلى منصبٍ في الدولة، بينما كان في أوّل أمره عبدًا عاديًا، إلا أنه -أي السلطان- وقّع على فرمانٍ إعدامه بعد ثلاثة عشرَ عامًا، ولم يُصرّخ بأيّ شيءٍ عن قتله، ولم يَزغَب في الحديث عن هذا الموضوع قط<sup>(١٢)</sup>.

وفي الوقت نفسه نجد أن أغلب المصادر العثمانية لم تتناول هذه المسألة على الإطلاق، بينما نجد -على سبيل المثال- المؤرخ "الطفي باشا"، وبالرغم من عَمَلِه صدرًا أعظم للقانوني وعِلْمِه -في أغلب الظن- حقيقة هذا الأمر، لكنه يكتفي في حديثه عن هذا الموضوع بالقول:

"قَتَلَ السلطانُ وزيرَه "إبراهيم باشا" حين قَدِمَ إلى إسطنبول".

ونجد أن الكتابات التي تناولت مقتل "إبراهيم باشا" بِمُجْمَلِهَا اجتهادات فردية، أو أفكارَ شخصية أو ملاحظاتٍ لمؤرخين، لا أكثر من

(١٢) وبينما كان "سليمان القانوني" في طريقه إلى "سرز" هاتئنا من حملة "كورفو" مع قاضي عسكر الأناضول "محيى الدين" وقاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قندري"، فلذا بهم يسألونه سبب قتل "إبراهيم باشا" الذي ظل برًّا، فما كان من السلطان الذي تضاعف من سؤالهم وتقبيهم عن هذا الأمر إلا أن أمرَ بجزلهم، وأمر بتولية "أبي السمود" قاضي إسطنبول ليحل محل قاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قندري"، وكذلك أمر بتولية "تشفيزاده" قاضي مصر ليحل محل قاضي عسكر الأناضول "محيى الدين" (أوزون جازييلي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٩).

ذلك أما الأخطاء التي تُنسبُ إلى "إبراهيم باشا"، والعوامل التي أفصّت به إلى هذه النهاية المأساوية، فيمكن حصرها في إطار الأسباب التالية:

- أثناء الحملة العسكرية على العراق وُجِّهَتْ إلى "إبراهيم باشا" تهمّة جَرّ القوات التي كانت تحت قيادته إلى الهلاك في أرضٍ قاحلةٍ وصحراويةٍ، وذلك أثناء تَعَقُّبِ الجيشِ الإيراني، بعد أن سيطر على مدينة "تبريز".
- هذا بالإضافة إلى سُوءِ استعمال السلطات الواسعة التي منحها إياه السلطان<sup>(١٣)</sup>.
- وُضِّلوعه في إعداد الباشا دفتردار "إسكندر شلبي" في (آذار/مارس ١٥٣٥م)<sup>(١٤)</sup>.

(١٣) في أثناء الحملة العسكرية على العراق أخذ "أولاما خان" (*Olama Han*) يُخَرِّضُ "إبراهيم باشا" على أن يضاف لقب السلطان إلى جوار لقب "سر عسكر" الذي كان الباشا يحمله، حيث توجه بالسؤال التالي إلى "إبراهيم باشا" قائلاً: "هل هو كثير على الوزير الأعظم للسلطان العثماني الذي ملك الشرق والغرب أن يحمل لقب "سلطان" في حين أن البكوات والخانات يحملون لقب شاه المعجم؟".

وبعد ذلك أصبح يستعمل تعبير "سر عسكر سلطان" في القرمات التي يصدرها الباشا، كما أصبح التعبير نفسه يستخدم في الأوامر التي يتم الإعلان عنها وإرسالها إلى الجيش بواسطة الرُّسُلِ وناقلي الأوامر. وقد استغل منابسو الباشا هذا الأمر وادّعى أنه يُبَدِّدُ مَخْطِطاً بريئاً للاستيلاء على السلطة، واستطاعوا أن يثيروا قلق السلطان "القانوني" فيما يتعلق بهذا الأمر. (أورُونُ بَازْشِيلِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٥٧).

(١٤) كان إبراهيم باشا الذي يرسل تكليفاته وأوامره وهو في إيران أثناء حملة العراق يستخدم لقب "سر عسكر السلطان"، حيث إنه من الثابت تاريخياً أن الباشا قد استخدم هذا التركيب الإضافي، لكن الرسول الذي ينقل الأوامر كان أثناء النداء بما لديه من أخبار يقول: "هذا هو أمر "سر عسكر" السلطان".

عندها قام "إسكندر شلبي" الذي كان يحمل منصب "كتخدا سر عسكر" باستدعاء هذا الرسول ومنعه من أن يصيح على هذا النحو قائلاً له: "لا تُنْقِلْ سُرَّ عَشْكَرِ السلطان"، ولكن قُلْ: "هذا أمر حضرة الشُرَّازَانِ".

ومع بلوغ هذا الأمر إلى "إبراهيم باشا" زادت مشاعر الكراهية والتفوق بين الرجلين، كذلك يروى أن "الدفتردار" قد خَوَّضَ "سُرَّ عَشْكَرَ" على فتح "تبريز"، وذلك سعيًا منه أن يرى إحقاق الباشا، وعندما جاء القانوني إلى "تبريز" أخذ يوجه النقد واللام إلى "إبراهيم باشا"، بسبب قيامه بتمريض الجيش إلى الخطر، وإيقاعه في أرض العدو ووسط مدنه في فصل الشتاء، وفي حملة عسكرية على هذا القدر كبير من الأهمية، فما كان من "إبراهيم باشا" إلا أن أجاب قائلاً: "وَهَلْ كَانَ بِيَدِي شَيْءٌ؟ لَقَدْ خَفَعْتُمُ الْأَمْرَ وَالْحُلَّ وَالْمَقْدِيدَ عِندَكُمْ "إِسْكَندَرُ شَلْبِي"، وَهَكَذَا قَدْ خَفَّلْتُ "إِسْكَندَرُ شَلْبِي" الَّذِي أَتَضَحَّتْ بِرَأْيِهِ فِيمَا بَعْدَ كُلِّ الْمَسْئُولِيَّةِ، قَائِلًا: لَقَدْ تَمَّ التَّحْرُكُ بِنَاءً عَلَى قَرَارِ "الدَفْتَرْدَارِ" الَّذِي أَتَزَمَّنُونِي أَنَا عِندَكُمْ بِتَفْغِيزِ تَصْبِيحَتِهِ، وَقَدْ أَضَافَ "إِبْرَاهِيمُ بَاشَا"، بَيْنَمَا كَانَ يَغَادِرُ حَضْرَةَ السُّلْطَانِ عِبَارَةً: "إِنَّ ذُو الْخَبْرَةِ"، بَعْدَ ذَلِكَ ثُمَّ أَوَّلًا



• كما كان من ضمن التهم التي نُسبت إلى "إبراهيم باشا" اتهامه بعدم مراعاة الأحكام الشرعية.

• وعدم الالتزام بالتعاليم الإسلامية إلى جانب غيرها من الأمور...<sup>(١٥)</sup>.

لقد مُنح "إبراهيم باشا" الكثير من الألقاب، واستطاع في فترة وجيزة أن يصل إلى أعلى المراتب، لكن بالرغم مما حققه من نجاح فقد كانت لديه ميول للصعلكة وحياة اللهو والخلاعة، وفي الوقت الذي كان فيه أهالي إسطنبول قد اعتادوا على رؤية السلطان في أرفع مقام وأعلى مرتبة، أخذت تبدو على "إبراهيم باشا" من خلال تصرفاته وأحواله سمات التكبر وادعاء العظمة؛ مما كان سبباً في ظهور العديد من الشائعات، وقد أدت هذه التصرفات من قبل "إبراهيم باشا" إلى مساعدة خصومه في نسج القصص والأقاويل عنه وبثها ونشرها، حيث كان لرجال "إسكندر شليبي" الأكتفاء الذين انتقلوا إلى القصر العثماني دور كبير في هذا الصدد<sup>(١٦)</sup>.

هزل "إسكندر باشا" من منصبه، ثم تلا ذلك الحكم عليه بالإعدام شفاً، وعلى الرغم من أن السلطان كان متأثراً لما وقع إلا أنه لم يعرب عن شيء للأسر عسكراً، لكن هذه الواقعة كانت سبباً في ظهور أولى الأمور التي ستكون في غير صالح "إبراهيم باشا" لدى السلطان، وقد قامت دراسات بعد ذلك أظهرت براءة "إسكندر شليبي" في هذا الموضوع... (أوزون جازييلي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٧).

(١٥) في عام (١٥٢٦م) وخلال العشرة أيام التي قضاها "سليمان القانوني" في "بودين" نجده قد أرسل سفينة إلى إسطنبول عبر نهر "تونا" حيث شحن على هذه السفينة خزينة ملك المعجر ومعهما شمعانين من البيروني وثلاث تماثيل برونزية، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة تخص الملك "مانهاس كورفين"، وقد قام "إبراهيم باشا" بوضع هذه التماثيل الثلاثة، التي كانت ترمز لكل من "هرقل" و"أبوللو" و"ديانا" على قواعد رخامية وجعلها أمام قصره الذي كان يقع في ميدان "أت" (أي: الحصان) الذي أصبح الآن يعرف باسم "ميدان السلطان أحمد"، مما أدى إلى انتشار بعض الشائعات بين الناس، لدرجة أنه يروى أن أحد الشعراء وهو الشاعر المسمى "طرايزونللو فيجاني رمضان" قد ألف شعراً يسخر فيه من البابا حيث أنشد البيت التالي:

"جاء خليل في البداية وكسر الأصنام،

والآن فقد جثت يا خليل وجعلت الناس عبدة أصنام".

ففي هذا البيت نجد اثنان يحملان اسم "خليل"، الأول هو نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، أما الثاني فهو الصدر الأعظم "إبراهيم باشا"، وقد نسب "إبراهيم باشا" من خلال هذا العمل في إلقاء المشاعر الدينية لدى الجماهير. (داتشمن، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٦).

(١٦) كان "إسكندر شليبي" يربي العبيد الذين تحت إمرته ويعلمهم على خير وجه. ويروى أنه قد تبرع في مناصب الصدر الأعظم والوزراء ٧ من هؤلاء العبيد، وكان "صوكوللو" واحداً من هؤلاء. ويقال أنه بعد مصرع "إسكندر شليبي" وانتقال هؤلاء العبيد إلى الخدمة لدى السلطان فقد كان ذلك بداية المصيبة التي ستحل بالأسر عسكراً حيث سيممل هؤلاء العبيد على إضباح كيف إن سيدهم كان بريء وبلا ذنب فيما حدث..

وها هو المؤرخ "صولاك زاده" يحكي لنا عن هذه الواقعة:

"لقد عزل إبراهيم باشا الكثيرين أثناء حملة بغداد بدون مبرر، كما كان ينفق أموالاً طائلة؛ كي يكسب قلوب مجموعة من السفاحين وقد ثبت من خلال الدفاتر والسجلات أنه أسرف في إنفاق المال - في تلك الفترة التي كان فيها موضع ثقة السلطان - حتى بلغت ثمانين ألف قطعة ذهبية، حتى إنني ذكرتُ هذا ذات مرة أمام الصدر الأعظم "أياس باشا" (الذي تولى المنصب بعد مقتل إبراهيم باشا) وقلت له:

"إن إنفاق إبراهيم باشا هذه الألوف المؤلفة من الذهب على السفهاء دليل على تجرّئه على السلطنة وتعديبه عليها، وهذا الأمر قد بُتّ لدينا بالدليل المؤكّد والقاطع" (٦٧).

\*\*\*

لقد رأى "القانوني" أنه ليس ثمة حلّ أمامه سوى أن يضحي ويتخلّص من "إبراهيم باشا"، وذلك في سبيل وضع حدّ للشكاوى والإشاعات التي كانت تدور على ألسنة الناس.

فعندما قام السلطان بتقصّي الحقائق عما أُثير حول "إبراهيم باشا"، وقيامه بعد ذلك بتقسيم ما بلغه من معلومات، وجدّ أنه إضافة إلى ما ورد بحقه من شكاوى، وإلى جانب كراهية الشعب له بسبب التصرفات والسلوكيات الخاطئة التي كان يُمارسها، فقد نُسبت إليه أيضاً تهم تتعلق بالتجرّؤ على مقام السلطنة (٦٨).

فلا بدّ أن السلطان العادل "سليمان القانوني" كانت لديه قناعة مؤكّدة وإدلة دامغة وكافية ومقنعة لإصدار مثل هذا القرار الصعب.

(٦٧) فتاوى عُليّ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٠.

(٦٨) أفتون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٧٩.

## ما ذنب "خُرْم"؟

يذكر الأستاذ الدكتور "جوكيلجين" (*Gökbilgin*) "معتمداً في كلامه على "همر (*Hammer*)" و"جيروم" (*Jerome Maurand*)" و"جان شينسو" (*Jean Chesneau*)" في كتابه "رحلة السيد أرامون (*Le Voyage de Monsieur d'Aramon*)":

"إن من المؤكّد أن السلطنة "خرم" استخدمت نفوذها وتأثيرها الكبير على السلطان من أجل القضاء على "إبراهيم باشا" تماماً وإزاحته وإعدامه (٦٩)".

وبناءً على ما يذكره "هامر": "فقد كانت "خُرْم" ترى في الحملة العسكرية على إيران (١٥٤٨-١٥٤٩م) سبباً من شأنه أن يُبرِز الكفاءة العسكرية لدى صهرها وزوج ابنتها "رستم باشا"، ويُمكّن ابنها "سليم" -الذي كان وقتها حاكماً على أدرنة- من أن يَخْلُف والده (٧٠)".

\*\*\*

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما السبب الذي يجعل المؤرخين الغربيين ومنْ حَذَا خَذْوَهُمْ وسارَ على نَهْجِهِمْ من المؤرخين الأتراك، يُحَمِّلون "السلطنة خُرْم" مسؤولية موت "إبراهيم باشا"؟

في ذلك الوقت كان الأمير مصطفى ابنُ "السلطان سليمان" و"السلطنة جلبهار" (*Gülbahar*) "هو وَرِثَ العرشِ العثماني، أي: إنه في حالِ وفاة السلطان يصير مصطفى هو الشخصُ الذي سيعتلي ويجلس على العرش، لقد بدأ مصطفى من خلال شخصيته المُمَيِّزَةِ يحظى بحبِّ الشعب،

(٦٩) جوكيلجين، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

(٧٠) جوكيلجين، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٥.

ولا سيما الجيش، وبذلك تَقَوَّى على الأمراء أبناء "السلطنة خُزْم"، وفي الواقع لقد كانت "خَاصِكِي" تتمنى أن يكون السلطان القادم هو ابنها "الأمير بيازيد"<sup>(٧١)</sup>.

ولكن بما أن "إبراهيم باشا" كان في صفِّ الأمير مصطفى، فقد أخذت "خُزْم" تُحِطُّ من أجل إزاحة الوزير الأعظم عن الساحة، فكانت تتهزُّ أية فرصة من أجل تأليب السلطان على "إبراهيم باشا"، وقد نجحت أخيراً في إغواء السلطان وإقناعه؛ حيث كانت توسوسُ إليه بأن "إبراهيم باشا" يطمع في العرش العثماني، وأنه يسعى للانقضاض على الحكم.

إن المؤرخين الغربيين أو من تأثر بهم يسوقون هذه الادعاءات ويدافعون عنها، إلا أننا نجد أنهم لم يتمكنوا من أن يقدموا أية وثيقة تُؤكِّد أن مقتل "إبراهيم باشا" كان نتيجة للإشاعات والوشايات التي كانت تبثها "خُزْم" في أذن السلطان، إنهم لا يقدمون لنا سوى مجموعة من المعلومات التي تستند إلى حزمة من الحوادث المشكوك في صحتها، وهذه الادعاءات في نهاية الأمر تفتقر إلى الدليل والبرهان الذي يمكن أن يُثبتها.

### البحرُ الأحمرُ يصبُحُ بحيرةً تركيةً

لقد أصبح وقف "السلطنة خُزْم" في وقتٍ وجيزٍ من أشهر المراكز الاجتماعية والتعليمية في إسطنبول، وتوسَّع ليضمَّ داراً لإطعام المساكين ومدرسةً للصبيان ومدرسة دينية تمَّ إنشاؤها عام (١٥٤٠م)، بعد أن كان في صورة جامع صغير ذي قبة واحدة في المنطقة التي أُطلق عليها فيما بعد اسم "خَاصِكِي".

(٧١) من تصاريफ القدر العجيبة أن هذه الرغبة القوية التي كانت لدى "السلطنة خُزْم" لم تحقّق؛ حيث إن عرش الدولة العثمانية لم ينتقل إلى "بيازيد"، لدخول الأمير سيء الحظ في حرب مع أخيه "سليم"، وبمدها لجا إلى إيران (قزوین)، وقد تم قتله بأمر من والده في ٦ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٥٦١م.

في الوقت نفسه كان الجيش العثماني قد خرج في ثلاث حملات عسكرية مختلفة في البر والبحر، ففي الوقت الذي بسط فيه قبطان البحر "بارباروس" (Barbaros) خير الدين باشا "أشريعة سفينه متجهها في حملة بحرية للسيطرة على الجزر، كان والي مصر "خادم سليمان باشا" قد خرج هو الآخر في حملة متجهها إلى الهند، وكان "السلطان سليمان" أيضا يقود بنفسه الجيش السلطاني متوجها إلى "بوغدان" (Bogdan)، ويشير الانتشار للجيش العثماني على مسافات واسعة، وتكثيف الحملات إلى مناطق متفرقة ومتباعدة إلى القدرة العسكرية والإدارية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها الدولة العثمانية؛ حيث كان جيشها يخوض معركة -هجومية لا دفاعية- على ثلاث محاور متفرقة ومتباعدة.

تحرك "بارباروس" في أيلول/سبتمبر عام (١٥٣٨م) قاصدا الأسطول الصليبي الذي كان يتحرك حول أطراف جزيرة "كورفو" (Korfu)، واستطاع في مدة قصيرة ومن خلال مناورات بارعة أن يُنهك الأسطول الذي كان تحت إمرة القبطان الشهير "أندريا دوريا" (Andrea Dorya)، فما كان من قبطان الصليبيين الشهير إلا أن يُصدر أمرا بالانسحاب وهو في حالة من اليأس، أما "بارباروس" فقد قرّر أن يتركه ولا يلاحقه، لكنه في الوقت نفسه أصدر أوامره بحرق السفن المعادية، التي كانت لا تزال موجودة في ساحة المعركة.

وفي تلك المعركة، استمرت السنة النيران مشتعلة في بحر "بريفيزا" (Preveze) لساعات طويلة، حتى قُدرت أعداد السفن التي فقدتها القبطان "دوريا" في هذه الحرب بمائة وثمان وعشرين سفينة حربية كبيرة من نوعي "قاليون" (٧٢) و"كراكه" (٧٣) ... مع العلم بأن مجموع سفن الأسطول

(٧٢) المقصود هنا سفن حربية كبيرة سبقت عصر السفن البخارية، حيث كانت تتحرك بالشرع أو بالمجاديف وتحتوي الواحدة منها على عشرين أو ثلاثة.

(٧٣) المقصود هنا أحد أنواع السفن الحربية الكبيرة، تصنع من الخشب وتحتوي على عشرين.

البحريّ العثمانيّ لا يبلغ مثلَ هذا العدد! إلا أن الأتراك لم يخسروا في تلك المواجهة أئمةً سفينةً من سفنهم!

وفي نفس الوقت الذي خرج فيه باربروس على رأس أسطولهِ، خرج أيضًا "خادم سليمان باشا" على رأس حملةٍ عسكريةٍ إلى اليمن والهند، وقد تمكّن من الفتح واستطاع أن يُخَرِّزَ نجاحًا كبيرًا ومُهمًّا -مثل ذلك النجاح الذي حقّقه باربروس في البحر المتوسط- حتى تمكّن في نهاية الحملة أن يُحوّلَ البحرَ الأحمرَ إلى بحيرةٍ تابعةٍ للتاج العثمانيّ بعدَ إحكام السيطرة على اليمن وعدن، وازدادت بهذه الحملة سلطةٌ ونفوذُ العثمانيين وتولّدت لديهم آمالٌ جديدةٌ في إمكانية الوصولِ إلى سواحل الحبشة .

كان السلطان "سليمان القانوني" قد تحرّك إلى "بوغدان" -مولدوفيا الآن- فاستطاع أن يفتحها ويحوّلها إلى واحدة من الولايات العثمانية المميزة.

### أرجو من الحق تعالى أن...

في العشرين من حزيران/يونيو عام (١٥٤١م) خرج "السلطان سليمان" في حملةٍ جديدةٍ على النمسا، وعندما وصل إلى "فيليبه" (*Filibe*) أصدر أوامره إلى "بارباروس" بالتوجّه لمساعدة الجزائر وفكّ الحصار عنها، بعد أن حاصرها الأسطول الإسباني، وقد تمكّنت الجيوش العثمانية بقيادة الوزيرين "محمد باشا" و"خُسْرُو باشا" من إلحاق الهزيمة بالجيوش النمساوية بقيادة "فون روجندورف" (*Von Rugendorf*)، الذي كان يحاصر "بودين" قبل أن يصل جيش السلطان، وتمكّنت القوات العثمانية من إبادة قسم كبير من الجيش النمساوي... وعندما وصلت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان، كانت هناك بشرى أخرى قد وصلتته أيضًا، وهي التي تتعلّق بتمكّن الأسطول الصغير الذي كان تحت إمرة "قاسم باشا" من استعادة

السيطرة على "بسته" (*Peşte*) وذلك في الثاني والعشرين من آب/أغسطس عام (١٥٤١م)،<sup>(٧٤)</sup> وما أن وصل السلطان في وقت قصير إلى أطراف "بودين"، حتى أصدر قرارًا سلطانيًا تم بموجبه مكافأة القادة العسكريين الذين أبْلَوْا بلاءً حسنًا في الحرب.

\*\*\*

أما "السلطنة خُرْم" فمن جانبها، لم تترك السلطان وحيدًا خلال تلك الفترة القصيرة التي افترقا فيها، فقد عَبَّرَتْ عن شغفها به وحبها له من خلال الخطابات الحميمية التي أرسلتها إليه، وهكذا استطاعت أن تكسب قلب السلطان وحبّه.

وقد بدأت السلطنة "خاصكي" خطابها الحميم إلى السلطان قائلةً: "يا سلطاني الحبيب"، ثم واصلت حديثها بكلمات تُعَبِّرُ عن مدى اشتياقها وتألّمها الشديد بسبب البعاد.

وتناجي "خُرْم" سلطانها الحبيب مخبرة إياه عن حالها قائلةً:

"لو سألتكم عن حالِ جاريتكم المحترقة بنارِ بَعَادِكُمْ، فإنها بخير بفضلِ عنايةِ الحقِّ ﷻ..."

"يا حبيبي وسلطاني ويا سعادتي!

تُرى كيف هو مزاجكم المبارك؟

يا ليتكم تتلطفون وتكثرون فتعلمونني به بين الحين والآخر، فإنا جاريتكم المسكينة، الله يعلم مقدار النار التي تُحرقني لبعادكم، وكم قد تحطم قلبي واحترق من لهيب فراقكم، إنني أرجو وأنضُرُغ إلى الحقِّ تعالى ليل نهار أن يكون لي نصيب فأعقر وجهي بتراب قدمكم، وأن أرى جمالكم المبارك مرّة ثانية".

(٧٤) هذا الانتصار عرف باسم "نصر إستانبور"، وكلمة "إستانبور" معناها "الجيش السلطاني القوي".

لم يترك السلطان محبوبته "خُزْم" أم أولاده من غير أن يردُّ على هذه  
المشاعر المُلتهبة، فقد أظهرَ بشكلٍ جليٍّ مَحَبَّته لها، من خلال أبياتٍ  
مملوءةٍ بالمشاعر الجياشة، وقد أطلق على نفسه خلال القصيدة اسمًا  
مستعارًا وهو "مُجَبِّي"، وبإنصافٍ، فإن هذه القصيدة تُعتبرُ واحدةً من أقوى  
الأدلة على مدى حُبِّهِ وعِشْقِهِ للسيدة "خُزْم" حيث يقول فيها:

يا مَنْ أَسَارَكُهُ حياتي، يا حبيبي، يا قَمَرِي المُضِيءُ  
يا أنيسي يا مستودع أسراري، إنك سلطنة ملكات الجمال!  
يا حياتي وعمرى وحالي، وشراب كوثري وجنةً عدني،  
يا ربيعي وبهجتي ونهاري، ومصدر سعادتي وفرحي!  
يا حبيبي يا وردتي المبتسمة، يا ضيائي، ونوري وشمعي،  
يا ذات اللون البرتقالي، يا لهيبي واشتياقي، يا نورَ ليلي في البعاد!  
يا غُضْني وعَسْلي، يا من حفظتَ نفسَهَا في غيابي،  
إنك بمكانة العزيز لدي، ومكانة يوسف كذلك، إنك كل ما أملك!  
يا إسطنبولي يا قَوْماني"، يا كل "بلدان العالم" ويا "بلاد الروم"،  
يا بلاد "بدهشان" وبلاد "القبجاق"، يا "بغدادى" و"خرسانى"!  
يا شِعْري المموج الملتوي، يا حاجبي المقوس، أنا مريض بتلك العيون الفاتنة،  
إذا ما مَثُ فُدمي في رقبَتِكَ، المَدَد منك يا حبيبي الجميلة!  
أنا عند بابك لأمدحك، سأظلُّ أمدحك إلى الأبد،  
قلبي مليء بالألم، وعيني مليئة بالدموع، أنا "مُجَبِّي" وعاشق ولهان!  
(لقد كان اسم "مُجَبِّي" هو الاسم المستعار الذي يستخدمه "السلطان  
سليمان" في الأشعار التي كان ينظمها<sup>(٧٥)</sup>).

(٧٥) سلطان سليمان القانوني، "أشعار غزلية للسلطنة "خُزْم"، منشورات COGITTO، إسطنبول - ١٩٩٥م، العدد:



## حدث أليم: وفاة ولي العهد محمد

في عام (١٥٤٣م)، لم يكن قانون "الأكبرية"<sup>(٧٦)</sup>، قد طُبِقَ بعدُ في الدولة العثمانية؛ لذا فقد قام "السلطان سليمان" -وهو أبٌ لخمسة أبناء حينها<sup>(٧٧)</sup>- بتعيين ابنه الثاني الأمير محمد الذي كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا وليًا للعهد، وقام بإرساله إلى أقرب ولاية من إسطنبول، وهي ولاية "صاروخان" (*Saruhan*) ("مانيسا/Manisa")<sup>(٧٨)</sup> ليكون حاكمًا عليها، لكنَّ الأميرَ محمدًا قد وافته المنية؛ نتيجة الإصابة بمرضٍ فجائيٍّ باغته في أواسطِ عام (١٥٤٣م)، وهكذا عاش "سليمان القانوني" الذي بلغ الثامنة والأربعين من عمره هو وزوجته "خُرُم" أولى وأكبر أحزانٍ حياتيَّهما، وهما في ريعانِ سلطانتهما، وبعدَ قدومِ نعلِ الأميرِ محمد إلى إسطنبول، دُفِنَ في المقبرة التي أعدها القانوني خِصيصًا له، حيث رُيِّت تلك المقبرة بِقَطْعِ خَزْفَةٍ لا مثيلَ لها، تعودُ إلى القرن السادس عشر، وأصبح مكانُ ذلك الضريح في المنطقة التي عُرفت فيما بعدُ باسم "شَهْزَادَه بَاشِي" (*Şehzadebaşı*)<sup>(٧٩)</sup>.

(٧٦) كان هذا بمثابة مبدأ ينص على تعيين أكبر الأمراء سنًا ليكون وريثًا لعرش السلطنة.

(٧٧) كان الأمير مصطفى يبلغ في ذلك الوقت الثامنة والعشرين من العمر، أما الأمير "محمد"، فكان يبلغ الثانية والعشرين، والأمير سليم التاسعة عشر، والأمير "بيازيد" السابعة عشر، والأمير "جهانجير" الثانية عشر.

(٧٨) إن تعيين السلطان "سليمان القانوني" الأمير "محمد" وليًا للعهد يتبين من توليته إياه حكم إحدى الولايات القريبة من عاصمة الدولة مثل "صاروخان"، والروايات التي تذكر أنه كان أحب أبنائه إليه، ووضع السلطان "القانوني" عرشًا خشبيًا صغيرًا فوق ضريحه بعد وفاته. (دانشنشد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٤).

(٧٩) تم البدء في حيزيران/يونيو من عام (١٥٤٣م) في بناء "مجمع شاهزاده" الذي أقيم تحت اسم الأمير "محمد بن السلطان القانوني"، وقد تم في البداية تشييد الضريح، وفي الثالث والعشرين من أيار/مايو (١٥٤٤م)، تم وضع حجر الأساس للجامع الذي قال عنه المعماري "بنان": "أثري في عهد الثلثة"، حيث افتتح هذا الجامع للعبادة في آب/أغسطس من عام (١٥٤٨م)، وخلال الفترة التي استغرقها بناء الجامع، فقد شيدت كذلك عدة بنايات، شملت دار إطفاء المساكين، ومدرسة للصبيان، ومشفى وخان للقوافل. (إسماعيل أورمان، "مجمع شاهزاده"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ٢٠١٠م، الجزء رقم ٣٨، ص ٤٨٣).

### ثلاث وخمسون رسالة أُرْسِلَتْ إلى ملك بولندا

في الفترة التي كان "سليمان القانوني" يجلس فيها على عرش الدولة العثمانية، كان الملك "زيجموند الأول" (*I. Zygmund*) "جالسًا على عرش بولندا منذ عام (١٥٠٦م)، وخلال فترة حكم "سليمان القانوني" التي استمرت من (١٥٢٠م) إلى عام (١٥٦٦م) سواء في عهد الملك "زيجموند الأول" أو في عهد ابنه "زيجموند أوغسطس" (*Zygmund August*) الذي جلس على العرش من بعده في عام (١٥٤٨م)، فقد كانت هناك فترة سلام طويلة الأجل بين الدولة العثمانية وبولندا، باستثناء بعض المناوشات المحدودة التي كانت تقع على المناطق الحدودية، لقد كانت الصداقة المعقودة بين الدولتين ضرورة اقتضتها المصالح السياسية لكِلْتَا الدولتين، لا سيما أنَّ بولندا كانت تخشى من الروس ومن التتار، كما كانت الدولة العثمانية كذلك تتوجس خيفة من أن تنضم بولندا إلى ألمانيا؛ حيث إن تحالف هاتين الدولتين كان سيمثل خطرًا كبيرًا ويزيد من قوة ألمانيا، وقد عملت الدولة العثمانية للحيلولة دون وقوع ذلك على اتباع سياسة التعايش السلمي مع بولندا؛ من أجل تحييد هذه الدولة. <sup>(٨٠)</sup>

وبعد أن امتدت اتفاقية السلام بين كِلْتَا الدولتين لأعوام طويلة، بدأت كلٌّ من الدولة العثمانية وبولندا في عام (١٥٢٥م) في اتباع سياسة مشتركة وبناءة للغاية، ففي الأرشيف الرئيس للوثائق القديمة الموجودة في "وارسو" <sup>(٨١)</sup> توجد النسخ الأصلية من الرسائل المَهْمُورة بَطْرَةِ السلطان، التي أرسلها "سليمان القانوني" إلى ملك بولندا، حيث يبلغ مجموع هذه الرسائل ثلاث وخمسين رسالة مُرسلة إلى الملك "زيجموند الأول" إلى

(٨٠) أُوخْمُوْم، المصدر السابق، ص ٧٠٨.

(٨١) ويسمى باللغة البولندية "Archivum Głowne AKT Dawnych".

جانب ثمانية وأربعين رسالةً مرسلةً إلى الملك "زيجموند أوغسط"، هذا بالإضافة إلى الخطابات التي أرسلت أيضًا إلى ملوك بولندا من قِبَل كُلِّ من الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" و"أياس (Ayas) باشا" و"رستم باشا" و"صوكولو (Sokullu) محمد باشا".<sup>(٨٢)</sup>

### سيروا بأمر الله

من بين الخطابات والرسائل السلطانية التي كانت تُرسل من قِبَل السلطان ورجال الدولة إلى ملوك بولندا، التي نجدُها محفوظةً في الأرشيف الرئيس الخاص بالوثائق القديمة في "وارسو" نجدُ هناك أيضًا رسالتين مكتوبتين من قِبَل "السلطنة خُرْم" قرّة عينٍ وحبيبة السلطان "القانوني" إلى الملك البولندي "زيجموند أوغسط"<sup>(٨٣)</sup>.

وجاءت هذه الرسالة في سياقٍ يُوْضح أنها كُتبت في القرن السادس عشر، من قِبَل زوجة الحاكم العثماني إلى ملكٍ أجنبي، وتعتبر إقامة "السلطنة خُرْم" علاقات دبلوماسية مع ملك دولة أجنبية، وإسهاماتها بشكلٍ إيجابي في الحياة السياسية للدولة العثمانية، وهي في أوجِ قدرتها، وسعيها لتقوية وتعزيز بلادها، أمرٌ عظيمٌ ولم يسبقها أحد إلى مثله، فتستحقُّ لأجله التهئة والتقدير.

\*\*\*

إن أوّل الخطابات التي أرسلت من قِبَل "السلطنة خُرْم" إلى ملك بولندا، كان خطابٌ تهنئةٍ وعزاءٍ إلى الملك "زيجموند أوغسط" بمناسبة جلوسه على عرش بولندا خلفًا لوالده "زيجموند الأول" الذي تُوفي عام ١٥٤٨م).<sup>(٨٤)</sup>

(٨٢) أوجثوم، المصدر السابق، ص ٧١١.

(٨٣) أوجثوم، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

وها هي بعض جُمَلِ الخطاب الذي أُرْسِلَ من قِبَلِ "السلطانة خَزَم" إلى "وارسو" مع رسولٍ خاصٍّ يُدعى "حسن آغا":

"وصلنا نبأ تقلدكم للحكم بعد وفاة والدكم، الله المحيط بكل شيء يعلم كم سررنا كثيرًا وابتهجنا وملأت السعادة قلوبنا، والفرحة والسرور نفوسنا عندما علمنا نبأ تسليمكم الحكم، إننا نتمنى لحكمكم دوام البقاء والبركة والخير، وحيث إن الأمر بيد الله، فإننا نوصيكم باتباع أوامر الحق ﷻ والسير على الصراط المستقيم..."

أضعف الفقيرة، "السلطانة خاضكي" القحيرة<sup>(٨٤)</sup>

كما نجد كذلك ختمًا مهمورًا على ظهر الرسالة<sup>(٨٥)</sup>.

\*\*\*

ورداً على رسالة الشكر التي أرسلها الملك "أوغسط" فقد أرسلت السلطانة مع رسولها الخاص "حسن آغا" رسالة أخرى، وها هو ملخص الرسالة التي ردت بها "خَزَم":

"أسأل الله أن يطيل في عُمر جلالته الملك وأن يبارك فيه ... إن الكلمات لا تستطيع أن تُعَبِّرَ لكم عن السعادة العارمة والفرحة التي شعرنا بها عند وصول خطابكم العزيز إلينا... إن ما يحمله لنا الردُّ الوارد بخطابكم، يُظهر بوضوح عظيم المحبة والود الذي تُكُونُهُ لنا.

لقد أسعدنا كثيرًا ما عبّرتم عنه بشكلٍ جليٍّ من تقارب صادقٍ من جانبيكم تجاه سلطاننا، إن مشاعر الود التي وردت في خطابكم، والرغبة في الصداقة التي يبتسموها لرسولنا (حسن آغا) عندما

(٨٤) تريد أن تقول هنا أنها: فقيرة الفقراء. المتواضعة. السلطانة "خاضكي".

(٨٥) أوجُثوم، المصدر السابق، ص ٧١٢.

عرضناها على حضرة السلطان وجدناه -وهو الملجأ الوحيد لأبي إنسان في العالم- قد سُرع كثيرًا لما وَجَدَهُ منكم من تقارب ومجاملة، وقد بلغ به السرورُ إلى درجة لا تستطيع الكلمات أن تصفَها، حتى قال جنابُه:

"لقد كنتُ أنا والملكُ الأكبرُ -يقصدُ والده الملكُ "زيجموند الأول" الذي تُؤفِّي- كالشقيقتين، وبمشيئةِ الله الرحمن سنكونُ مع هذا الملكِ كالأبِ وابنيه..."

ومن شدّةِ ابتهاجِ سلطاننا، فقد أعادَ إرسالَ رسوليهِ "حسن آغا" مرّةً ثانيةً ليمثّلَ أمامَ مقامِكُم العالي.

لِتخلّمَ جيّدًا يا فخامة الملك، أنه إذا ما تمّ الحديثُ عنكم أمام السلطان في أيّ موضوع، فإنه من دواعي السرورِ لنا أن نتكلّمَ عنكم بالمعروف، وأن نذكّرْكم بكلّ خير.

أضعفُ الفقيرة، "السلطنة خاصكي" القمحيرة (٨٦)

### هل "السلطنة خُرْم" هي المخطئة أيضًا!

كما ذكرنا آنفًا فقد استفادتِ الدولةُ العليّةُ في عصرِ "سليمان القانوني" من إقامةِ علاقاتٍ ثنائيةٍ قويّةٍ بين الدولةِ العثمانيةِ وبولندا والمؤرخون من جانبهم أكّدوا بشكلٍ قاطعٍ على هذه الحقيقة، لكن بعضَ المؤرّخين ادّعوا -كما هو الحال بخصوصِ كافّةِ الأمور التي وقعت في فترةِ حياةِ "السلطنة خُرْم"- أن السلطنة سعت لإقامةِ علاقةٍ صداقةٍ وطيدةٍ بين الدولةِ العثمانيةِ وبولندا من أجلِ خدمةِ مصالحِها الخاصّةِ بها!

فوجد الأستاذ الدكتور "بكر صدقي بيكال" (*Bekir Sitki Baykal*) في المؤتمرِ الذي حملَ عنوانَ "العلاقاتُ التركيةُ البولنديةُ عبرَ التاريخ"، يقول لنا:

"يلاحظ أنه في النصف الثاني من فترة حُكْم "سليمان القانوني"، كان سفراء بولندا يقدّمون تقريرا كلّ عام إلى إسطنبول، ولا شك في أن "السلطنة خُرْم" كان لها نصيب في السياسة التي اتبعتها "القانوني" تجاه بولندا...".

كذلك يومئ الدكتور "بكر صدقي" إلى أن السلطنة كانت تُكِنُّ عاطفة خاصة تجاه البولنديين، إلا أنه يقدّم لنا هذه الادعاءات من غير دليل يدعمها. أما الكاتب والصحفي "يِلْمَاز أوزْتونا" (Yılmaz Öztuna) فيتحدّث عن قيام "السلطنة خُرْم" بإرسال خطاباتٍ موجّهة إلى ملك بولندا، كانت تخاطبه فيها بكلمة "أخي"، إلا أننا لا نجد أي وثيقة في الأرشيف البولندي تؤكّد هذا الادعاء، إن "السلطنة خُرْم" كانت حريصة في الخطابات التي أرسلتها إلى الملك البولندي "زيجموند أوغسط" على أن تخاطبه قائلة: "فخامة الملك"، أمّا "نجداد أوجْتوم" (Nejat Uçtum)، الذي ظلّ لسنوات يعمل مستشارا في السفارة التركية بالعاصمة البولندية "وارسو"، فيذكر لنا كلاما يتعلّق بـ "السلطنة خُرْم"، على النحو التالي:

"إن السلطنة "خاصكي" تعتبر نفسها بولندية أكثر من أنها روسية؛ لأن المكان الذي وُلدت فيه -روكسلان، أي: "خُرْم" - كان يقع في ذلك الوقت ضمن حدود الدولة البولندية، إن التعبيرات التي استخدمتها "السلطنة خُرْم" في المراسلات التي كانت بينها وبين "زيجموند الثاني"، تدفعنا إلى الاعتقاد بأن السلطنة "خاصكي" كانت تلعب دورًا هامًا للغاية ومؤثرًا في السياسة الخارجية للدولة العثمانية، لا سيّما فيما يخص العلاقات بين بولندا والإمبراطورية العثمانية".

لكنّ الدليل الذي يتحدّث عنه السيد "أوجْتوم" هنا لا يعدو أن يكون رأيا شخصيا<sup>(٨٧)</sup>.

إن السيد "أوجُتُوم" يقول في الصفحة رقم (٧٠٩) من كتابه:

"إن السلطان القانوني لم يكن في السنوات الأولى من علاقته مع "خُرْم" -أي في السنوات الأولى من حكمه- خاضعا لتأثيرها، ولهذا السبب لا نراه في تلك المرحلة يهتم بمراعاة سياسة الصداقة والتقارب مع بولندا، لكننا نجد فيما بعد أن علاقة المصالح المشتركة بين الدولتين من ناحية، والدور البناء الذي لعبته "خُرْم" من ناحية أخرى، قد ساهما في تمهيد الأرض لتصبح مهية لأن تبلغ العلاقات العثمانية البولندية درجة يمكن أن يطلق عليها ذروة التكامل".

وإذا كان السلطان القانوني قد طَوَّر سياسة الصداقة بين بلاده وبولندا بتأثير من "خُرْم"، واستفادت الدولة العثمانية من وراء هذه الصداقة من غير أن يلحقها ضرر، فهل يضير هذا أحداً؟ وهل يمكن اتهام "السلطنة خُرْم" بالخطأ حالة كونها تقوم بدور إيجابي في سبيل تطوير العلاقات الثنائية بين الدولة العلية العثمانية وبولندا؟

أما الدكتور "بِعْمَة طاشكيران" (*Taşkıran*) فيذكر لنا هذه العبارات:

"إن قيام إحدى نساء القصر، وزوجة السلطان، بمتهى الحرية -أثناء تمركز السلطان سليمان القانوني مع جيشه في (حلب) - بكتابة خطاب تهنئة إلى ملك أجنبي، لا يُعتبر من الأمور المستساعة والمقبولة كثيراً في تلك الفترة".

### ادعاءات واتهامات لا سند لها

أولاً: لا يوجد أي وثيقة رسمية نجدُها في أي سجل من سجلات الأرشيف تشير إلى أن "السلطنة خُرْم" ترجع بنسبها إلى أصول بولندية، وفيما يتعلق بهذه المسألة نجد أن المؤرخين قد طرحوا أمامنا العديد من الادعاءات المختلفة.

فمثلاً، نجد الأستاذ الدكتور "جوكييلجين" يذكر أن "السلطانة خُرْم" قد أُخِذَتْ أسيرة أثناء الهجمات التي كان يشنها تاتار القرم على الأراضي التابعة في ذلك الوقت للدولة البولندية، والتي نراها تقف اليوم ضمن حدود أوكرانيا.

أما "إسماعيل حامي"، فنجد أنه يذكر أن هناك مجموعة من الروايات من مصادر متنوعة تشير إلى أن أصل "خُرْم" إما أن يكون روسياً أو بولندياً، ووفق أقوى الروايات الراجحة لديه، فإنه يرى رجحان كون "خُرْم" بولندية الأصل، وأما "جغطاي أولوجاي"، فيقول:

"إذا كانت هناك ادعاءات بأن "خُرْم" هي ابنة لأحد القساوسة الروس، فإن هناك أيضاً ادعاءات تشير إلى أنها قد تكون إيطالية أو فرنسية".

وخلاصة القول أنه لا يوجد دليل قاطع، يُحدِّد لنا العرق أو الوطن الذي كانت تنتمي إليه "خُرْم".

ثانياً: هل يبد الإنسان أن يختار بنفسه بين أن يولد روسياً أو بولندياً، أم هل ثمة جريمة في أن يولد الإنسان روسياً أو بولندياً؟ وبما أن الإنسان لا يد له في اختيار عرقه أو لونه أو قومه، فإننا بالتالي لا يمكن أن نحاسبه على أساس وطنه أو أصله أو عرقه، إننا فقط يمكن أن نحاسب الإنسان على أساس أفكاره وقناعاته وتصرفاته.

لقد قَدِّمَت "السلطانة خُرْم" إلى القصر وهي بين الرابعة عشر والسادسة عشر من عمرها، واعتنقت الإسلام بعد أن تلقت تعليماً دينياً متقدماً ومكثفاً إلى حد كبير، وعندما صار عمرها يتراوح بين الثامنة والثلاثين والأربعين أصبح لها إسهامات واضحة في الحياة الدينية والاجتماعية داخل الدولة، حيث نجدها قد أنشأت مجتمعات كبيرة ضم بداخله جامعا ومدرسة دينية ودارا لإطعام المساكين ومدرسة للصبيان، فهل يتوافق مع



العقل والمنطق الزعم بأن المرأة نفسها تعمل - لا سيما بعد أن انتسبت للقصر وصارت زوجة السلطان سليمان المبجل - ضد دولة هي سيدتها الأولى، ومعشوقة سلطانها، لصالح دولة أخرى - بولندا - تعتبرها وطنها، لكونها محل ميلادها فحسب؟!

ثالثاً: هل كانت علاقة الصداقة التي عملت "حُرْم" على عقدها مع ملك بولندا، تتنافى مع السياسة التي كانت تتبناها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية؟ وهل سببت تلك العلاقة ضرراً للدولة العلية؟ وهل تأثرت الدولة العثمانية بشكل سلبي من جراء التقارب الذي حدث بين "السلطنة حُرْم" وملك بولندا؟ إننا لا نجد في المصادر التاريخية أي وثيقة أو رأي يشير إلى أي ادعاء مما سبق.

رابعاً: هل كانت "السلطنة حُرْم" تقيم هذه العلاقات خفية دون علم زوجها "السلطان سليمان"؟ ليس كذلك أبداً؛ فالتعيرات الواردة في الخطابات تفيد وتبين بوضوح أن هذه المراسلات كانت تتم بعلم ومعرفة السلطان.

النتيجة: إن الاعتماد على خطابين كتبتهما "السلطنة حُرْم" - التي لم يتأكد بشكل قاطع أنها بولندية الأصل - إلى ملك بولندا، للحكم عليها بأنها كانت تسعى لإيقاف حملة عسكرية عثمانية على بولندا، وتكافح من أجل إنقاذ أبناء شعبها من الفناء! ليس ادعاءً يفتر إلى دليل فحسب، بل إنه اتهام غبي لا أصل له.

إن أصحاب هذه الادعاءات يهدفون من وراء هذه الاتهامات التي وجهوها للسلطنة "حُرْم"، إلى القول بأن سليمان القانوني، الذي عُرف واشتهر في العالم الغربي بلقب "سليمان المعظم"، كان يعمل ضد مصالح

الدولة العثمانية بسبب عشيقه امرأة أوروبية الأصل، وبُغيتهم من وراء ذلك زعزعة مكانة هذا "الحاكم العظيم"، ومن ثَمَّ فإن اتهاماتهم تظلُّ وستظلُّ بلا قيمة لأنها تفتقدُ إلى الترهنة المنطقية والتوثيق العقلاني، كما أنَّ القول بأن "السلطانة خُرَّم" كانت تُحرِّك وتوجِّه بمفردها السياسة الخارجية للدولة العثمانية، إنما يُنمُّ عن جهلٍ وعدم معرفة بالدولة العلية العثمانية وإدارتها.

### مجموعة هدايا بقيمة عشرة آلاف ليرة

في الشهور الأولى من عام (١٥٤٨م)، كانت الاعتداءات الإيرانية على الحدود لا تتقطع، كما تمكن الصفويون من احتلال عدَّة أماكن وعلى رأسها قلعة "وَان (Van)"، كما عمِل الصفويون بدأب على نشر المذهب الشيعي في أعماق الأناضول، وبذلوا كلَّ طاقاتهم في الدعاية والإعلان لنشر مذهبهم، كان السلطان قد عقدَ قبل ذلك التاريخ بعام واحد، اتفاقية سلام مع النمسا وألمانيا، وبذلك يكون "سليمان القانوني" قد اطمأنَّ إلى أنَّ الجبهة الغربية قد أصبحت في مأمنٍ، وحنَّ الوقت للانتهاء من المشاكل التي يُسببها الإيرانيون، وفي ذلك الوقت حدث تطوُّر آخر غير متوقَّع؛ حيث إن "الكاس مرزا (Elkas Mirzâ)" شقيق الشاه الإيراني "طهماسب الأول" وحاكم ولاية "شيرفان (Şirvan)" الإيرانية كان يطمح إلى الحكم، لكن نتيجة للضغط التي مارَسها أخوه الأكبر عليه، اضطرَّ إلى الفرار هو ووزيرُه وبعض أركان الدولة، وجاء إلى إسطنبول عن طريق "القبجاق" و"القرم"، في تلك الأثناء كان السلطان مقيمًا في قصر "أدرنة"، وعندما علِمَ بقدوم الأمير الصفوي لاجئًا وطالبًا العون، أمر بانزاله ضيفًا في القصر، كما أمر بتوفير كافة متطلباته.

أبدى القانوني اهتمامًا كبيرًا وعنايةً بالأمير "الكاس مرزا"، وبعد يومين من وصوله إلى إسطنبول أقامَ له مأدبةً عظيمةً، بالإضافة إلى ذلك فقد أمر بإقامةٍ ولائمٍ على نفسِ الدرجةِ من الفخامةِ من أجلِ وزرائه وأعوانه.

وقد أسهبتِ المصادرُ العثمانيةُ طويلًا في وصفِ الهدايا التي قدّمها السلطان وزوجته إلى الأميرِ الصفويّ، وتحكي لنا تلك المصادرُ أنه كان من ضمنِ الهدايا التي أرسلت بعدَ يومٍ من إقامةِ المأدبة التي أمرَ بها القانوني في القصرِ، أكياسٌ وأطقمٌ حُلِيّ من الذهبِ والفضّة، وأقمشةٌ ثمينةٌ، وقطعٌ نادرةٌ من الفراء، وسروجٌ مذهّبةٌ ومُرصعة ومراكبٌ فخمةٌ، وسيوفٌ وأسلحةٌ متنوّعةٌ، وعبيدٌ وجواري، وأحصنةٌ وبغالٌ.

وتحكي لنا المصادرُ أيضًا عن الهدايا التي أرسلتها "السلطنة خُرُم" التي تُقدّر قيمتها بما يزيد عن عشرة آلاف ليرةٍ ذهبيّةٍ، ومن بين هذه الهدايا كانت توجدُ القمصانُ الحريريّةُ التي خاطّتها بيديها، والملابسُ المزيّنةُ بأشرطةٍ ذهبيّةٍ وفضيّةٍ، والألحفةُ والأرضياتُ والوسائدُ والمفروشاتُ المشغولةُ بالذهب<sup>(٨٨)</sup>.

وكما ذكرنا، فإن السلطانَ بعدَ أن اطمأنَّ إلى استقرارِ الأوضاعِ على الجبهةِ الغربيّةِ، عقّدَ العزمَ على الخروجِ على رأسِ حملةٍ عسكريّةٍ متوجّهًا إلى إيران، وكان قدومُ الأميرِ الصفويّ اللاجئِ عاملاً مؤثّرًا في إصرارِ السلطانِ في اتّخاذِ هذا القرار، ولكنَّ بعضَ المصادرِ تشيرُ إلى أنَّ الأميرِ الصفويّ "الكاس مرزا" وقبلَ فراره إلى إسطنبول باتت لديه قناعةٌ بالعملِ لحسابِ الدولةِ العثمانيةِ، وتذكرُ لنا هذه المصادرُ أيضًا أنَّ الأميرِ الصفويّ كانَ قد وُعدَ أيضًا بالجلوسِ على عرشِ إيران، بالتأكيدِ لقد كانَ الهدفُ

من وراء ذلك هو القضاء على التشيع الإيراني، وإعادة إحياء المذهب السني في الدولة المجاورة، إلى جانب القضاء تمامًا على الخطر القادم من الشرق.

أما المصادر الغربية فتزعم أن "السلطنة خُرْم" كان لها دور في الحملة العسكرية التي وُجّهت إلى إيران، وبناءً على هذه المصادر فإن السلطنة كانت تُخطط لاستغلال هذه الحملة في سبيل أن تجعل وراثته السلطنة في أبنائها، كذلك فقد كانت "خُرْم" تريد أن يكون ابنها "بيازيد" هو ولي العهد بدلاً من الأمير مصطفى، ولتحقيق تلك الغاية فقد أخذت تمهّد الطريق؛ لكي تُمسك مقاليد أمور الدولة في يديها.

\*\*\*

بدأ الجيش السلطاني في التحرك من إسطنبول بتاريخ الثامن والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٤٨م)، واستطاع أن يصل "تبريز" في أواخر يوليو، وخلال فترة وجيزة تمت السيطرة على المدينة من جديد كما تمّ تطهيرها من الشيعة، وبحلول أواخر أيلول/سبتمبر، بدأ السلطان في التحرك إلى "وَأَن" حيث تمكن من استردادها مرة أخرى، بعد ذلك وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر عام (١٥٤٨م) توجه السلطان إلى "حلب" ماراً بمدينة "ديار بكر" حيث عقد العزم على قضاء الشتاء هناك .

فليُخسَف به كما خُسِفَ بـ"قارون"

أثناء الفترة التي مكثها السلطان في "حلب" من أجل قضاء فصل الشتاء، لم تكن تأخر عنه أيضاً خطابات "خُرْم" المشبّعة بالدعاء له وتمنيات الشفاء، وها هي "السلطنة خُرْم" تُناجي -من جديد- السلطان

الحبيب الذي يلهو مع الجياد في رحلات الصيد التي كان مولعاً بها،  
فتكتب له قائلة:

"سلطاني الحبيب، إنني ألهجُ بالثناء والدعاء ألف مرة ومرة،  
وأقبلُ يديك المباركتين، مُعقِّرة وجهي تحت قدميك، وأنا أحملُ  
بداخلي ألف لوعة اشتياقي، تخرجُ من قلبي وروحي ولساني...  
"يا نور عيني، يا سلطاني الذي أفديه بروحي، إن أملي أن  
تقبلُ اشتياقي العظيم من جاريتكم التيسة..."

سلطاني، كيف مزاجُكم الشريف المبارك، وهامُكم المباركة،  
وقدميكم الطاهرتين، وجوارحكم جميعها؟ أتمنى أن تكونَ يا ذنِ  
الله في خيرٍ صَحَّةٍ وعافية، إن كلَّ طلبي من الباري ﷻ، هو أن يتكرمَ  
ويصونَ ذاك الشريفة من كلِّ الأخطارِ والبلايا، وأن يجعلَكَ على  
الدوام في حفظه ورعايته، أطالَ اللهُ عمرَكَ مثل نوح عليه السلام (٨٩).

\*\*\*

وتتابع السلطنة في خطابها شرح ما بها من ألم الفراق ونار الحسرة:

"سلطاني المُبتجل، يا نورَ عيني، وسلوان قلبي، يا منبع  
حسرتي التي أصبحت تفوق الكون كله جزاء البعد عنك !

يا ليتكم تتكرمون بالسؤال عن حالي البائس لبعدمكم، لقد  
احترق كبدي من الألم والحسرة، وتذفقت الدموعُ من عيني  
كالسيل من وجع الفراق، والله وحده الذي يعلم ما أعانيه بهذا  
البعد، وكيف أنني سئمتُ وملئتُ كلَّ شيء بعد غيابكم عني،  
والله إنني لا أستطيع أن أصفَ فرحتي أو أعبرَ عن بهجتي عندما  
أرى جمالكم قد لاخ لي، يعلم الله أنني احترقُ ليلًا ونهارًا من  
لهيب الفراق وحسرة البعد، يعلم الله أنني لم أعُدْ أعرفُ طعمَ  
الراحة بعدك، فأنا لا أجِدُ خيرًا أو هناءة ما دمتُ بعيدة عن ترابِ  
قدمك المباركة".

## السلطنة تنقل المعلومات إلى السلطان:

"سلطاني العزيز، لقد حدثت جَلِيَّةٌ في المدينة عندما أُشيعَ أن البشيرَ قادمٌ، وأخذَ الناسُ يستعدُّونَ لتزيينِ المدينة؛ ينتظرونَ دخولَ البشيرِ، في الوقتِ الذي تُعسكرُ فيه يا سلطاني العزيز بقوايتك في "حلب"، ولما لم يُقبضَ على أيٍّ من ذوي الرؤوس الحمراء (تقصُّدُ الشيعة الصُفويِّينَ)، فلن يكونَ هناكُ أيُّ جديدٍ على الساحة؛ ومن ثَمَّ فإن قدومَ البشيرِ لن يفرِّجَ أحدًا، بل قد تحوُّمُ الشائعات: تُرى أيأتي البشير ليخبر بأن حضرة السلطان سيقضي الشتاء في حلب؟".

\*\*\*

"خُرُم" تنهي خطابها بالدعاء على الشاه "طهماسب":

"أسأل الله ﷻ يا سلطاني، أن يقضي على هذا الملعون في

أقرب وقت، ويهلكه، ويجعل عاقبته كعاقبة "قارون" (٩٠).

يظهر لنا هذا الخطاب المليءُ بالحبِّ والمشاعر، الذي أرسلته "السلطنة خُرُم" ذات الخامسة والأربعين عامًا إلى زوجها السلطان القانوني ذي السادسة والخمسين عامًا، يظهر لنا بشكلٍ جليٍّ للغاية مقدارَ المحبة العميقة والقويَّة التي كانت تجمعُ "خُرُم" و"سليمان" (٩١).

\*\*\*

(٩٠) أولوچاي، رسائل العشق للسلطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٦٤-٦٦.

(٩١) يذكر لنا "نُشغطاي أولوتشاي" في كتابه الذي صدر عام (١٩٥٦م) تحت عنوان (رسائل من الحریم) أن هناك سبعة خطابات قد أرسلت من "السلطنة خُرُم"، إلا أن المؤلف يخبرنا أنه بعد صدور الكتاب قد ظهر خطاب آخر جديد في مكان آخر ينسب إلى "السلطنة خُرُم"، وذلك تحت اسم مختلف، وهكذا فإن مجموع ما قد نسب إلى "السلطنة خُرُم" من خطابات أرسلتها إلى السلطان "القانوني" يبلغ ثمانية خطابات بناءً على ما يذكره صاحب الكتاب.

تحرك القانوني من "حلب" على رأس الجيش السلطاني في حزيران/يونيو من عام (١٥٤٩م)، واستطاع أن يصل إلى إسطنبول في الحادي والعشرين من كانون الأول/ديسمبر بعد أن مر بطريق "ديار بكر"، وفي مراسلاته مع الحكام الأصدقاء ذكر أنه قد تمكن في تلك الحملة العسكرية من أن يفتح إحدى وثلاثين مدينة<sup>(٩٢)</sup>.

### شائعات حول "القانوني"

بحلول عام (١٥٥٣م) كان هناك أربعة أبناء ذكور أحياء للسلطان "سليمان القانوني" وهم "سليم" و"بيازيد" و"جهانجير" والأمير مصطفى أكبرهم سناً، كان الأمير مصطفى في عامه التاسع والثلاثين أما الأمير "سليم" فكان في الثلاثين من العمر والأمير بيازيد في الثامنة والعشرين أما "الأمير جهانجير" فكان في الثالثة والعشرين، كان السلطان سليمان يقترب من سن الستين وكان تقدمه في السن يزيد من قلق أبنائه حول من سيخلفه في الحكم من بينهم، كان الأمير مصطفى قد تلقى تعليمًا جيدًا، كما كان محبوبًا من قبل العسكر (الإنكشارية) وكذلك من قبل المثقفين، وكان ذلك لمزاياه التي شملت صلابته الشخصية إلى جانب الجدية والأخلاق الحميدة التي كان يمتلكها، وبالنظر إلى سِنه ووضعِهِ الذي كان قائمًا فقد كان الأمير مصطفى يُنظر إليه على اعتبار أنه هو السلطان القادم<sup>(٩٣)</sup>.

في تلك الأثناء كانت الحملات العسكرية التي يقودها "سليمان القانوني" سواء إلى الشرق أو الغرب قد نالت منه وأرهقته، وفي الأعوام الأخيرة أصبح "السلطان سليمان" يدير الحملات العسكرية الموجهة

(٩٢) أختنر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٠٧.

(٩٣) أوزون جازيلي، المصدر السابق، ص ٤٠١.

إلى الغرب من خلالِ وُزَرَائِهِ دُونَ أَنْ يَخْرُجَ بِنَفْسِهِ إِلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ، وفي مواجهةِ تجاوزاتِ الصفويّين واعتداءاتِهِم على "أرضروم" و"أخلاط (Ahlat)" فقد قام القانونيُّ بإرسالِ الصدرِ الأعظمِ "رستم باشا"، مما نَتَجَّ عنه انتشارُ للشائعات المتلاحقة بين الشعب والجيش.

وقد كانت القناعة أو الرأي العام السائد في تلك الحقبة من الزمان يُحْمِلُ السلطان من المسؤوليات بقدر ما يحْمِلُ لَهُ من تبجيلٍ وتقديرٍ وتقديسٍ واحترامٍ، وبناءً على هذه الفكرة فإنَّ السلطانَ العثمانيَّ كان يُمَثَّلُ في النفوس الرجلَ المقدَّسَ والقويَّ الذي يُجَسِّدُ أكبرَ قوَّةٍ مادِّيَّةٍ وروحِيَّةٍ على وجه الأرض والذي لا يحقُّ لَهُ أَنْ يشكَّوَ التعبَ أو يطلبَ الراحةَ، وكانت أبسطُ نقطةٍ ضعفٍ لدى من يشغلُ هذا المنصبَ تَوَدِّيَ إلى انتقاداتٍ كبيرةٍ بسببِ حماسةِ الروحِ القوميَّةِ الهائجة<sup>(٩١)</sup>.

"صولاك زاده" يشرح لنا على النحو التالي حال الجيش:

"يتردد بين العسكر أنه بسبب كبر سن السلطان وتدهور حالته الصحية فإنه لم يعد يستطيع أن يخرج بنفسه على رأس الحملات العسكرية ويُفَضَّلُ أَنْ يرسلَ الصدرَ الأعظمَ على رأس الجيش، كما يتردَّدُ كلامٌ يفيد بأنَّ هناك رغبةً في تولية الأمير مصطفى مقاليدَ البلادِ وإجلاسَه على العرش ولكن "رستم باشا" يحول دون ذلك"<sup>(٩٢)</sup>.

(٩١) أُنْشِئَتْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٤.

(٩٢) هناك أخبار قد انتشرت بين صفوف الجيش السلطاني وقد أصبحت هذه الأخبار التي لا يعقل بعضها على لسان الجنود والتي صارت تملأ الأجراس تقول أن: "السلطان قد أصبح كبيراً للغاية في السن وقد أنبتت الحروب ونالت من عافيته، ولم يعد بإمكانه بعد اليوم أن يعمل أو أن يشترك في الحروب، من أجل ذلك فقد قام السلطان بتصيب "رستم باشا" كحاكم على الأناضول، لكن "رستم باشا" كان هو المانع الذي يحول دون تحقيق رغبة السلطان فيصيب أمير الحق والانصاف الأمير السلطان مصطفى على العرش!" وقد أصبحت هذه الأحاديث والأقوال هي محور حديث الناس كلهم في الروحة والإياب. (ذاتِشْتَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٩).



## سقوط الأمير في الفخّ

المؤرخ الكبير "بَجَوِي" (*Peçevi*) يسجل لنا ما يلي:

"لقد كان الأمير مصطفى الذي يقترب من سنّ الأربعين يتمتّع بشخصيّة مميزة لدرجة أنها قد أثارَت غيرة باقي الأمراء، حيث كان منبع تلك الغيرة ما يتحلّى به الأميرُ مصطفى من علمٍ ومعرفةٍ إلى جانب الكرم والمهارة العسكرية، كما كانت أغليّةُ العسكرِ تكادُ تكونُ مُجمعةً قلبًا وقالبا على حُبِّهِ،<sup>(١)</sup> وبناءً على ما يذكرُهُ "بَجَوِي" فإن بعضَ الأشخاصِ الأردالِ والسفلةِ قد تقربُوا من الأمير مصطفى وأخذوا يثبُتونَ في عقليهِ أمورًا ويقنعونه ببعض الأفكارِ، حتى استطاعوا أن يخدعوا الأميرَ الساذجَ طيّبَ القلبِ، وتمكّنوا من أن يُخزِرَوه على التمردِ ضدَّ والده، كان الأمير يستندُ إلى الشعبِ وقوّة الجيشِ، فقام بجمع العسكرِ من أجل المسيرِ إلى الوزيرِ الأعظم، وخلاصة الأمرِ أن الأميرَ قد ضلَّ بِشكْلِ أو بأخرَ عن سبيلِ الصوابِ واستطاع ذووا الأفكارِ الشيطانيّةِ أن يُقنِعوه برفعِ رايةِ العصيانِ ضدَّ والده.

عندما أُبلغَ السلطانُ أن ابنه مصطفى يدّعي بأنَّ له الحقَّ في تولّي حكمِ السلطنة، وعلى الرغمِ من وجودِ عدّة وثائقٍ تُؤكّدُ ذلك، فإنه لم يقبل تلك الادّعاءاتِ، وأصرَّ على رأيهِ مخاطبًا "رستم باشا" الذي جاء له بوثائقٍ تُثبتُ ما نُسبَ إلى الأمير مصطفى:

"حاشا لله أن يتجرأ الأمير مصطفى فتصدّر عنه مثل تلك الوقاحة، وليس من المعقولِ على الإطلاق بالنسبة لمكانته أن تصدر عنه مثل تلك الأعمال! لكن بعضَ المفسدين الذين يميلون للأمير مصطفى يسعونُ بالبهتانِ للإدعاءِ والقولِ بأن يكونَ الملكُ له!

حذارِ، فلا تعيد مثل تلك الكماتِ على لسانك مرةً أخرى،  
ولا تشع تلك الأكاذيب!".

إضافةً إلى ذلك فإنَّ السلطانَ لم يردَّ أن يكتفي فقط بالكلمات، بل إنه  
تعَمَّد أن يضعَ حدًّا لما يُثارُ من شائعاتٍ فقرَّرَ أن يشتركَ بنفسِه في الحملةِ  
العسكريةِ الموجهةِ إلى "ناخشيفان" (*Nahcivan*) ضد شاه إيران، وفي هذا  
الصدِّ نجدُ أنَّ هناكَ مقولةً تُنسبُ إلى "السلطنة خُزْم" وهي:  
"لا بدَّ للشاهِ من شاهٍ يواجهه!"<sup>(٩٧)</sup>

وإذا نظرنا إلى هذه العبارة، فهما عبقرية السلطنة ووجدنا مدى عمقِ  
إدراكها وفهمها الواسعَ لأُمُورِ الدولة.<sup>(٩٨)</sup>

أيهما ينتصرُ: عاطفة الأبوة أم الحرصُ على سلامةِ الدولةِ وبقائها؟  
خرجَ "سليمان القانوني" في أواسطِ عام (١٥٥٣م) في حملة على  
"ناخشيفان"، وطوال فترةِ سفرِه كانت تأتيه أخبارٌ سلبيةٌ تتعلقُ بابنِه  
مصطفى، لقد كانت التقارير الوافدة إلى السلطان تؤكدُ أن الأمير مصطفى  
عاقد العزم على المضى في طريقه للاستيلاء على العرش، ومن أجل  
تحقيقِ هذه الغاية فإنه قام بالتحالف مع الصفويين، وإلى جانبِ هذا وظنًّا  
منه أن ذلك قد يدعّمُ موقفَه ويعينه على بلوغِ هدفِه فقد أطلقَ لحيته<sup>(٩٩)</sup>.

حرص "السلطان سليمان" عندما عُرضت عليه هذه الادعاءاتُ  
المتعلّقةُ بابنِه على دراستِها بشكلٍ دقيقٍ وجادٍ، كما اعتمدَ على مصادرَ  
مختلفةٍ استطاعَ من خلالها أن يستقي المعلوماتَ الصحيحةَ التي كان

(٩٧) كانت "السلطنة خُزْم" تريد أن تقول أن السلطان عليه بنفسه أن يتحرك لملاقاة شاه إيران.

(٩٨) أفتشون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

(٩٩) كان يفهم قيام أحد الأمراء بإطلاق لحيته على إنه بمثابة أنه إعلان للتمرد والعصيان على السلطان، ومن أجل  
هذا السبب فإن الأمراء العثمانيين لم يكون أحدهم منهم يطلق لحيته إلا بعد أن يعنلى العرش.

يبلغى الوصول إليها دون ميولٍ أو عاطفةٍ، وبعد الفحص والتدقيق أصبح السلطان على يقينٍ من وجود فكرة التمرد لدى ابنه مصطفى.

\*\*\*

كان السلطان "سليمان القانوني" حاكماً يُبدي اهتماماً كبيراً بالحفاظ على الشرعية وعدم انقراط عقدها وعدم إتاحة المجال أمام أي فرصة قد تؤدي إلى إلحاق الأذى بالشعب أو حدوث حرب أهلية تُسال فيها الدماء، فقد كان حرصه على الدولة فوق أي نقطة ضعف إنسانية وكان يعتبر أن استيلاء والده السلطان "سليم ياوز" على العرش خطأ أدى إلى تضعضع أركان الدولة، ولقد استفسر عن هذا الموضوع من "حسن جان" صديق والده، كان شروع ابنه في الصراع من أجل الحكم سيفتح الطريق أمام حدوث الانقسام في الدولة فيما بعد، لقد كان "سليمان القانوني" عاقداً العزم على أن تظل الدولة العثمانية دولة خالدة، وكان حرصه على سلامة الدولة والحفاظ على قوانينها فوق كل شعور آخر لديه، بل لقد كان هذا الحرص حتى فوق عاطفة الأبوة وأعلى منها<sup>(١٠٠)</sup>.

### لقد اختار بقاء الدولة

لقد ظل القانوني متردداً لعدة مرات خلال فترة حملة "ناخشيفان"، لقد كان يتأرجح بين عاطفة الأبوة وبقاء الدولة، لكنه بعد اجتيازه لقصر "كزمان أرغليسي" ووصوله إلى منطقة "آق تبه (Aktepe)" كان قد اتخذ قراره النهائي، وكان اختياره أن يقف إلى جانب مصلحة الدولة، في تلك الأثناء كان الأمير مصطفى مكلفاً بأن يشترك هو الآخر في الحملة، حيث جاء مع عسكره وأقام خيمته بعد أن انضم إلى الجيش السلطاني.

وفي اليوم التالي وبموجب النظام المُتَّبِع، توجَّه كبار رجال الدولة نحو خيمة الأمير مصطفى، وقبلوا يده وهم مرتدون زيَّ التشريفات، وتلى ذلك أن توجَّه الأمير مصطفى أيضًا إلى خيمة الديوان السلطاني من أجل تقبيل يد والده هو الآخر، قام الوزراء بتحية الأمير مصطفى، وساروا أمامه حتى أتوا به إلى خيمة والده السلطان، عندما دخل مصطفى إلى القُسطاطِ المبسوط لم يتمكَّن من رؤية والده، حيث وجد في استقباله هناك سبعة من الجلادين الخرس، وبعد أن استوعب الأمير الموقف، بدأت فترة طويلة من التعارك بينه وبين الجلادين العاملين في خدمة والده والذين أخذوا يعملون على خنقه، وعلى الرغم من أنه قد نجح في البداية أن يهرب ويحرر نفسه من بين أيديهم، لكنَّ نجاته من بين أيديهم لم تدم طويلاً، فقد أمسك به "زال (Zal) محمود آغا" هذه المرة وشرع هو ومن معه من الجلادين في خنقه إلى أن تمَّ إعدامه خنقاً.

### فَقَدَ السلطان ولديه في شهر واحدٍ

لقد أحدث مقتل الأمير مصطفى صدمة في الجيش حيث أخذ قُدامى المحاربين في البكاء، وأعزَّبوا عن انزعاجهم مُحَمِّلِينَ الصدر الأعظم "رستم باشا" المسؤولية الكاملة عن هذه الحادثة، كان "السلطان القانوني" باعتباره رئيس الدولة يتصرَّف بأعصاب باردة، وقام بعزل الصدر الأعظم في حضور الوزراء، كما أمر بأن يُؤخَذَ الختم السلطاني منه، بعد ذلك عيَّن السلطان "قره (Kara) أحمد باشا" صدراً أعظم جديداً، ويروى أن "قره أحمد باشا" كان يحظى بِحُبٍ شديدٍ من قِبَلِ الجيش، وكان موالياً للأمير مصطفى، لدرجة أنه أرسل إليه خبراً بالآي يأتِي إلى حضرة السلطان<sup>(١٠١)</sup>.

(١٠١) يروى أن السلطان "القانوني" أراد أن يؤم بنفسه صلاة الجنازة على روح ابنه الأمير مصطفى لكنه اضطر أكثر من مرة إلى الخروج من الصلاة بسبب دخوله في حالة من البكاء الشديد. (أُكْتُوَن، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٦).

وَتُظْهِرُ التَّطَوُّرَاتُ الَّتِي وَقَعَتْ بَعْدَ وَفَاةِ الْأَمِيرِ مُصْطَفَى أَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ أَصْدَرَ قَرَارَهُ بِإِعْدَامِ ابْنِهِ الْحَبِيبِ تَحْتَ ضَغْطِ مُشَاعِرِ يَضْعُبِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا؛ إِذْ عَاشَ أَوْجَاعًا وَأَلَامًا نَفْسِيَّةً شَدِيدَةً، وَتَحَرَّقَ فُؤَادُهُ مِثْلَ أَيِّ أَبٍ، إِنْ هَذَا الْقَرَارُ الصَّعْبُ الَّذِي اتَّخَذَهُ "الْقَانُونِيُّ" لَمْ يَقِفْ وَرَأْتَهُ سِوَى خَوْفِهِ عَلَى سَلَامَةِ الدِّينِ وَبِقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَنَجَدَ أَنَّ السُّلْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قَدْ أَخَذَ يَكَايِفُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا مُقَرَّبِينَ مِنَ الْأَمِيرِ مُصْطَفَى، كَمَا أَثْنَى كَذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ قَامُوا بِخِدْمَتِهِ مِنْهُمْ.

وَبَيْنَمَا كَانَ يَتِمُّ نَقْلُ نَعَشِ الْأَمِيرِ مُصْطَفَى إِلَى مَدِينَةِ "بُورْصَه" (Bursa)، كَانَ الْجَيْشُ السُّلْطَانِيُّ يَواصِلُ تَقْدُّمَهُ فِي حِمْلَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ حَيْثُ وَصَلَ إِلَى "حَلَب" وَقَضَى الشِّتَاءَ هُنَاكَ.

\*\*\*

وَبَيْنَمَا كَانَ الْقَانُونِيُّ مَعْسِكِرًا فِي "حَلَب" كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ فَاجِعَةٌ جَدِيدَةٌ مُؤَلِّمَةً، فَلَقْدَ مَرَضَ ابْنُهُ الْأَصْغَرُ الْأَمِيرُ "جِهَانْجِر" (Cihangir)، حَيْثُ سَقَطَ طَرِيحَ الْفَرَاشِ مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ عِنْدَمَا سَمِعَ نَبَأَ اِعْدَامِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ مُصْطَفَى، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ مَرَضٍ قَصِيرَةٍ مَرَّ بِهَا "الْأَمِيرُ جِهَانْجِر" وَافَتْهُ الْمَيِّتَةُ، لَقْدَ كَانَ "الْأَمِيرُ جِهَانْجِر" مَعْرُوفًا بِعِلْمِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ الْعَالِيَةِ وَذَكَائِهِ، إِلَى جَانِبِ لُطْفِهِ وَمَوْهَبَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ أُقِيمَتِ صَلَاةُ الْجَنَازَةِ عَلَى "الْأَمِيرِ جِهَانْجِر" فِي "حَلَب" تَمَّ نَقْلُ نَعَشِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إِسْطَنْبُولَ بِأَمْرٍ مِنَ وَالِدِهِ، حَيْثُ تَمَّ دَفْنُهُ فِي مَقْبَرَةِ جَامِعِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ "الْأَمِيرِ مُحَمَّد" وَالَّذِي كَانَ قَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ ذَلِكَ بِنَحْوِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ.

وَبِحُلُولِ هَذِهِ الْفَاجِعَةِ أَيْضًا يَكُونُ "سَلِيمَانُ الْقَانُونِيُّ" قَدْ عَاشَ أَلَمَ مَوْتِ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْنَائِهِ فِي فِتْرَةٍ زَمْنِيَّةٍ وَجِيزَةٍ تَكَادُ تُقَارِبُ الشَّهْرَ الْوَاحِدَ<sup>(١٠٢)</sup>.

(١٠٢) لَقَدْ شَهِدَ "سَلِيمَانُ الْقَانُونِيُّ" مِنْ أَجْلِ هَذَا الْأَمِيرِ الشَّابِّ مَجْمَعَ رَاحِعٍ خَلْفَ (مَصْنَعِ الْمَدْفَعَةِ)، وَكَانَ هَذَا الْمَجْمَعُ مَكُونًا مِنْ جَامِعٍ وَمَدْرَسَةٍ وَتَكِيَّةٍ، هَذِهِ الْمَنْطَقَةُ الرَّائِعَةُ الَّتِي تَظَلُّ مِنْ فَوْقِ التَّلِّ عَلَى مَضِيقِ "الْبِسْفُور" تَحْمِلُ اسْمَ "جِهَانْجِر" نِسْبَةً إِلَى الْأَمِيرِ "جِهَانْجِر".

### إتهامات ظالمة في حقّ "القانوني" وزوجته

لقد ألقى المؤرخون الغربيون ومعهم المؤرخون الأتراك المنحازون للغرب اللوم على "السلطنة خُزْم" فيما يتعلّق بإعدام الأمير مصطفى كما اتهموها وحملوها مسؤولية قتل إبراهيم باشا.

فمثلاً نجدُ "إسماعيل حقي أوزُون جازشيلي (Uzunçarşılı)" يذكّر ما حدث بخصوص هذه المسألة على النحو التالي قائلاً:

"...لقد بذلت "السلطنة خُزْم" جهدها وصنعت كلّ ما بوسعها سرّاً كي يتولّى الحكم ابنُها "بايزيد" الذي تحبّه كثيرًا، وقد كان السلطان واقعًا تحت تأثير تلك المرأة الجميلة؛ ومن ثَمَّ كان عليها التخلّص من الأمير مصطفى كي تُسلم السلطة للأمير "يازيد"، وقد نجحت في أوّل فرصة سنحت لها في التخلّص من إبراهيم باشا الذي كان مؤيدًا لتولّي الأمير مصطفى الحكم؛ حيث استفادت في إنجاز ذلك من الحوادث التي وقعت ضدهُ (أي إبراهيم باشا) آنذاك، ثم بدأت السلطنة "خاصكي" تعمل على تجهيز الترتيبات اللازمة للتخلّص من الأمير مصطفى وأخذت تُنفِذُ خطتها رويدًا رويدًا كي تحقّق ما رُبّما في ذلك، ولقد لعب "دامات (Damat)" رستم باشا" دورًا كبيرًا في هذه المسألة، حيث قام بتزوير خطابات مفرّكة وموقّعة باسم الأمير مصطفى إلى شاه إيران. (١٠٣)"

\*\*\*

وها هو تعليق "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد" بخصوص هذه الأحداث:

"...لقد كان "رستم باشا" الذي بقي في أواسط الأناضول ولم يستطع أن يواصل المسير إلى الشرق بسبب شدّة البرد مشغولًا بالقيام بأموٍر ملقّقة ومدنّسة في حقّ الأمير مصطفى، وذلك

استجابةً لتعليمات حماته "السلطنة خُرم"، وما لبث أن أُخبر حماه "السلطان سليمان" بأن ابنه الأكبر يستعد للتمرد عليه.

"...لقد كان الصدر الأعظم يستغل -بكل الخبث- الإشاعات المتشرة بين الجيش والشعب، وفي الوقت نفسه كان مستمرًا في تنفيذ التعليمات التي تأتيه من حماته "السلطنة خُرم" حيث كان يعمل على إذكاء هذه الإشاعات ويبالغ في تصويرها وتضخيمها لآلاف المرات محوّلًا إياها إلى تلميحات في متهى الخطورة ثم يرسل رجاله إلى "السلطان سليمان" لكي يقضوها عليه."

"...ومع أن المصادر العثمانية لا تنطرق إلى هذه المسألة إلا أننا نصادفها في المصادر الغربية، ولا سيما تلك الرواية التي نجدها عند "روبرتسون (Robertson)؛ حيث تقول إن الصدر الأعظم "رستم باشا" حوّل مجموعة من الخطابات المزورة التي تُفيد أن الأمير مصطفى سيتزوج بإحدى بنات شاه إيران "طهماسب الأول"، وسيعاون معه، ثم أرسلها إلى "السلطان سليمان" كدليل على الخيانة والتآمر.

وكما يذكر "روبرتسون" في كتابه الذي يحمل عنوان "تاريخ الإمبراطور "شارل كانت (Histoire de L'empereur Charle-Quent)" فقد كان لتلك الخطابات المزورة تأثير كبير على "السلطان سليمان" عند اتخاذِهِ قراره المتعلق بابنه."

"...لقد عملت "السلطنة خُرم" ومعها "السلطنة بهرماه" منذ سنوات على المبالغة والإكثار من الحديث أمام السلطان عن الخطر القادم من وراء الأمير مصطفى، وهو ما أدى إلى تهينة الأجواء لكي ينقلب فكر السلطان على ابنه معتقداً أنه تآمر عليه بالفعل."

"إن المسؤولية عن هذه الجريمة التاريخية المَهولة تقع على عاتق "السلطنة خُرم" ذات الأصل البولندي أو الروسي والتي قامت بها بالاشتراك مع عريس ابنتها المقرب منها "رستم باشا"

الكرواتي الذي كان أداتها لتنفيذ مآربها السياسية، وفي هذه الجريمة كان هناك دوراً أيضاً للسلطان "سليمان" الذي انساق مخدوعاً وراء هذه الاقتراءات، والتي جاءت له موقّعة من قبل هؤلاء الناس الذين انعدم عندهم الضمير، لقد كان دور السلطان هنا هو دور البطلي المسكين الذي انقض على شخص بريء اتهم بالخيانة وبمحاولة تعريض الوطن للخطر من خلال التعاون مع العدو في سبيل الوصول إلى السلطة، وتمّ ذلك دون حتى أن يلتقي السلطان بالآ إلى أنّ هذا البريء المتهّم بالخيانة هو ابنه.

"...لقد كانت تلك الحقبة الزمنية إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصر غير تركية -سواء من الرجال أو النساء- الاستيلاء على مقاليد الحكم وعلى القصر العثماني..."

"...لقد أصبح ثابتاً من خلال اتفاقي المصادر الأجنبية وكذلك ما ورد في مرثية "يحيى بك" أنه قد دُشئت من طرف "رستم باشا" وثائق تُنسب للأمير مصطفى تُعبّر عن رغبته في التعاون مع إيران..."

"لقد كانت "السلطنة خُرُم" -التي عاشرت أزهى أيام الدولة العثمانية خلال عصرها الذهبي- واحداً من أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار وتضعف هذه الدولة!"<sup>(١٠٤)</sup>

\* \* \*

أما بالنسبة لرأي "يَلْمَاز أوزتونا" (Yılmaz Öztuna) فتراه يعرضه علينا من خلال كلامه التالي:

"...إن مشروع "السلطنة خُرُم" ونواياها تنجاة ولي العهد الأمير مصطفى لم تتغيّر حتى بعد وفاة الأمير محمد."

"...لقد كان كلّ من ابنة "خُرُم" وزوج ابنتها أدوات في يديها، وأخذ هذا الثلاثي يسير نحو هدفه خطوة خطوة، حتى وصل



بهم الأمر إلى حدّ تلفيق رسائل مزوّرة ومُعَدَّة بدرجة عالية من الاحتراف، وبناءً على هذه الخطابات المزوّرة أصبح من الواضح وجود اتّفاق بين الأمير مصطفى وشاه إيران "طهماسب الأول".

وبمقتضى هذا الاتفاق فإن الأمير مصطفى سيُساعد شاه إيران، وفي المقابل فإن شاه إيران سيدعم الأمير العثماني بجيشه من أجل أن يجلس على العرش خلفاً لأبيه<sup>(١٠٥)</sup>.

ونجد "نِعْمَةً طَاشِكِيرَانَ" (*Taşkıran*) يتحدث عن التّخمينات التالية المتعلّقة بـ "السلطنة خُرُم" في عمليه الذي صدر بعنوان "كتاب خاصّكي":  
 "...يُنسَبُ لها أنه كان لديها تأثير كبير فيما يتعلق بخروج حملة إيران."<sup>(١٠٦)</sup>

"...لا شك في أن "السلطنة خُرُم" كان لها دور في وفاة الأمير مصطفى، إذ من المحتمل أنها لم تكن ترغب في وجود أيّ عائق حتى يتمكن أحد أبنائها من تولي الحكم عند وفاة القانوني<sup>(١٠٧)</sup>"  
 السفير الألماني "أوجلر، ج. دي بوسبيك" (*Ogler G. de Busbecq*) والذي عمل سفيراً لألمانيا في إسطنبول أثناء فترة حكم القانوني يقول في كتابه "ذكريات":

"...إن "السلطنة خُرُم" تبدّل كل ما بوسعها من أجل أن تجعل أحد أبنائها وريثاً للعرش، إنها تريد أن تهز من مكانة الأمير مصطفى الذي كان أكبر الأمراء سنّاً وأعلاهم مكانة، ومن أجل الوصول إلى هدفها استفادت من مساعدة ومشورة الصدر الأعظم "رستم" بعد أن تزوّج من ابنتها السلطنة "مهرماه"<sup>(١٠٨)</sup>.

(١٠٥) بلغاز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، انقره - ١٩٩٨م، المجلد الأول، ص ٢٤٧.

(١٠٦) طاشكيران، المصدر السابق، ص ٢٦.

(١٠٧) أولجر ج. دي بوسبيك (*Ogler G. de Busbecq*)، "ذكريات سفير في عهد القانوني"، انقره، ١٩٥٣م، ص ٢٩.

أما "برنارد بروماج (Bernard Bromage)" فيقول:

"لقد كانت "السلطانة خُرْم" مهيمنة على قلب وعقل  
"السلطان سليمان"، لقد كانت تدقق وتلاحظ كل ما يتعلق بمزاجه  
ورغباته وهواجسه، حتى أصبحت على علم بكل شيء، من أجل  
ذلك فقد أصبحت الأوامر الصادرة من "خُرْم" تكتسب من القوة  
ما يوازي قوة الأوامر، لقد كانت "خُرْم" تدبر على الدوام خططاً  
ظالمة وقمعية ثم تُنفذ بها حبيبها "السلطان سليمان".

والآن سنوضح النقاط التالية لمن يتوجهون بالإدعاءات الباطلة والتي  
بلغت حد الإهانة في حق "السلطانة خُرْم":

هل كان القانوني متيماً بـ"السلطانة خُرْم"؟

إن أول الاتهامات الموجهة إلى "السلطانة خُرْم" تزعم أن السلطان  
القانوني كان خاضعاً لتأثير وأوامر هذه المرأة الحسنة الجذابة، لدرجة أنه  
اندفع إلى نوع من الوحشية والفظاعة بحيث يأمر -أي القانوني- بقتل ابنة  
الأكبر وولي عهده مصطفى.

يقول "أحمد رفيق ألتيناي (Altunay)":

"أن السلطانة كانت تسعى لأن تسلب قلب السلطان بجمالها  
ولأن تصبح هي السلطانة الحاكمة للقصر والدولة، ومن أجل  
تحقيق تلك الرغبة فإن "السلطانة خُرْم" لم تتورع عن الإتيان بأي  
شيء سوا عن طريق الحيلة أو الخيانة أو الجريمة".

ولا يكتفى "أحمد رفيق ألتيناي" بهذه الكلمات بل إنه يتحامل على  
السلطان "القانوني" أيضاً فيقول:

"لقد كان "السلطان سليمان" أداة طيعة في يد "خُرْم" يفعل من

أجلها أي شيء وينفذ لها كل ما تريد، وبعد أن كان ينتهي من عدّة جرائم كان يعود ليرتمي في أحضانها.<sup>(١٠٨)</sup>

يا للعجب!

هل يا ترى وصلت العلاقة العاطفية بين السلطان و"خُرُم" إلى أن يصبح السلطان عاشقاً مجنوناً فاقد العقل، لدرجة أنه يأمر بقتل ابنه وولي عهده من أجلها! أم لدرجة تجعله يهز أركان الدولة وأعمدتها، وأن يعرض بلاده وشعبه للخطر؟!

ونجد السيد "نور بيكال" (*Nur Baykal*) يتساءل في مقالة أخرى:

"تلك المرأة - السلطانة خُرُم - التي تتوقّف حياتها وتتوقّف مستقبلها ومستقبل أبنائها على كلمة تخرج من شفتي سليمان القانوني" والتي كأن من الممكن أن تُلقَى في إحدى زوايا قصر قديم عند وفاة السلطان أو أن تُقَفّ وهي تُشاهد مقتل أبنائها، ماذا كانت ستصنع تلك المرأة إن لم تَقُل أنها عاشقة للسلطان؟ وقد كان السلطان أسير الوحدة، بالنظر إلى وضعه آنذاك؛ فهل يُعقل ألا يتجاوب مع هذه المرأة التي اهتمّت به، وأن يُحرّم منها وهي الإنسان الوحيد الذي يُمكن أن يخفّف عنه آلام وحديثه؟ ترى أيمن أن يُطلق اسم العشق على هذه العلاقة القائمة بينهما؟<sup>(١٠٩)</sup>

لا يمكن أن نصدق أن القانوني "لم يحب خُرُم" على الإطلاق، وأن أشعاره التي كتبها من أجلها كانت مجرد مسرحيات من الشعر الغنائي العاطفي، ولا أنه كان يراها مجرد امرأة تُخفّف عنه وحدته.

ولكن عشقه إياها لم يصل إلى حد الجنون، ولو أن الأمر كان كذلك فهل كان من الممكن أن يصبر السلطان مدة طويلة من الزمان -هي على

(١٠٨) أ. نور بيكال (*Baykal*)، "السلطانة خُرُم"، مجلة "التاريخ الشعبي"، ٢٠١١م، الجزء الثاني، العدد ١٦، ص ٢٩.

(١٠٩) أ. نور بيكال (*Baykal*)، "هل جعلت السلطانة خُرُم زوجها القانوني قاتلاً؟"، التاريخ الشعبي، ٢٠١٤م،

الجزء الرابع، العدد ٤٤، ص ٤٥.

الأقل سبعة عشر سنة- على كلام "خُرْم" من أجل القضاء على مصطفى وليّ عهدِه؟

وهل كان بمقدوره أن يَبْقَ طَوَالَ هذه السنواتِ ضِدَّ رَغْبَتِهَا الْمُتَغَيِّدَةِ هذه دون أن يَنْفَذَهَا؟

وهل كان "القانوني" سَيَسْمَحُ بأن يُشَكَّلَ الأميرُ مصطفىَ خطرًا على كرسيِّ سلطتِه؟

أَلَمْ يَشُكَّ "سليمان القانوني" - ذو الدهاءِ العسكريِّ والسياسيِّ المنقطعِ النظرِ - أبدأً في الوشاياتِ التي كانتَ تقومُ بها "السلطانة خُرْم" في حقِّ الأميرِ مصطفى؟ يبقى لنا أن نَذْكُرَ أَنَّ هذه الوشاياتِ التي كانتَ تقومُ بها من أجلِ أن تضمّنَ وراثَةَ العرشِ لأحدِ أبنائها كان عليها أن تستمرَّ مدَّةَ سبعةِ عشرَ عامًا على الأقلِ وذلك من تاريخِ مقتلِ الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم باشا" عام (١٥٣٦م) وحتى إعدامِ الأميرِ مصطفى عام (١٥٥٣م)!

إذا كيف كان القانوني يحكم بهذا الشكل؟!

قام "بالي" (Bâli) بك" الذي أظهرَ بطولاتٍ كبيرةً في حربِ "مُوهاج" بكتابةِ خطابٍ إلى السلطان القانوني يطلبُ منه - وهو يذكُرُ ويُعَدِّدُ الإنجازاتِ التي قام بها في الحربِ - أن يعيّنهُ كوزيرٍ عندهُ، وإذا نظرنا إلى الرّد الذي أرسلَهُ السلطانُ "القانوني" إلى "بالي بك" فإننا نَجِدُهُ لافتًا للانتباهِ حيث يقول فيه:

"إن الخدماتِ التي قدّمَها من أجلِ دينِ الإسلامِ ومن أجلِ الدولةِ العليّةِ لم تذهبِ عندنا سُدى، أتمنى لك السعادةَ والتوفيقَ، وأن يَرْضَى اللهُ عنكَ، وأن يطَهِّرَ اللهُ وجهَكَ ويُنَوِّرَهُ في العالمين، إنك تريدُ أن تُنَعِمَ عليك نظيرَ الخدماتِ التي قدّمَتها، إننا لن نمنحك درجةَ قائدٍ لواءٍ فحسب، ولكن سَنَمْنَحُكَ -دون تردّدٍ-

رتبة أمير الأمراء، لكن لا تغتر بهذا، واعلم أن كل شيء لله ومن عند الله وحده، ولا تفعلن شيئاً لتنال رضانا نحن، بل اصنع كل شيء لتفوز برضا الله، وحذار أن تُخطئ فتطلب شيئاً منا نحن العباد الفانين، لا تُصغر نفسك عندنا، ولا تتسؤل من أحد."

\*\*\*

لقد كان "سليمان القانوني" حاكماً يراعي الأمور الدينية بشكل كامل، لقد كان صاحب قلب رحيم لدرجة أنه كان حريصاً حتى على ألا يؤلم نملة. ففي إحدى المرات وبينما كان يتجول في حديقة القصر ذات يوم رأى مجموعة وفيرة من النمل وقد أخذ يغزو إحدى شجرات الكُمثرى، وعلى هذا النحو رأى أن الشجرة ستنهأ فأرسل هذا البيت من الشعر إلى شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي":

إذا ما كان النمل يؤذى الأشجار،

فهل هناك من إثم في قتله؟

وقد ردَّ شيخ الإسلام على هذا السؤال بهذه الفتوى التي جاءت هي الأخرى في صورة بيت شعري:

غداً عندما تقوم الساعة،

ستأخذ النملة حقها منك<sup>(١١)</sup>.

إن من يُنبه كل من حوله بضرورة القيام بكل عمل من أجل نيل رضا الله، ويعتني بالدين ويرعاه لدرجة أنه يطلب فتوى كي لا يغتصب ولو حتى حقوق نملة، هل من الممكن يا ترى أن يأمر حاكم يتمتع بهذا القدر من الرأفة والرحمة بقتل ابنه دون أي ذنب؟

(١١) إن "أبو السعود أفندي" يشير بطريقة رقيقة في هذا البيت إلى الحكاية التي وقعت بين النملة ونبى الله سليمان والتي ورد ذكرها في سورة النمل.

## رجُلُ دولةٍ عاشقٌ للعدالة

لقد كان السلطان "سليمان القانوني" قبلَ أيِّ شيءٍ رجُلَ "قانون" ومساواةٍ وعدالةٍ إلى جانبِ كونهِ رجُلَ دولةٍ.

لقد عُرفَ "السلطان سليمان" كحاكمٍ باسمِ السلطان "القانوني"، وقد أتت هذه التسميةُ بسببِ لائحةِ قوانينٍ كانَ قد أصدرَها وتضمَّنتُ الأُسُسَ الإداريةَ والماليَّةَ والقضائيَّةَ التي تقومُ عليها الدولة.

لقد جعلَ رجالُ القانونِ العثمانيُّونَ اللوائحَ القانونيَّةَ التي تمَّ إعدادُها مستقاةً من الشريعةِ الإسلاميةِ والتي أصبحَ يَتِمُّ تطبيقُها من خلالِ تلكَ اللوائح، بحيثُ إنَّ أيَّ شخصٍ يرتكبُ الجرمَ أيًّا ما تكونُ درجتهُ فقد كانت تُطبَّقُ عليه نفسُ الأحكامِ الجزائيَّةِ وذلكَ بشكلٍ متساوٍ سواءَ أكانَ هذا الشخصُ غنيًّا أو فقيرًا، من عامَّةِ الناسِ أو من أصحابِ السُّلطةِ، من عليَّةِ القومِ أو مِنْ صغارِ الناسِ. (١١١)

لقد كانت القوانينُ مستمدةً من الأحكامِ الإسلاميةِ وكانت تستندُ على المبادئ التي تراعي المساواةَ والعدالةَ بينَ البشرِ.

\* \* \*

لقد كان السلطانُ يرغبُ في الاجتماعِ برجالِ العلمِ في "دار السعادة" (أي: إسطنبول) وحتى إذا كانَ هؤلاء العلماءُ موجودينَ ببلدانٍ أجنبيَّةٍ، وفي الواقعةِ التي سنحكِّيها الآنَ يتَّضحُ بشكلٍ قويٍّ الأهميةَ التي كانَ السلطانُ يوليها للعلمِ والعلماءِ والقيمةَ التي كانَ يمنحُها للعدالةِ وأهلِ الجدارةِ:

(١١١) إن هذا المنهج من العدل والإنصاف والذي سار عليه "سليمان القانوني" كان السبب في أن يكون هناك تماثل نفسيًا له في متحف الكونجرس بواشنطن.

بعد أن ترقى "رمضان زاده محمد جلبي" <sup>(١١٢)</sup> إلى رتبة "نيسانجي" (Nişancı) <sup>(١١٣)</sup> عُيِّن حاكمًا لـ "حلب" أولاً ثم لإحدى مقاطعات مصر وذلك بجهود معارضيته، ثم بعد ذلك عُيِّن كمسؤولٍ عن مقاطعة من مقاطعات مصر، ولكن "القانوني" بعد أن وجد أن وظيفة "نيسانجي" في الحكومة قد أصبحت خاوية أصدر فرمانًا ذكر فيه:

"لقد أوكلت هذا المنصب إلى محمد الذي تولى أمر "المورا" (Mora).

لكن الصدر الأعظم "رستم باشا" كان يريد أن ينال هذا المنصب شخص آخر؛ لذا فقد ادعى أن "رمضان زاده محمد جلبي" متنازلٌ عن هذه الوظيفة ويريد البقاء في مصر، لكن السلطان بقرائته أدرك الغرض الحقيقي في نفس الصدر الأعظم وأصدر أمرًا مخالفًا لما كان يسعى إليه قائلاً:

"ليس من المناسب إرسال ذوي الخبرة وأصحاب الكفاءات العالية إلى خارج إسطنبول، بل العكس هو الصحيح، لأن قدومهم من مصر ومن سائر البلدان إلى مركز الخلافة وعاصمة السلطنة هو الصواب".

وعقب ذلك تم تعيين "رمضان زاده" في منصب "نيسانجي" السلطنة وظلَّ به حتى وفاته. <sup>(١١٤)</sup>

(١١٢) "رمضان زاده" الذي ولد في "مرزيفون" تم تعيينه عام (١٥٥٣م) في منصب "أمين دفتر" وفي العام التالي تم تعيينه في وظيفة "رسول الكتاب". وقد تم تعيين "رمضان زاده" في منصب "نيسانجي" نظرًا للنجاح والكفاءة التي أظهرها في موقعه كمسؤول عن الضرائب والسجلات العقارية، وبعد أن عمل بكل من "حلب" و"مصر" لفترة فقد تم تعيينه للمرة الثانية في نفس المنصب عام (١٥٦٢م). وقد تم دفن "رمضان زاده" الذي توفي عام (١٥٧١م) في فناء "أمير بخاري"، ويعرف "محمد شلبي" بكتابه اللذين ألفهما وهما كتاب "سير الأنبياء العظام وأحوال الخلفاء الكرام وومناقب آل عثمان" بالإضافة إلى كتابه الصغير "تاريخ نيسانجي".

(١١٣) كانت وظيفة "نيسانجي" تمثل منصبًا ذي مقام عالٍ حيث كان صاحبها عضوًا بالإدارة المركزية العثمانية في الديوان السلطاني، وكان يعهد إليه بطغراء السلطان العثماني، وبناء على لائحة القوانين التي سنّها السلطان "الفتاح" فقد كانت مرتبة "نيسانجي" من الدرجات العالية في إدارة الدولة وكانت تأتي في الأهمية بعد منصب الوزير وقاضي العسكر و"الباشا دفتردار".

(١١٤) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ٦.

آه يا سليمان، لقد نجوت بنفسك وأما نحن؟!؟

لقد أوصى "السلطان سليمان" بأن يتم دفن دُرُجِ خزانته إلى جواره، ولهذا السبب فقد تم بعد وفاته احضار دُرُجِ خزانته إلى المقبرة، لكن العلماء اعترضوا على وضع دُرُجِ الخزانة في القبر وعلى دفنه مع جثمان السلطان وبينما كان النقاش يدور حول إذا ما كان يجوز أو لا يجوز أن يُدفن دُرُجُ الخزانة في القبر إذا بالدرج يقع على الأرض وتتناثر الأوراق التي كانت موضوعة فيه، وكانت هذه الأوراق عبارة عن الفتاوى التي تلقاها السلطان من شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي".

لقد أراد السلطان سليمان بوصيته تلك أن يبين أن كل ما قام به من أعمال كان على أساس من العدالة ومراعاة الحقوق الإسلامية.

عندما رأى شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي" الذي شارك في مراسم الجنازة هذا المشهد قال وقد اختنقت كلماته وسط الدموع:

"آه يا سليمان، لقد نجوت بنفسك، أما نحن؟!؟"

\*\*\*

لقد استطاع السلطان "سليمان القانوني" أن يُمَثِّلَ الإسلام خير تمثيل بعدله ومراعاته للحقوق، إلى جانب إنسانيته وأخلاقه السامية، وبهذا الشكل استطاع أن يتغلب على القوى التي كانت تواجهه.

وقد كان دهاؤه السياسي يفوق الوصف، لقد تمكن "القانوني" من أن يؤسس دولة عظيمة حكمت العالم طوال القرون ليس فقط بالقوة العسكرية، ولكن أيضًا بالمناورات السياسية التي كان يجيدها، كما أثر



من الناحية السياسية في الأحداث الاجتماعية الحاصلة في أوربا وتدخل فيها بدهاء وحكمة إلى أن نجح في الاستفادة منها إلى أقصى درجة، أما فيما يخص أوجه النقد التي وُجِّهت إلى "القانوني" فقد كانت هناك مجموعة من الانتقادات المكررة التي تعرضت لها سيره حياته، وعلى وجه الخصوص تلك الادعاءات التي تناولت موضوع (تأثير النساء عليه)، ولكن تلك الادعاءات لا تعدو في النهاية سوى أن تكون مجموعة من الإشاعات التي تُشبه البالونات التي نُفِخَتْ أكثر من اللازم، فهي في النهاية ادعاءات تفتقر إلى البراهين أو الوقائع والمنطقية. (١١٥)

\* \* \*

أليس من الظلم -ولو في نظر الإنسان العادي على الأقل- أن يُحْمَلَ الكاتب "دانشمند" مسؤولية بدايات سقوط الدولة العثمانية في عام (١٩١٨م) للسلطنة خُرْم زوجة القانوني مع أنها ماتت عام (١٥٥٨م) أي قبل بدايات السقوط بأربعة قرون تقريباً؟!

ويرى الكاتب نفسه في كتابه المسمى "الأحداث التاريخية المسلسلة في الدولة العثمانية" أن "السلطنة خُرْم" مذنبه بموتها المفاجئ! يا للعجب! وكأنها ماتت برغبتها وطلبها! فيقول:

"بوفاة" السلطنة خُرْم "عام (١٥٥٨م) وبعد أن تسيّث في إعدام الأمير المسكين مصطفى من أجل ضمان أن تُضْبَح ولاية العهد في صالح ابنها "بيازيد"، نجد أنها قد جعلت الساحة خالية أمام أنصار "سليم" مما كان له نتائج كارثية على الدولة العثمانية، وهكذا نجد أن تلك المرأة قد تسيّث في إلحاق الأذى بالدولة

العلية العثمانية سواء أكان ذلك في حياتها أو حتى بعد وفاتها".<sup>(١١٧)</sup>

ففهم من كاتب هذه الكلمات أنه ربما يرفع تهمة انهيار وسقوط الدولة العثمانية عن السلطنة خرم لو أنها أحرث وفاتها وموتها بعض الوقت! وهل هذا كلام رجل عاقل؟! وهل هي التي اختارت زمان وتوقيت موتها؟!

### الأبناء الذين يتمردون على الآباء

هل كان التاريخ العثماني خاليًا من الأبناء الذين أعلنوا التمرد على آبائهم؟ فمثلاً: ألم يتحدث "السلطان سليم ياوز" والد "السلطان بيازيد"؟ ألم يزعج السلطان "سليم ياوز" -بمساعدة العسكر ورغبتهم- والدّه عن العرش ويجلس مكانه؟! وعلى حين أن تلك الحادثة المهمة التي وقعت في حياة "القانوني" كانت حاضرة في الأذهان، فهل من الممكن الاعتقاد بأن السلطان لم يبال بحادثة الأمير مصطفى؟! وكما حاولنا عرضه وتقييمه في الأقسام السابقة فإن السلطان كان مشغولاً بـ"بقاء الدولة والحفاظ على سلامة استمراريتها" أكثر من انشغاله بشكوكه ومخاوفه الشخصية

(١١٦) لقد تم تعيين "الأمير سليم" ولياً للعهد نظراً لأنه كان الأكبر سناً، أما "الأمير بيازيد" فقد كان محبوباً من والدته وتحت حمايتها، وقد كانت هناك فتاة لدى أي شخص بأنه إذا كان اختيار السلطان الجديد بيد "السلطان خرم" فإنها كانت ستولي "بيازيد" على العرش، لكن "السلطان سليمان" كانت لديه رغبة قوية في أن يخلفه "الأمير سليم" من بعده، أما "بيازيد" الذي كان يعلم هذا الأمر فقد كان يسعى بكل الطرق من أجل أن ينقذ نفسه من المصير الذي كان ينتظره ومن أجل الإنقاذ من الموت المحتوم على يد جلادي أخيه، وقد قرر "بيازيد" أن يجرب حظه ويصارع من أجل العرش بدلاً من أن ينتظر الموت. (بوسبيك، مذكرات سفير في عصر "القانوني"، انقرة ١٩٥٣، ص ٤٨).

كان "القانوني" في صف ابنه "سليم" عندما تدخل الصراع بين الأخوين وأرسل له المون بقيادة "صوكوللو محمد باشا"، وقد فر "بيازيد" هارباً بعد أن هزمت قواته في المعركة التي وقعت بين الأخوين عام (١٥٥٩م) عند السهل "قونية (Konya)"، وتلا هذا أن التجأ إلى إيران مع ابنائه الأربعة وحوالي ألف رجل من رجاله، أراد "القانوني" أن يسلم إليه "بيازيد"، وفي النهاية وافق شاه إيران الذي لم يستطع أن يقاوم رغبة السلطان فقام بتسليم الأمير "بيازيد" إلى أخيه "سليم"، وتم إعدام "بيازيد" وبناي الأمراء شقاً في "قزوين" في يوم السادس من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٦١م) حيث تم إحضار جثثهم إلى الأناضول ودفنوا في مدينة "سيواس". (علي آفتاش، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول - ١٩٨٧م، ص ٤٧).

والنفسية، وكان هذا الشاغل بالنسبة لرجل دولة قوي بحجم القانوني أمراً له الأولوية عنده ويفوق كل اهتمام آخر.

إن سعي الأمير مصطفى للتعاون مع شاه إيران كان من الممكن أن يؤدي إلى حرب أهلية، وهو ما كان سيُعَرِّضُ الدولة العلية في حال حدوث ذلك إلى أضرار كبيرة وشُرُورٍ مستطيرة، وبالنسبة لحاكم كان يُطَبِّقُ على نفسه أولاً وقبل الجميع القوانين التي تكفل الحفاظ على الدولة، أفلا يكون قيام الأمير مصطفى بالتعاون مع الأعداء واختيار طريق التمرد على الدولة بمثابة زعزعة لأركان الدولة السياسية والاجتماعية؟.. وهكذا نرى أن إزاحة "السلطان سليمان" للأمير مصطفى وقيامه بالتضحية بابنه وقلدة كبده لا يفهم منه سوى أنه قد فعل ذلك لضمان بقاء الدولة واستمرارها، وأيضاً من أجل الحيلولة دون حدوث حرب أهلية.

إن فكرة أن إعدام الأمير مصطفى كان مرتبطاً بعلاقة العشق التي جمعت السلطان "القانوني" وزوجته "خُرُم"، وأن إعدامه كان مرتبطاً أيضاً بالدسائس والشائعات التي كانت تقوم بها "السلطنة خُرُم" لهي فكرة ساذجة وضحلة إلى أقصى درجة! بل هي فكرة نابعة عن عدم معرفة بالدولة العثمانية وحاكمها العظيم حق المعرفة! وأيضاً فإن مثل هذا المنهج في التفكير ينم عن عدم إدراك وجهة النظر التي كانت لدى السلطان وعن عدم فهم العواقب السيئة التي كان يحرض السلطان أن يحمي الدولة منها في ذلك الوقت.

### أين هي الرسائل المزورة؟

هل حقاً كان الأمير مصطفى يسعى لعقد تحالف مع شاه إيران؟! أم أنه كما تُسَمَّعُ بعض الإدعاءات كان ضحية لمؤامرة ثلاثية أركانها هم "خُرُم

ومِهْرْمَاة ورستم"؟! وبعبارة أوضح هل كان السلطان "سليمان القانوني" هو الآخر ضحيةً للتقارير المُلفَّقة التي فبركها هذا الثلاثي المتآمر؟!

ألم تكن "السلطانة مِهْرْمَاة" -باعتبارها ابنة السلطان- تُحِبُّ أباه السلطان بنفسِ القدرِ أو أكثر من محبةِ أمِّها خُزْم لأبيها السلطان؟! أكان من الممكن أن تكون "السلطانة مِهْرْمَاة" مشتركةً في عمليةٍ موجَّهةٍ ضدَّ والدها السلطان، وأن يكونَ لها دورٌ في مؤامرةٍ تُوَدِّي إلى موتِ أخيها الأكبر مصطفى، أَلَمْ تشعُر "السلطانة مِهْرْمَاة" بأيِّ قلقٍ من أن يعلمَ والدها السلطان سليمان بهذا الأمر؟!

إن هناك إدعاءات بأن الصدر الأعظم "رستم باشا" قد فبرك خطابات مزوَّرةً منسوبةً إلى الأمير مصطفى بعد أن تلقى الأمر بذلك من حماة "السلطانة خُزْم"، ألم يكن "رستم باشا" صهراً للسلطان "سليمان" كما كان صهراً للسلطانة "خُزْم"؟!

أَلَمْ يأمر السلطان بقتل إبراهيم باشا" رفيقَ حياته وأعزَّ أصدقائه قبلَ سبعةِ عَشَر عاماً -كما أوضحنا في الأجزاء السابقة- بسببِ الأخطاءِ العديدة التي نُسِبت إليه؟! أكان من الممكن أن يتجرأ "رستم باشا" على خيانة "سليمان القانوني" والتحرُّك ضده واثقاً في وعودِ حماة "خُزْم"؟! ومن يا ترى كانَ يجرؤ أو يستطيع خداع "القانوني" ملقِّقاً ومُفبركاً خطابات مزوَّرة؟! أليس من الأقلِّ خطورةً والأكثرِ أماناً أن يقفَ "رستم باشا" في صفِّ السلطان بدلاً من أن يقفَ في صفِّ "خُزْم"؟!

إن الفكرة القائلة بأن "رستم باشا" قد أعدَّ خطابات مزوَّرة لتكون دليلاً ضدَّ الأمير مصطفى هي فكرة يصعبُ على الإنسان العاقل قبولُها بل تكاد تكون مستحيلةً.

يقي أن نذكر ما قاله "دَانِشْمَنْد" عن التأثير الكبير للخطابات المزورة التي تحدث عنها "روبرتسون" في كتابه "تاريخ الإمبراطور شارل كانت" -والتي لم تأت المصادر العثمانية على ذكر لها- حيث يذكر لنا "دَانِشْمَنْد" معتمداً على الرواية المذكورة في نفس المرجع أن "رستم باشا" أرسل دليل الخيانة الذي يحوي الخطابات المزورة المرسلة إلى "السلطان سليمان".

بالإضافة إلى ذلك يذكر الكاتب أن رواية الخطابات المزورة مثبتة وموجودة في بيت الشعر الموجود بالهامش<sup>(١١٧)</sup> وكذلك أيضاً بالوثائق، حيث نجد بيت الشَّعْر هذا يُصَدِّق هذه الرواية في المراثية المشهورة والمقروءة في كل مكان والتي نَظَمَهَا وأَعَدَّهَا "يحيى بك".<sup>(١١٨)</sup>

لكن المثير للعجب أننا لا نجد أثراً لتلك الخطابات المزورة لا في الأرشيف العثماني ولا في أي أرشيف آخر بأي مكان في العالم.

\*\*\*

### وفاة "السلطانة خُرْم" عن عمر يناهز السادسة والستين

لقد أصبحت "السلطانة خُرْم" -التي تُعْتَبَرُ من أكثر نساء القصر العثماني قوة خلال العصر الذي عاشته- رمزاً لحب الخير والحماسية، وتكاد تكون هذه السلطانة قد اقترنت أن تكون شريكة لزوجها السلطان في هذا المجال.

(١١٧) واحد أو اثنان من أهل الفساد المنحرفين كانا هما حطب الحريق،

واحد أو اثنان قاما بتزوير الخطاب فكانا السهم الذي قتل.

(١١٨) أليس من المضحك أن يعتبر الكاتب أن هذا البيت الذي في مراثية الشاعر بمثابة وثيقة تاريخية وأن يجعل

إدعائه معتمداً على هذا البند ؟!

و إلى جانب الأوقاف التي شيدتها "السلطانة خُرْم" في إسطنبول  
والقدس فقد أمرت بتحويل إحدى التكايا التي كانت تُعرف باسم "قريه  
(Kariye)" إلى مدرسة دينية، وقد خصّصت الأوقاف ذات الدخل المرتفع  
لجميع المؤسسات التي أنشأتها وعلى رأسها كلية "خاصكي".

\*\*\*

وقيل عام (١٥٥٨م) كانت والدّة السلاطين -حضرة خاصكي  
السلطانة الكبرى العتيقة<sup>(١١٩)</sup> - "خُرْم"<sup>(١٢٠)</sup> تصارع الأمراض، وفي نهاية  
عام (١٥٥٧م) وأثناء تواجدّها في "أدرنه" مع زوجها "السلطان سليمان"  
اشتدّ عليها المرض، ورغم كلّ الجهود التي بذلها أطباء القصر عند  
عودتها في مطلع ربيع عام (١٥٥٨م) إلى إسطنبول إلا أن "السلطانة  
خُرْم" توفيت عن عمر يناهز السادسة والخمسين بحيث يمكن القول  
أنها قد ماتت في سن مبكرة نوعاً ما، فكانت وفاة "السلطانة خُرْم"  
في السادس والعشرين من جمادى الآخر من عام (٩٦٥هـ) الموافق  
للخامس عشر من نيسان/إبريل عام (١٥٥٨م)،<sup>(١٢١)</sup> وقد قام الأطباء  
بتشخيص سبب وفاة "خُرْم" بأنه حمى الملاريا! إلا أن الموت بسبب  
هذه الأمراض في يومنا هذا من الأمور القليلة والنادرة، والأقرب إلى  
المنطق أن وفاة "السلطانة خُرْم" قد جاءت نتيجة مرض مختلف تماماً  
عما قاله الأطباء<sup>(١٢٢)</sup>.

(١١٩) حضرة خاصكي السلطانة الكبرى العتيقة: لقب أطلق على السلطانة خرم، ويقصد منه التبريل والتكريم والإحترام.

(١٢٠) حيث كانت تسمى والدّة السلاطين، حضرة السلطانة المجلّة الأولى....

(١٢١) بلطجي، المصدر السابق، ص ٤٩٨.

(١٢٢) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ٢٧.

ونجدُ الرحالةَ المَشْرِقِيَّ "قطب الدين المَكِّيَّ" (١٢٣) يذكرُ لنا ما يلي في كتابه "الفوائد السنيَّة في رحلة المدينة والروميَّة":

"لقد توفيت والدَةُ السلاطين يوم السبت في السادس والعشرين من جمادى الآخر بعد أن تَعَسَّرَ شفاؤها من مرضٍ عضالٍ أَلَمَ بها قبلَ فترةٍ، ولقد شُيِّعت جنازَةُ أُمِّ السلاطين وملجأ المساكين السلطنة "حَاصِكِي" طيَّبَ اللهُ ثراها ودَامَتْ عِصْمَتُهَا حتى جامع "بيازيد" الذي وصلتهُ محمولةٌ على أكتافِ الوزراء،" (١٢٤) وبعد أن قُضِيَتْ صلاةُ الجنازة التي أمَّها المفتي الأعظم تمَّ دفنها على يد المفتي الأكبر شيخ الإسلام، وقد عمَّ الحزنُ على أهلِ إسطنبول بوفاةِها." (١٢٥)

### الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيع

بعد أن دُفِنَتْ "السلطنة خُرُم" في مقبرةِ جامع "السليمانية" أُقيمَ لها ضريحٌ هناك حيثُ أَمَرَ السلطانُ "القانوني" فيما بعدُ بتشييدِ مقبرةٍ كبيرةٍ لها، ونجدُ أنه قد كُتِبَتْ آيَةٌ قرآنيَّةٌ ذاتُ حُجْمٍ كبيرٍ على الرخامِ المُثَبَّتِ في إطارِ القُبَّةِ الخاصَّةِ بضريحِ "السلطنة خُرُم" ذي الثمانِ زوايا.

ويتميَّزُ مدخلُ ذلك الضريحِ بأنَّ له رواقًا وبابًا وكلا جانبيه مزينٌ بلوحاتٍ خَرْفِيَّةٍ، وعلى هذه اللوحات نجدُ آياتٍ من القرآن الكريم قد

(١٢٣) ولد "قطب الدين مكِّي نهرالي" في "لاهور" عام (١٥١١م/٩١٧هـ)، درس لفترة في مكة، وفي الأعوام التالية تم تعيينه مفتي وقاضي لمدينة مكة نتيجة لعلو مكانته وتقدير رجال الدولة له. قام "مكي" بزيارتين إلى إسطنبول كانت أولاهما عام (١٥٣٦م) حيث اجتمع في كلا الزيارتين برجال الدولة العثمانية وكذلك دخل في نقاشات علمية مع العلماء، وفي عام (١٥٥٧/٩٦٥م) أرسل إلى مقر الخلافة بصفة مبعوث من شريف مكة السيد "حسن ابن نومي" مع رجاء وطلب منه بإعفاء رئيس الانكشارية "بيري" الذي كان بالمدينة المنورة. وفي عام (١٥٦٧م) تم تعيين "مكي" من قبل السلطان "القانوني" كأول مدرس للمذهب الحنفي في المدرسة (السليمانية)، وفي عام (١٥٨٢م) توفي الشيخ "مكي" في مكة عن عمر يناهز الواحد والسبعين حيث دفن في مكان يسمى "الجنة المعلى".

(١٢٤) لقد حملت "السلطنة خُرُم" عدة ألقاب سواء في حياتها أو بعد وفاتها، وصار من الثابت أن هذه السيدة قد استنحت الكثير من الألقاب العظيمة وقد تمتعت السلطنة بالاحترام وكانت لها مكانة مميزة بين أفراد الأسرة الحاكمة.

(١٢٥) طُغْكِيزَان، المصدر السابق، ص ٢٠.



ضريح "السلطانة خُرّم" في حظيرة جامع السليمانية في إسطنبول





كُتِبَتْ بِالْخَرْفِ أَيْضًا بِالإِضَافَةِ إِلَى عِبَارَاتِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" و"سُبْحَانَ اللَّهِ" و"الْحَمْدُ لِلَّهِ"، وَعِنْدَ الدَّخُولِ مِنْ بَابِ الضَّرِيحِ نَرَى أَعْمَالًا خَزَفِيَّةً مَزْخَرَفَةً صَفْرَاءَ تَعُودُ إِلَى الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَعَلَى النَّافِذَةِ نَلَاحِظُ آيَاتِ قِرَائِيَّةٍ مَكْتُوبَةٍ أَيْضًا عَلَى اللُّوْحَاتِ الْخَزَفِيَّةِ الَّتِي تَعْلُوهَا، أَمَّا حَوَائِطُ الضَّرِيحِ فَعَلَيْهَا أَعْمَالٌ خَزَفِيَّةٌ تَكَادُ مِنْ رَوْعَتِهَا تَمَسُّ الْقَلْبَ وَتُشْعِرُ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ فِي حَدِيقَةٍ مِنْ حَدَائِقِ الرَّيِّحِ، وَفِي نَهَايَةِ الْحَائِطِ نَجْدُ إِطَارًا مِنَ النُّقُوشِ الْخَزَفِيَّةِ الْبَدِيعَةِ وَالْخَلَابَةِ، أَمَّا زُخَارِفُ قَبَةِ الضَّرِيحِ الَّتِي تَحْمِلُ سَمَاتِ عَصْرِهَا فَقَدْ ضَاعَتْ نَتِيجَةً لِعَمَلِيَّاتِ التَّرْمِيمِ<sup>(١٢٦)</sup>.

\*\*\*

وَمِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ ضَّرِيحِ "السُّلْطَانَةِ خُرْم" فَقَدْ تَمَّ تَعْيِينُ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَوْظُفِينَ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمَوْظُفُونَ يَنْقَسِمُونَ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، أَمَّا مَجْمُوعَةُ الْقُرَّاءِ فَقَدْ كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ قَارِئًا تَقْرَأُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَوْقَاتِ الصَّبْحِ وَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَجْمُوعَةِ الْحِرَاسَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ شَخْصٍ يَقُومُونَ بِأَعْمَالِ الْحِرَاسَةِ، أَمَّا الْمَجْمُوعَةُ الْآخِرَةُ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ الضَّرِيحِ فَقَدْ كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ تِسْعَةِ أَشْخَاصٍ عُهُدَتْ إِلَيْهِمْ أَعْمَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ يُفْهَمُ أَنَّ عَدَدَ الْعَمَالِ بَلَغَ مِائَةً وَثَمَانِيَّةً وَثَلَاثِينَ شَخْصًا يَعْمَلُ يَوْمِيًّا فِي خِدْمَةِ الضَّرِيحِ.

\*\*\*

لَقَدْ نَجَحَتْ "السُّلْطَانَةُ خُرْم" فِي أَنْ تُؤَلِّفَتْ نَظْرَ "الْقَانُونِي" مِنْ بَيْنِ جَوَارِي الْقَصْرِ الْكَثِيرَاتِ، حَتَّى إِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ فِي النِّهَايَةِ أَنْ تُصَبِّحَ

(١٢٦) هَاتُوكُ شَاهِشَوَقَازْ أَوُغْلُو (Haluk Şehsuvaroglu)، "إِسْطَنْبُولُ عَلَى مَرِّ الْعَصْرِ"، الْمُلْحَقُ التَّارِيخِيُّ لَجَرِيدَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ، ص ١٤٥.

محظيَّته والأقرب إليه من بينهنَّ، كما تمكَّنت من أن تفوزَ بحقِّ العنقِ بعد أن أنجبت للسلطانِ أمراء، وكانت تَتَمَنَّعُ عن لقاءه حتى نالت في نهاية الأمر ما كانت تصبو إليه؛ إذ عُقِدَ قرائنها على السلطانِ بشكلٍ رسميٍّ، لقد أحبَّها "القانونيُّ" كثيرًا لدرجة أنه قد شيَّد الأوقافَ باسمِها، حيث أمرَ بتشييدِ دارٍ لإطعام المحتاجين في كلِّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما قام ببناءِ دارٍ أخرى وخانٍ للقوافل وجامعٍ في منطقة "جسر مصطفى باشا" بمنطقة "أدرنه" وذلك على شاطئِ "مَريِنج" (Meriç)، كما أمر بإقامة الكثير من السُّبل المجانية في "أدرنه" وجلبَ لها الماءَ، وأرسل إلى أهالي الحجاز -متصدِّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة- عام (١٥٦١م) صدقاتٍ تُقدَّرُ بنحو ثلاثة آلاف قطعةٍ من الذهب.

### حكاياتٌ ملفَّقةٌ من نسج الخيال

إنَّ بعضًا من المؤرِّخين الأتراك وبعضًا من المؤرِّخين الغربيين الذين يُصدرون الأحكام -في حقِّ حريمِ السلطان عمومًا، وفي حقِّ السلطانة خَزَم خصوصًا- كان هدفهم ومبتغاهم الإساءة إلى كلِّ ماقامت به السلطانة خَزَم، حتى صاروا يسعون جاهدين بكلِّ وسائلهم المتاحة إلى إظهار هذه السيدة المحبة للخير ذات الفِطْنة وصاحبة الفِراسة على أنها منبعٌ للشَّرِّ والفساد.

فَمِنْ جُمْلَةِ الأعمالِ التي تُنسَبُ لمؤلِّفين اعتُبرُوا من الكُتَّاب العالميين والمشاهير بسببِ الرواياتِ والسِّيرِ الذاتية التي كتبوها عن السلطان "القانوني" كتابٌ "فيرفاكس دوني" (Fairfax Downey) <sup>(١٢٧)</sup> و"هارولد لامب

(١٢٧) ولد "فيرفاكس دوني" عام (١٨٩٤م) تخرج في جامعة "ياله" وعمل كصحفي، عرف ككاتب في التاريخ العسكري، واشتهر عندنا بكتابه عن التاريخ العثماني الذي صدر تحت عنوان "The Grande Turke, Suleyman The Magnificent, Sultan of The Ottomans" أو "التركي البجل، السلطان العثماني" سليمان العظيم، وقد توفي في ولاية "نيو هامشير" في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٩٠م).

(Harold Lamb) <sup>(١٢٨)</sup> فإننا لا نجد سوى قصص لا تعتمد على أي أساس من الصحة وتبدو في صورة حكايات شخصية تُصوّر "خُرْم" والسلطان "القانوني" على أنهما كانا كياناً واحداً لا يفتقران عن بعضهما البعض، وإن العاقل والمتدبر ليعلم أن تلك المؤلفات ما هي إلا أعمال خيالية وقصص خرافية، وإنه لمن إضاعة الوقت كذلك أن نجلس لتنفذ هذه الحكايات والروايات والتي نراها في الغالب تأخذ شكل الأسطورة دون أن تستند إلى أي حقيقة أو معلومة صحيحة أو برهان.

\*\*\*

إننا نجد في المقابل أن "قطب الدين المكي" -الذي كان من العلماء المشاهير في تلك الفترة- يذكر لنا أن "السلطنة خُرْم" قد انشأت الكثير من الأوقاف والأعمال الخيرية في عدة مدن عثمانية، وعلى رأس هذه الأعمال ما نجده في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، كما يذكر كذلك لنا أن كل أهل إسطنبول قد تأثروا لوفاتها.

### هدفهم معاداة الدولة العثمانية

إن هناك فئة كبيرة من مؤرخي الغرب قد اغتمت كل الفرص لكي تفصح عن عداوتها للدولة العثمانية، وقد بذل أولئك المؤرخون قصارى جهدهم لكي يحققوا غايتهم في النيل من شموخ ومكانة الدولة العثمانية، مستغلين بذلك كل الأحداث، ومستخدمين شتى الوسائل.

(١٢٨) ولد "هارولد لامب" في ولاية "نيو جيرسي" بالولايات المتحدة عام (١٨٩٢م). أنهى دراسته في جامعة "كولومبيا"، اهتم أثناء فترة دراسته بتاريخ الشعوب الآسيوية ثم تفرغ بعد الحرب العالمية الأولى لعمل الأبحاث التاريخية. ونظراً لأعماله العلمية فقد نال عام (١٩٣٣م) بمدينة "سان فرانسكو" جائزة مجموعة "الكومونولث"، وهو معروف لدينا بفضل دراساته التي تناول فيها "جنكيز خان" و"تيمورلنك" والسلطان "القانوني".

وقد كانت الحوادث المتعلقة بمقتل "إبراهيم باشا" والأمير مصطفى إحدى حلقات سلسلة الأحداث التي استغلّها هؤلاء الكُتّاب الغربيون من أجل إثبات ادّعاءاتهم والوصول إلى غاياتهم .

لقد كان الهدف من هذه المحاولات هو التقليل من القامة العالية والهامة المرفوعة التي كان يمثلها السلطان "القانوني" الذي رفع راية الإسلام عاليًا، واستطاع أن يصنع لنا أزهى عصور الدولة العثمانية وأن يجعل كل أوروبا ترسخ لقوة الهلال (أي: الإسلام) الذي انطلق من البلقان فاستطاع أن يملأ بأصوات نعال خيوله العثمانية أرجاء القارة الأوروبية.

لقد حاول هؤلاء أن يطبعوا في الأذهان صورة عن "سليمان القانوني" توحى بأنه عجوز خائر القوى، أسير لغرائزه، ضعيف النفس بلا إرادة، ظالم، قاسي القلب، قتل ابنه بلا شفقة إرضاءً لِعشيقه، لقد قام هؤلاء بمحاولات التشويه المتكررة لسيرة حريم السلطان العثماني، وكانت وسيلتهم في ذلك هي "السلطانة خُرّم" وابتها "مهرّمه" من خلال تصوير تلك القامات الشامخة على أنها شخصيات شيطانية وفي أسفل السافلين.

ومع الأسف فقد انساق كُتّابنا ذوو الميول الغربية هم الآخرون وراء هذه الادّعاءات والأكاذيب، فسقطوا في حماقة ترديد الهراءات والمقولات غير المنطقية عن "سليمان القانوني" مثل مقولة "البطل المسكين الذي انساق مخدوعًا بالباطيل".

إن مما يجب على المؤرخ أولاً: أن يضع يده على الوثائق السليمة قبل أن يشرع في تقييم الأحداث، ثم يدقّق النظر والفحص في المصادر والوثائق التي بين يديه حتى يتأكد من صحتها من خلال العقل والمنطق، كما يجب على المؤرخ أيضًا أن يجتهد في تحري وفهم الأهداف التي يحملها أصحاب هذه الوثائق، إن المؤرخ العادل لا يوجّه للشخصيات

التاريخية افتراءات بلا سند أو ادعاءات بلا دليل، حيث إنه لا يمكن تقييم الحوادث أو الأشخاص بشكل صحيح من خلال مثل تلك الافتراءات والادعاءات، فإن المؤرخ لا يكيل الإهانات ويُصدر الاتهامات إلى أعلام التاريخ بشكل تعسفي دون دليل .

إن بعض مؤرخينا لم يقوموا بتحليل وافٍ للأحداث التاريخية، ولم يستوعبوا بشكل سليم العلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة، حتى إنهم مع الأسف ضاقت أفقهم وصاروا يتعاملون بانحياز تام مع الأحداث التاريخية.

ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين -في أغلب أحوالهم- لم يفعلوا شيئاً سوى إعادة وترديد أفكار وأقوال الكتاب الغربيين.

إن أحد مؤرخينا الكبار وهو الأستاذ الدكتور "أ. ذكي وليدي توجان (Zeki Velidi Togan)" يقول لنا:

"إن مما يجب على المؤرخ أن يجتهد ليتأكد من معرفة أي عامل من العوامل المؤثرة في حدوث وتطور الأحداث كان الأكثر تأثيراً، كما على المؤرخ أن يعلم جيداً التركيبة النفسية للبشر، وأكثر من ذلك فإن على المؤرخ أن يذرك الطبيعة النفسية للشعوب والمجموعات وذلك من أجل أن يكون قادراً على فهم الأحداث التي وقعت في الأزمنة الماضية وكذلك على فهم الأشخاص والجماعات التي لعبت دوراً في تلك الأحداث فهماً صحيحاً". (١٢٩)

ومن الباحثين المهتمين في التاريخ نجد "محمد نيازي (Mehmed Niyazi)" الذي يقول لنا معلقاً على هذا الموضوع:

"على المؤرخ عندما يدرُسُ كلَّ الأبعادِ المحيطةِ بالواقعةِ التاريخيةِ التي بين يديه أن يتحلَّى بدقَّةٍ وحرصٍ العالمِ الخبير الذي يقفُ في المختبرِ العملي، وعليه أيضًا أن يكونَ محايدًا إلى أقصى درجةٍ في مواجهةٍ ما يسجِّله من وقائع." (١٣٠)

\* \* \*

إن المؤرِّخَ المحايدَ لا ينبغي له أن يُصدِرَ حكمًا على البشرِ استنادًا إلى الجنسيةِ التي ينتمي إليها هؤلاء البشرُ كأنَّ يقولَ:

"إن المسؤوليةَ عن هذه الجريمةِ التاريخيةِ المهولةِ تقعُ على عاتقِ "السلطنة خُزْم" ذاتِ الأصلِ البولنديِّ أو الروسيِّ والتي قامت بها بالاشتراكِ مع عريسِ ابنتها المقربِ منها "رستم باشا" الكرواتي الذي كان أداتها لتنفيذِ مآربها السياسيَّةِ".

وذلك لأنَّ البشرَ لا يختارون بإرادتهم الأعراقَ أو الشعوبَ التي يتموّن إليها.

إن المؤرِّخَ المحايدَ والناجحَ لا يسوقُ تخميّاته الشخصيةِ الخاصّةِ به فيما يتعلّقُ بالأحداثِ التاريخيةِ، فلا يأتي بمثلِ هذهِ العباراتِ الرديئةِ:

"لا شكَّ في أنَّ "السلطنة خُزْم" كان لها دورٌ في وفاةِ الأميرِ مصطفى، إذ من المحتملِ أنها لم تكنْ ترغبُ في وجودِ أيِّ عاقِبِ أمامِ أحدِ أبنائها في طريقِ تولّي الحكمِ عند وفاةِ القانوني".

إن المؤرِّخَ المحايدَ لا يسمحُ لنفسِه أن يُصدِرَ أحكامًا عامّةً فيما يتعلّقُ بمُجمِلِ أحداثِ التاريخ، فلا يستخدمُ تعبيراتٍ مثلَ؛  
"...هؤلاء الناس الذين انعدمَ عندهم الضميرُ"

أو:

"...لقد كانت تلك إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصرُ  
غيرِ تركيّةٍ سواء من الرجال أو النساء الاستيلاء على مقاليد الحكم  
وعلى القصر العثماني..."

لقد كان في تاريخ العثمانيين الكثير من العناصرِ غيرِ التركيّة التي لا  
تُعدُّ ولا تُحصى والتي خدمت الدولة العليّة والعالم الإسلاميّ الحنيف،  
فنجدُ العشراتِ من رجالِ الدولة ابتداءً من "صوكوللو (Sokullu)" إلى  
"كوبورلو (Köprülü)" والذين لا يتمون إلى أصول تركيّة ولكننا نجدُ  
أنهم قد قاموا بخدماتٍ جليّةٍ للدولة، وجعلوا حياتهم وفقاً على الدولة  
العثمانيّة من أجل إعلاء شأنها.

إنَّ تاريخ العثمانيين يحوي الآلاف من الجواري اللاتي كنَّ ضمنَ  
الحريمِ واللاتي كنَّ من جميع الجنسيّات، فكانت منهنَّ ذاتُ الأصلِ  
الإيطاليّ أو الروسيّ أو البولنديّ أو الأوكرانيّ أو الجورجيّ أو الشركسيّ  
أو غيرها من الأصول، وقد تمكّن قسمٌ من هؤلاءِ الجواري أن يكونَ  
جزءاً من حريمِ السلطان لتصبح الواحدةُ منهنَّ مُستفَرَّشَةً (ikbal) أو زوجةً  
(kadınefendi) أو محظيّةً (haseki)، بل إنَّ بعضهنَّ قد علا شأنها أحياناً  
فوصلت إلى درجة أن تحمِلَ لقبَ "السلطنة الوالدة".

فمن السلطنة "نوربانو (Nurbânu)" إلى "برتفنيال (Pertevniyal)" ومن  
"خديجة طرخان (Tarhan)" إلى "بزمي عالم (Bezmiâlem)"، نجدُ الكثيرَ  
من نماذجِ السلطنة الوالدة واللاتي ضربنَ المثل في الشفقة والرحمة،  
وكانت غايةً حياة هؤلاءِ السيدات هي تقديم الخدمة للناس، حيث  
تعلّق قلوبهنَّ بالله وبجيبه الرسول ﷺ، كذلك نجدُ أنهنَّ قد سعينَ من  
خلالِ الأوقافِ الخيريّة الكثيرة اللاتي أقمنها إلى ضمانِ تحقيقِ التكافلِ  
الاجتماعيّ داخلَ المجتمع.





## أعمال "السلطنة خرم" الخيرية

### أفضل الأعمال الخيرية هو تأسيس وقف

لقد كانت الدولة العلية تستوعب الناس من كل دين ومذهب وعرق، رجالاً ونساءً، وتصبغهم بصبغتها، وبذلك جعلت كثيرًا من الأشخاص الذين نشؤوا في بيئات مختلفة ويتمون إلى أفكار متباينة، يخدمون الإسلام والقرآن.

لقد أصبحت "السلطنة خرم" بالنسبة للسلطان "القانوني" هي السلطنة المقرّبة إلى قلبه، فصارت بذلك سيّدة القصر الأولى، أما "السلطان سليمان" فهو باعتراف المؤرّخين الغربيّين والأتراك على حدّ سواء، يُعتبَر واحدًا من أقوى حُكّام العالم على مرّ التاريخ.

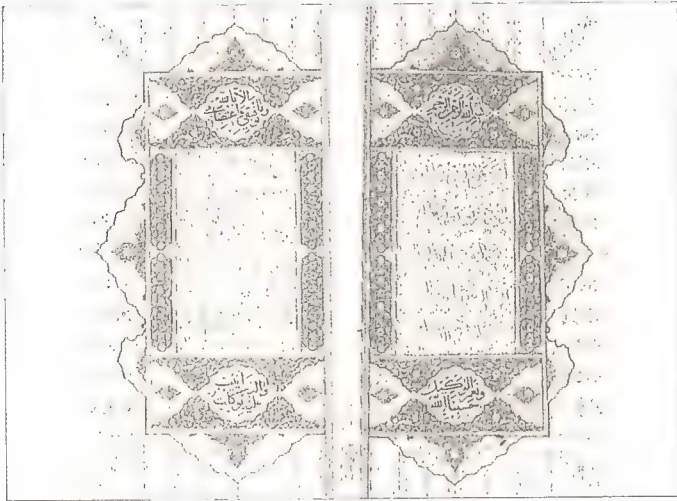
لقد استطاعت "السلطنة خرم" التي كان "السلطان سليمان" شغوفًا بها ويكنّ لها حبًا شديدًا، أن تحيا حياةً سعيدةً مليئةً بالهناء والسُرور، ورغم أنها لم تكن لديها أيّة أطماع دنيويّة، فقد سَعَتْ من أجل نيل رضا الله ﷻ (١٣١) وشفاعة الرسول ﷺ بيناء الكثير من الأوقاف الخيريّة، تحدوها الرغبة في خدمة الإنسانية والمجتمع (١٣٢).

\*\*\*

(١٣١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٨٢/٢).

(١٣٢) روي عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". (مسلم، الوصية، ١٤).

لا يوجد شك في أن إنشاء الأوقاف من أفضل الأعمال الخيرية التي تبقى للإنسان، إن الوقف يظل مستمرًا في القيام بواجبه بلا انقطاع حتى بعد موت صاحبه، ولا يتوقف ما دامت الدنيا قائمة.



الصفحتان الأولى والثانية في لائحة وقف "السلطنة  
خُرم" (أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-٢٨/ك)



ولقد أُشِيرَ في لائحةِ الوقفِ الذي بَنَتْهُ "السلطانة خُرُم"، وهي سيدةٌ ناضجةٌ في سنِّ السادسةِ والثلاثين من عمرها، عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ)، إلى عجزِ الإنسانِ أمامَ القدرةِ الإلهيةِ، وإلى أن الحياةَ في الدنيا قصيرةٌ، كما بين غمضةِ عينٍ وانفتاحِها.

والكلماتُ التاليةُ في لائحةِ وقفِ السلطانةِ "خَاصَكِي" تُبَيِّنُ لنا مدى حُبِّها لِعَمَلِ الخيرِ والمعروفِ، وَقَدَرِ ما تَمَتَّعَتْ به من حماسةٍ وجهدٍ في هذا الصددِ:

"لقد أَغْدَقَ ذلكَ الوقْفُ بِالنِّعَمِ والخيراتِ على كُلِّ الأهلالي، كما بَسِطَتْ موائدُ الخيرِ في شَتَى البقاعِ، لقد كانت نِعَمٌ ذلكَ الوقْفُ وافرَةً منتشرةً، كالأنهارِ التي ينالُ كُلُّ إنسانٍ نصيبَهُ منها، ونَدَرَ مَنْ لم يَنْهَلْ مِنْ مَعِينِ هذهِ النعمِ والخيراتِ الوفيرةِ، وكان الناسُ يأتونَهُ من كُلِّ حَدَبٍ وَضَوْبٍ، ومن كلِّ مكانٍ قَرِيبًا كان أم بعيدًا".

"لقد أرادت السلطانة أن تستمر خيرات هذا الوقف الوفيرة، وأن تظلَّ متوفرةً ومفتوحةً أمامَ الفقراءِ والمحتاجين بدون انقطاع إلى يوم القيامة".

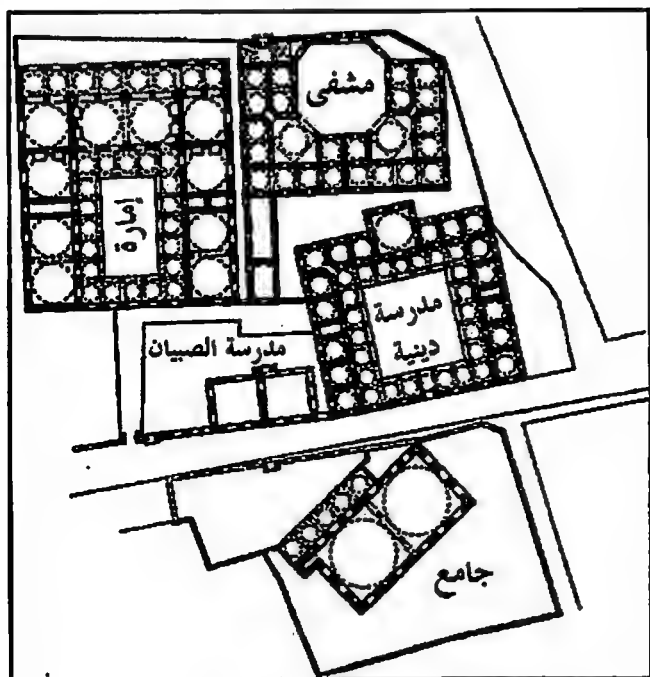
"اللهم لا تَقْطَعْ غَيْثَ إِحْسَانِها عن السائلين، ولا تَحْرُمْ أَحَدًا كَرَمَها، ولا تُرُدِّ أَحَدًا خَاوِيَ الْوَقَاضِ مِنْ عِنْدِها، وَلْيَهْطَلْ على الناسِ إِحْسَانُها وَمَدَدُها كالأمطارِ المباركةِ الْمُتَابِعَةِ" (١٣٣).

المجمع الذي بُني مكان سوق "أَوْرَت" (Avrat) (١٣٤)

كان "السلطان سليمان" الذي حكم أرجاء المعمورة، مع زوجته

(١٣٣) نَفْثَةُ طَائِفِيَرَانْ (Tayfiran)، كتاب "حصاكي"، إسطنبول - ١٩٧٢، ص ٤٢-٤٣.

(١٣٤) أَوْرَت: تعني بالتركية المرأة، ولقد تغير اسم المكان هذا وتعاينت عليه أكثر من تسمية، وهو الآن يشتهر باسم منطقة الفاتح. (المترجم)



مخطط مجتمع "خاصيكي السلطنة خزم" في "خاصيكي/إسطنبول"



"السلطنة خُزْم" أثناء الإشراف على بناء مجمع "خَاصِكِي"، ولم يَتَوَّأَنَّ عن تقديم الدعم المطلق إلى زوجته؛ من أجل إنجاح هذا المشروع.

وكان المهندس التركيُّ الذي عُهِدَ إليه بمهمةِ إنشاءِ هذا المَجْمَعِ، وخلد ذِكْرُهُ، هو المعماري الكبير "سِنَان"، ذلك الفنان المعماري الذي عمَّتْ شهرتهُ الآفاقُ<sup>(١٣٥)</sup>.

بُنِيَ "مجمع خَاصِكِي" في ميدان "أركاديوس" (*Arkadius*) الذي يُعْتَبَرُ واحدًا من أربع ساحاتٍ رئيسيةٍ في إسطنبول في عهد البيزنطيين<sup>(١٣٦)</sup>، حيث تقع هذه المنطقة على إحدى هضاب إسطنبول السبعة.

وقد سُمِّيَ هذا الحيُّ بعد فتح إسطنبول باسم حي "باشجي حاجي" (*Başçı Hacı*)،<sup>(١٣٧)</sup> ثم أصبح يطلقُ عليه بعد تشييد بناياتٍ وعمائر الأوقافِ اسمَ سوق "أَوْرَت" (*Avrat*) "أي: النساء"<sup>(١٣٨)</sup>.

وظلت المنطقة تحمل هذا الاسمَ لمدةٍ تزيدُ عن أربعمئة عام، حتى أواخر القرنِ التاسع عشر.

(١٣٥) لقد كان المجمع الخيري الذي أنشأته "السلطنة خَاصِكِي"، هو أول الأعمال التي قام بها "سِنَان" بعد أن تم تعيينه كمهندس معماري؛ حيث استطاع هذا المجمع أن يقدم إلى الفن المعماري إضافةً متميزةً ومختلفةً.

(١٣٦) أنام الإمبراطور البيزنطي "أركاديوس" في هذا المكان عام (٤٠٣م) بإقامة عمود بارتفاع أربعين مترًا ليحمل اسم والده "ثيودوس"، أما ابنه "ثيودوس الثاني" فقد قام بوضع تمثال لوالده بجوار العمود، ويمكن أن نرى بقايا هذا العمود اليوم في المنطقة نفسها؛ حيث تبدو في صورة كتلة حجرية.

(١٣٧) كان طَبَّاخُ الكَزَّاجِ "الحاج محمود" هو كبير طهاة الكَزَّاجِ لدى السلطان "الفتاح"، وكان من الشخصيات المعروفة في ذلك العصر، وقد قام ذلك الشخص فيما بعد بإنشاء مسجد صغير في المنطقة التي تحمل اسمه، لكن هذا المسجد احترق تمامًا في الحريق الذي وقع عام (١٩١٨م).

(١٣٨) بعد أن تم تأسيس المجمع، أمر السلطان "سليمان القانوني" بتأسيس سوق للنساء في المنطقة نفسها، وقد فُهِمَ هذا الأمر على مُخْتَلِ الطُّفَل من قِبَلِ السلطان تجاه زوجته، وبناءً على ما يذكره "مبوري" (*Mamboury*) الذي ألف كتاب "دليل إسطنبول": إن هذه السوق المفتوحة التي تُعرَفُ باسم سوق "أَوْرَت" التي ترتادها النساء على وجه الخصوص من أجل البيع والشراء، كان يتم العمل بها في أحد أيام الأسبوع، وذلك في المنطقة السالف ذكرها، إن مصطلح سوق "أوروت" لا يشير إلى بقاء بيع الجوارب فيه على ذلك الوقت أو أنه سوق تباع فيه النساء الأسيرات.

لقد صار "حيّ خاصّكي" <sup>(١٣٩)</sup> حيّا محبوبًا ومميّزًا منذ عام خمسمائة ميلادية حتى يومنا هذا.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يقوم السلطان باختيار هذه المنطقة من أجل تخليد ذكرى محبوبته السلطانة "خُزْم" التي أُغْرِمَ بها. إن هذه المنطقة التي أحبّها البيزنطيون قد تعلّق بها العثمانيون أيضًا.

\* \* \*

وقد بدأت مجموعة أبنية "خاصّكي" بجامع صغير ذي قبة واحدة في سوق "أوزت" من عام (١٥٣٨م)، ثم توسّعت في العام التالي لذلك التاريخ؛ حيث ألحقت بها مدرسة دينيّة ومدرسة للصبيان <sup>(١٤٠)</sup>.

وقبل الانتهاء من بناء كلّ من مجمع "شهزاده" (*Sehzâde*) الخيري، ومجمع "السليمانية" كان "مجمع خاصّكي" قد صار مركزًا اجتماعيًا كبيرًا بعد أن أضيف إليه مشفى ودار لإطعام المحتاجين.

وقد كان الجامع في شارع مُحاذا لـ "مجمع خاصّكي" بالقرب منه، أما المدرسة الدينيّة، ومدرسة الصبيان، والمشفى، ودار إطعام المحتاجين، فعلى الجانب الآخر منه.

### كلمة "محمد" بالخط الكوفي

إن الجوامع في المجمّعات العثمانية الخيرية، تُعتبر هي البناء الرئيس في المُجمّع أو الوقف، وكان النظام المُتبّع أن تشيّد حول الجامع وفي محيطه باقي البنايات المُلحقة بذلك الوقف.

(١٣٩) لقد أخذت هذه المنطقة اسم "خاصّكي" مع بداية القرن العشرين.

(١٤٠) "دوغان كُوتان" (*Doğan Kuban*). "مجمع خاصّكي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول -

٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٥٠.



المنظر العام لمجمع "خاصكي السلطنة خرم" في "خاصكي/إسطنبول"



وبناءً على لوحة جامع "خاصكي"، المحفوظة اليوم في متحف "جينيلي كوشك" (Çinili Köşk) بقصر "طوب قابي"، فقد سُيِّد الجامع فيما بين عامي (١٥٣٨/١٥٣٩ م).

وفي هذه اللوحة المنقوشة، يُذكر بشكلٍ وجيز المراحل التي مرَّ بها الجامع، على النحو الآتي:

"لقد سُرع في بناء هذا الأثر من قِبَل "السلطنة خُوم" عام (١٥٣٨ م/٩٤٥ هـ)، وقد تطوَّعت السلطنة وبشكلٍ خيريٍّ في تجهيزه بالكامل، وبسبب ضيق المكان، وعدم اتِّساع الجامع لأداء صلاة الجماعة، فقد تُمَّت توسعته، بإضافة قُبَّةٍ أخرى، بفضل جهود "حسن بك" المسؤول عن الوقف في عهد السلطان "أحمد الأول" عام (١٦١٢ م)، وذلك بعد مُضيَّ أربعة وسبعين عامًا على إنشائه، وتمَّ إجراء هذا التعديل من قِبَل المهندس المعماري "صدفكار" (Sedefkâr) محمد آغا<sup>(١١)</sup>.

\*\*\*

كان جامع "خاصكي" يُشبه قبل ترميمه الجوامع العثمانية التي سُيِّدَت قبله. أي: إنه كان عبارةً عن قُبَّةٍ واحدةٍ مُسَيَّدة فوق مكانٍ مربعٍ الشكل، وكان يُستخدَم تعبير "جامع ذو قُبَّةٍ واحدةٍ" من أجل الإشارة إلى هذا الطراز من الجوامع العثمانية.

عند الوصول إلى مدخل الجامع، وبعد اجتياز بابِ الحديقة، نجدُ أمامنا مكانَ الصلاة، ورُواق الجامع الذي تحمله ستَّة أعمدة -وقد انمحي جمالها المعماري؛ جرَّاء إقفال المسافات التي بينها بالزجاج والحديد حاليًا- وقد كانت هذه الأروقة تغطِّي فحشِب الجزء الأمامي من المكان القديم ذي القُبَّة الواحدة، الموجود في هذا الجامع والذي تمَّ تشييده في

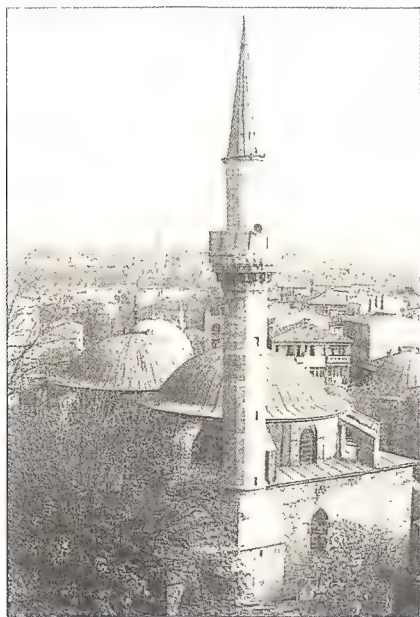
(١٤١) "سما دوغان" (Sema Doğan)، "مجمع خاصكي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -

٢٠٠٣ م، الجزء السادس عشر، ص ٣٧٠.



عهد السلطان القانوني، يعني أنه لا يوجد رُواق أمام القسم الإضافي الذي أنشئ وأضيف بعد ذلك بإلحاق قبة أخرى في عهد السلطان "أحمد الأول".

\* \* \*



مسجد "خاصكي السلطنة خُرم" في "خاصكي/إسطنبول"

وداخل الباب الرئيسي لجامع السلطنة "خاصكي" ذي الشكل المستطيل، نجد أنه تم عمل باب ثانٍ أصغر قليلاً، وقد زُينَ هذا الباب الثاني، وكتب على جوانبه بالخط الكوفي ناحية اليمين عبارة: "لا إله إلا الله"، أما على اليسار فقد كُتِبَت كلمة محمد ﷺ أربع مراتٍ بشكلٍ مستدير.

ويلاحظ أن محاريب الجوامع العثمانية تكون في منتصف حائط القبلة دائماً، وعندما كان جامع "خاصكي" ذا قبة واحدة، فقد كان محراب المسجد واقعاً في منتصف حائط القبلة، لكن بعد أعمال التوسيع التي أجريت للجامع، فقد تمت زيادة طول حائط القبلة بمقدار الضعف، ونتيجة لهذه الزيادة في الطول، فقد أصبح من الضروري أن يتغير مكان المحراب أيضاً حيث ألغِيَ مكانه الأصلي بإحلال عمود كبير محله، ليُضَبَّح موضع المحراب الجديد في مكانٍ آخر، وليقع متوسطاً بين القُبَّتين.

### هل المعماري "سنان" هو من أنشأ الجامع؟

إن عملية توسيع جامع "خاصكي"، وما صاحبها من إضافة مساحة جديدة للجامع، أدت إلى تغيير مكان المحراب الأصلي، وحدوث تحوُّل في شكل الجامع من الشكل المربع إلى الشكل المستطيل، ويمكن أن نقول بتعبيرٍ آخر: إن الشكل الخارجي للجامع قد أصابه شيء من الانحراف عن نسقه القديم.

ففي حين كان طول حائط المحراب القديم (١١,٦٥) متراً، فقد صار طول الحائط الجديد (١١,٩٠) متراً، وبما أن طول كل حائط من الحوائط المتبقية في الجامع هو (١١,١٠) متراً، فهذا يعني أن القسم الجديد الذي تمت إضافته يعتبر أكبر إلى حد ما.

إن الأعمدة التي تم رَفْعُها بين كلا القسَمين قد أفسدت شكلَ الجامع، وهو ما يمكن اعتباره نتيجة حتمية من الناحية الهندسية، كما أخذت إضافة قسم جديد إلى الجامع انتقالَ موضع جلوس السلطان العثماني، ليصبح في القسم الجديد، في حين ظلَّ المنبر كما هو في المكان القديم. وعلى هذا النحو، فإننا إذا نظرنا إلى الجامع من ناحية الفناء، يتضح لنا بشكلٍ جليٍّ ذلك المكان الذي صُمِّم فيه القسَمان القديم والجديد معاً.

\*\*\*

تتميّزُ البنايات التي يضمُّها "مجمّع خاصّكي" بأنها على النمط ذاته، وتشابه فيما بينها، بينما نجدُ مجمع البنايات في الوقت نفسه بعيداً من ناحية التصميم عن جامع "خاصّكي"، وبمعنى آخر: فإن الجامع لا يُشبه أعمال المهندس المعماري "سِنان"، سواء أكانت أعماله السابقة أو اللاحقة.

إن هذا الجامع الذي بُني وشيّد تحت رعاية "السلطنة خُرْم" هو بعيدٌ -من ناحية الفن المعماري- كلُّ البُعد، عن أن يُعدَّ من ضمن الأعمال الرائعة التي صمَّمها وأبدعها المعماريُّ العظيم "سِنان" ولذلك فنحن لا نستطيع أن ننسبَ بناء هذا الجامع إليه.

وثمة دليلٌ آخر على أن هذا الجامع ليس من أعمال "سنان"، وهو كونه ضعيفاً جداً إلى جوار الجوامع التي أمر السلطان "القانوني" وزوجته "خُرْم" "سناناً" بتشيدِها باسم أفراد عائلتهما، بالإضافة إلى أنه لا يحمل قيمة من الناحية المعمارية.

كما لا يمكن أن نَعقِدَ مُقارَنةً بين هذا الجامع وبين جامع "السليمانية" أو جامع "السليمية" اللذين يُعدّان على رأس الأعمال الرائعة والفريدة

الخاصة بالمعماري "سنان"، ولكن إذا دققنا النظر في هذه الأبنية فإننا نجد بعض بنايات المجمع، سواء أكانت بناية المعهد أو دار إيطعام المحتاجين أو المشفى أو المدرسة، نجد بعضها يحمل طابع وبصمة "سنان" بشكل قطعي، عندها يمكن القول بأن بعض ملحقات الجامع - وليس كلها-، مثل: الميثانة، والأروقة، والصفة الأخيرة، هي من أعمال "سنان" فقط (١١٢).

هذا، وقد تم تعيين المعماري "سنان" في الأساس عام (١٥٣٩م) كبيراً للمهندسين المعماريين لاستكمال إنشاء هذا الجامع؛ لأن التصميم الهندسي الخاص بجامع الوقف لم يخطط بالإعجاب المطلوب، فقد كان ذلك التصميم فاشلاً من الناحية الجمالية في ذلك الوقت؛ فتحوّلت مهمة إكمال بناء الجامع إلى "سنان" بعد أن أعفي باقي المهندسين من هذه المهمة، فجاء "سنان" وحاول جاهداً من أجل أن يُنقذ على الأقلّ الواجهة الخارجية للجامع، مُنشئاً قُبيل الانتهاء من أعمال بناء المسجد أقسام المنارة والأروقة ومكان الصفة، حتى إذا اكتمل بناء الجامع عُهد إلى "سنان" مهمة إنشاء واستكمال باقي الأبنية الملحقة بالمجمع.

### اللوحات الخزفية المفقودة

تعتبر المدارس الدينية من الأقسام التي لا يمكن إغفالها في المجمع؛ إذ إن هذه المدارس تُعدّ بحقّ نماذج مُعبّرة عن مدى الاهتمام الذي أولاه حُكّام ذلك العصر بالعلم والمعرفة (١١٣).

(١١٢) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

(١١٣) كانت تعطي الأهمية في المقام الأول لبناء المدارس الدينية بين المؤسسات التي تبنى حول المسجد وذلك في الآثار العثمانية الأولى التي توجد في "إسطنبول" أو تلك التي نجدها في مراكز الدولة القديمة مثل "إزنيك" (Iznik) و"بورصة" (Bursa). "ويعتبر إنشاء أربعة مدارس في مجمع "السلمانية" وثمانية مدارس في مجمع "فاتح" بإسطنبول دليلاً واضحاً على الأهمية التي كانت تمنح للعلم، وكان يتم ترتيب المدارس بناء على مستواها العلمي، حيث كانت مدارس "ثمانية" هي أعلى المدارس مرتبة بين مدارس إسطنبول، وكان يليها مباشرة مدارس "السلمانية" و"خاضكي"، وعند تعيين المدرسين في هذه المدارس لم يكن يسمح إلا فيما ندر بالانتقال الفجائي إلى المراتب العليا دون المرور بالمراتب الأولى.

وفي عام (١٥٣٨م)، بعد أن تم الانتهاء من بناء الجامع، ذلك البناء الأول في مجمّع السلطنة "خَاصِكِي"، شُرعَ في بناء المدرسة الدينية، ويُعتبر هذا الأثر من الأعمال العظيمة التي خَلَفَهَا لنا "سِنَان"، ويُعدُّ بحق نموذجاً رائعاً في فن رسم المُنَمَّنَات، ومن خلال الكتابة المُدَوَّنة على باب مدخل المدرسة يُتضح لنا أن هذه المدرسة الدينية قد تمَّ إنشاؤها في عام (١٥٣٩م)، لكن هذه الكتابة لم تعد موجودة الآن كما كانت في سابق عهدها بل أصبح مكانها خاوياً، وصارت هذه الكتابة معروضة الآن في متحف "جِينِيلِي كُوشُك" (Çinili Köşk)، بحيث نراها هناك وهي مزدانة بقطع بديعة ورائعة من الخُزف، الذي يعود إلى القرن السادس عشر، كما كُتِب تاريخ إنشاء هذه المدرسة الدينية مرةً ثانية بحساب الجُمْل<sup>(١٤)</sup> في البيت الشُعري الأخير الموجود على هذه اللوحة الخُزفية، وفوق هذه القطعة الخُزفية -التي يعلوها جزءان ناقصان من جزاء كسر لِحَقْهَا- نجدُ كَلِمَاتٍ قد كُتِبَتْ؛ نحو:

"يا قاضي الحاجات... يا مُجِيبَ الدَّعَوَات... يا وَلِيَّ  
الحسنات... يا رحمن... يا رحيم..."

بحروف كبيرة بيضاء ذات خلفيّة زرقاء، وتبدو أمامنا هذه الكتابة وقد أُحِيطَتْ بإطار رقيق لتزيين الحواشي، كما كُتِب فوق تلك القطعة الخُزفية أيضاً آية الكرسيّ والبسملة بلونٍ أصفر يميل إلى الفيروزي، أما في منتصف القسم السفلي منها فقد كتب التاريخ (٩٤٦هـ/١٥٣٩م).

أما القطعة الخُزفيّة الثانية، الموجودة على باب قاعة الدروس -التي تعد هي الأخرى من أكثر النماذج الفنيّة جمالاً وروعةً في مجال الفنّ الخُزفي في القرن السادس عشر- فقد أُرْسِلَتْ هي الأخرى مع القطعة الخُزفيّة

(١٤٤) جناب الجُمْل: نوع من الحساب يُجمل فيه لكل حرف من الخُزوف الأبدية عددٌ من التواجد إلى الألف على تزيين خاص. (المترجم)

الأولى، الموجودة فوق الباب الرئيسي للمدرسة، إلى متحف "جينييلي كوشك"؛ حيث تَمَّ رفعهما من أماكنهما بعد أن كانتا على وشك السقوط.

وعلى هذه اللوحة الثانية، كُتِبَت الآية الثامنة عَشَرَ من سورة الحشر<sup>(١١٥)</sup> في القرآن الكريم، بِالخَطِّ الرومِي الأصْفَرِ فَوْقَ خَلْفِيَّةٍ خَضْرَاءَ<sup>(١١٦)</sup>.

كما لوحظَ أَنَّ أَمَاكِنَ المَرايا الخاصَّةِ بنوافذِ المدرسةِ التي تُطلُّ على شارعٍ "خَاصِكِي"، قد أصبحت خاويةً تمامًا، لكن من المؤكَّد أن تلك الأماكن كانت مغطاةً بِقِطْعٍ من الخَزَفِ عند افتتاح تلك المدرسة، واليوم مع الأسف، فإن "مَجْمَعِ خَاصِكِي" لم يَعدْ به أيُّ أثرٍ لِلِقِطْعِ الخَزَفِيَّةِ الرائعةِ التي عَمَّتْ شَهرتها الآفاق، والتي كانت تُذَكِّرُ الناظرين إليها بموسم الربيع.

وللأسف الشديد، فإن الذي قضى على تلك الآثار الفتيَّة الرائعة ليس تعاقبُ الزمان بل يد الإنسان.

### المدرسةُ تَحَوَّلَتْ إلى مَلْجَأٍ

تعتبر مدرسة "خَاصِكِي" من الناحيةِ المِعماريَّةِ أثرًا فريدًا من ضمن الآثار التي حَمَلَتْ لَنَا طابَعٌ وبصمةَ الفنان المِعماري "سَيَّان"، عند الدخول من باب المدرسة نجد فناءً واسعًا ذا حوض، وحوله غرف الطلاب، يليها قاعةُ الدرس، كما نجدُ فناءً آخَرَ به رُواقٌ أحاطت به الأبنيةُ المغلقةُ من ثلاث جهاتٍ، وتقع قاعةُ الدرس في وسط الرُواقِ الذي يواجهُ البابَ، وكانت قاعةُ الدرس، بِقُبَّيْهَا التي يصل حجمها إلى ٦,٨ أمتار، زائدةً عن محيط المدرسة وخارجةً عنها، وقاعةُ الدرسِ مُقسَّمةٌ إلى سِتِّ عُرُفٍ

(١١٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَلَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة طه: ١٨/٥٠).

(١١٦) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ١٠٨.



مدرسة "خاصكي السلطانة خرم" الدينية في "خاصكي/إسطنبول"





أحد الميازيب والحفر الخزفية على إحدى نوافذ مدرسة "خاصكي  
السلطنة حُرَم" الدينية (متاحف آثار إسطنبول، متحف القصر الخزفي،  
معروضة رقم: ٥٤٤/٤١)





موزعة على الجانبين، ثلاثة منها عن اليمين وثلاثة منها عن الشمال، أما فناء المدرسة فقد قُسم إلى عَشْرِ غُرَفٍ موزعة هي الأخرى على الجانبين، خمسة عن اليمين وخمسة عن الشمال، تتميز كلُّ الغُرَفِ بأن لها قِبَابًا، وبداخل كلِّ واحدةٍ منها يوجد موقدٌ صغيرٌ.

وقد بُنيت أقباسُ الرُواقِ بالخَجَرِ الأبيض والأحمر على نحو مُتَنَاقِبٍ، فكلُّ لَبْنَةٍ بيضاء تليها لَبْنَةٌ حمراء، وكلُّ لَبْنَةٍ حمراء تليها لَبْنَةٌ بيضاء، وهكذا.. أما الأعمدة فقد شُيّدت من الرخام وحجر الشَمَاقِي. (١٢٧)

\*\*\*

وقد تَعَرَّضَ هذا الأثر الرائع على مَرِّ الزمن إلى أضرارٍ وتلفياتٍ منذ أن قام "سِنَان" ببنائه؛ من جراء الحوادث والزلازل والحرائق، ففي عام (١٨٩٤م) وقع زلزالٌ ضخمٌ تعرَّضَتِ المدرسةُ على إثرِهِ مع بقية بنايات "مجمّع خَاصَكِي" إلى الضرر الشديد، لكن في أوائل عام (١٨٩٦م) تمَّ ترميمُها.

وبناء على تقرير المعاينة والفحص الصادر في الثاني من أيلول/سبتمبر (١٩١٤م)، فقد أُخرجَتِ المدرسة من الخدمة؛ نظرًا لحالتها التي كانت تستدعي الإصلاح والترميم، حيث نبتت الأعشاب على قِبَابِ المدرسة المباركة، وفي أواخر عام (١٩١٨م) أصبحت المدرسة تُستخدم كمطبخ من قِبَلِ الجنود، وفي الأعوام اللاحقة فقد تحولت المدرسة -لفترة من الزمن- إلى مأوى للمرضى النفسانيين، وبعد أن تمَّ إجراء عمليات الإصلاح والترميم من قِبَلِ المديرية العامة للأوقاف، في الفترة الممتدة بين عامي (١٩٦٧-١٩٦٩م) صارت المدرسة تُستخدم، ولفترة طويلة، كمركزٍ تعليميٍّ بإسطنبول، تابع لرئاسة الشؤون الدينية.

## لا يليق بالإنسان اللجوء إلى (الواسطة)

بناء على المصادر التاريخية فقد كانت مهنة التدريس في مدرسة "خَاصِكِي" خلال عصر القانوني، تُعادل مهنة التدريس في المدارس الكبرى الموجودة في تلك المرحلة، أو كان التدريس في مدرسة "خَاصِكِي" يُشكّل جسراً للوصول إليها<sup>(١٤٨)</sup>.

وَحَسَبَ ما ورد في الوثائق التاريخية، فإن "كِتَالِي زَاده" (*Kınalızâde*) علي شلبي"، الذي يُعَدّ من كبار علماء عصره، قد قام بالتدريس لمدة ثلاث سنوات في مدرسة "خَاصِكِي"،<sup>(١٤٩)</sup> وبعد أن نال "علي شلبي" الترقية بعد عمله في مدرسة "خَاصِكِي"، نجده قد انتقل إلى العمل في مدرسة "صَحْنِ ثَمَان" التابعة لجامع "الفتاح"، ثم ترقى للعمل بالتدريس

(١٤٨) كان يذكر في اللوائح التي تنظم عمل الأوقاف بشكل واضح الحالة العلمية والشخصية للمدرسين، ففي اللائحة التي تنظم عمل "وقف السلطنة خَاصِكِي" توجد تعبيرات مثل: "نشأ المدرس من أجل رفع شأن العلم والتعليم، ومن أجل تجميل واحترام العلماء الكبار بين أفراد الشعب"، بالإضافة إلى ما سبق، فيذكر أن المدرسين كان يتم اختيارهم من العلماء ومن بين أولئك المشهود لهم بالفضيلة والأدب بين الناس، ومن بين المعلوم عنهم بشيء العلم والدين من بين أمثالهم، وأيضاً من بين ذوي السُّمة والمكانة، ومن بين أوائل الناس في عصرهم، ومن أولئك الأشخاص المتفوقين وسط أساتذة عصرهم، ومن بين المتميزين وسط أقرانهم، وفي لائحة الوقف يُنشر بوضوح عن الشروط الواجب توافرها في المعلم:

"يجب أن يكون المدرس قادراً على تعليم الآخرين، وأن يكون لديه القدرة على التعامل مع المسائل العلمية الدقيقة والحساسة، وأن يكون قادراً على حل المسائل الدينية والفقهية وفق قواعد وأصول البحث، وإذا ذُكِرَ متوقفاً وقدره على النقد، ويتم اختياره من بين أقرانه، إن هذه الشروط التي كان يتم مراعاتها عند اختيار المدرسين تدل على مدى الدقة والاهتمام اللذين كان صاحب الوقف يُوليها في سبيل هذا الموضوع، وفي تاريخ الأوقاف تتضح أيضاً الأهمية المعطاة إلى هذا الأمر عندما نجد أن أعلى أجر كان يتم منحه في الوقف، كان يخصص للمُدرِّس، وكان هذا الأجر يصل إلى خمسين درهم في اليوم، لقد كان هذا الأجر يعطى في ذلك الوقت للأشخاص الذين يترهبون على أعلى درجات الإدارة في الدولة العثمانية، ويمكن أن يفهم على نحو جيد مقدار هذا المبلغ إذا أفزكنا أن أجر كبير المهندسين المعماريين "سِنَان" كان خمسة وخمسين درهماً في اليوم.

(١٤٩) إن "محمد علي عوني" في كتابه الذي يحمل اسم "أعلام الأخلاق الأتراك" والذي نشر عام (١٩٣٩م)، يذكر أنه لم يكتب حتى اليوم عمل يصل إلى درجة كتاب "الأخلاق السامية" الذي ألفه "كِتَالِي زَاده".

في مدرسة "السليمانية". وهكذا، ندرك أن مدرسة "خاصكي" كانت تُمثِّلُ محطةً مهمَّةً على طريق التعليم الكلاسيكي، في ذلك الوقت.

\*\*\*

ونعرضُ عليكم حكايةً لطيفةً ومسليَّةً وقعت بين كلٍّ من "كينالي زاده علي شلبي" وشيخ الإسلام الشهير "أبي السعود أفندي":

فنظرًا لسوء العلاقة بين "جيوي زاده" (*Çivizade*) وبين أستاذ "كينالي زاده" بالمفتي "أبي السعود أفندي"، وكونِ التعييناتِ تَتِمُّ بتصديقِ الأخير، فإن "كينالي زاده" لم يتمكَّنْ من العمل مُدَرِّسًا لفترةٍ طويلةٍ، ومن أجل ذلك فقد أصابه حزنٌ شديدٌ، وفي النهاية تَوَجَّهَ "علي شلبي" إلى شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي" آخذًا معه بعضَ الأعمال التي كَتَبَهَا، وعندما رآه "أبو السعود أفندي" بادَرَه بالسؤالِ عن سببِ الزيارة، فردَّ "علي شلبي" قائلاً:

"إن من يتقلَّدون الوظائفَ ويعملون بالتدريس، يُحَقِّقُونَ أهدافَهُم بكثرةِ تردُّدهم على أبوابِ كبارِ رجالِ الدولة، أمَّا نحن فقد أَرَدْنَا أَنْ نُحَقِّقَ رَغْبَتَنَا في العمل بالتدريس من خلالِ إثباتِ الكفاءةِ العلميَّةِ المطلوبة، فقمْتُ بترجمةِ أجزاءٍ من هذه المخطوطات -وأشار بيده إلى المخطوطات التي معه- إلى اللغَةِ التركيَّةِ، فإن كان ثَمَّةُ أبوابٍ أخرى يَجِبُ أَنْ نَطْرُقَهَا فَلْتُخَيِّرُونَا بِهَا إِذَا!".

قامَ الشيخ "أبو السعود أفندي" بإلقاءِ نظرةٍ على الأعمال التي كانت بِحُوزَةِ "علي شلبي"، ثم أَمَرَ بِتَعْيِينِهِ في الحال في وظيفَةِ مُدَرِّسٍ بمدرسة "حسام الدين" في مدينة "أدرنه"، لكن "أبا السعود أفندي" لم يَقْتَهُ أَنْ يُعَلِّمَ مَنْ كان جالسًا إلى جواره في ذلك الوقت درسًا لا يُنْسَى، فتوجَّهَ إليهم على الفورِ قائلاً:

"إن الإنسان العاقل والمنصف يَنَالُ ما يستحقه عن طريق إبراز ما لديه من مواهب وقدرات، أما أن يتوَدَّد إلى هذا وذاك، ويُقَدِّم الالتماسات من أجل أن يقضي حاجته، فهذا ليس من المروءة في شيء!" (١٥٠)

إن هذه الحادثة تُبَيِّن لنا بشكل جليّ طبيعةَ شخصيّة "كينالي زاده علي شلبي"، وقدراته العقلية على النقاش والجدال، وفي الوقت نفسه تشير إلى شجاعته العلمية وحكّته في النقاش.

\*\*\*

وإذا رجعنا إلى لائحة وقف السلطنة "خاصكي"، فإننا نجد أن عُرف المدرسة الدينية كانت مُعدَّة لأن يُقيم بها ستة عشر طالباً مجتهداً حسن الخلق لا يتخلّف عن دروس العلم إلا لعذر أو داع شرعي؛ ليُكونوا بذلك قُدوةً لغيرهم من الطلاب،<sup>(١٥١)</sup> كان الطلاب بعد انتهاء الدرس يقومون مع المدرس بقراءة سورة الإخلاص ثلاث مرّات والفاتحة مرّة واحدة، ثم يقومون بالصلاة والسلام على الرسول ﷺ، وبعدها يترحمون ويطلبون المغفرة لروح صاحبة الوقف "السلطنة خُزْم".<sup>(١٥٢)</sup>

(١٥٠) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(١٥١) لقد كان الطلبة الذين يتلقون العلوم العقلية والنقلية في المدارس العثمانية يشعرون نظاماً تعليمياً يكفل لهم الإقامة الكاملة. وفي هذا النظام التعليمي حلت ويمتدّى السهولة مسألة "اشتراك الطلبة في الإدارة" وهي المسألة التي لا تزال حتى الآن ماثراً نقاش وجدل في الجامعات. لقد كان الطلبة يختارون من بينهم من يمثلهم، حيث كان هؤلاء الطلبة الذين يتم اختيارهم يحملون اسم "المُميّز"، وكان هؤلاء المُميّدون -على اعتبار أنهم رؤساء الطلبة- يشرفون على الطلاب، وفي نفس الوقت كانوا يمثلون حلقة الوصل أو الوساطة من أجل حل المشاكل بين الطلاب وإدارة المدرسة، وكان المُميّد من هؤلاء المُميّدين يتلقى أجراً يومياً يبلغ ٥ دراهم. أما بقية الطلاب فقد كان الواحد منهم يتلقى في اليوم درهمين.

(١٥٢) مُوناخات كُوثوك أُوغلو، "مدارس إسطنبول التي بقيت حتى القرن العشرين"، أنقرة - ٢٠٠٠م، ص ٢٩٠-٢٩١.

دار "خَاصِكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سنان" المميّزة كان القيام بالأعمال الخيرية مجالاً مميّزًا وفعلًا أولّته النساء أهمية كبيرة في الدولة العليّة العثمانية، فنجد أن السيّدات من ذوات الثروة والقوّة والنفوذ في الدولة العثمانية كنّ يحولن نفوذهنّ هذا إلى واقع ملموس، بإنشاء المؤسسات الخيرية الكبيرة (الأوقاف)، والمبادرة إلى تقديم المساعدات والإعانات في إطار رغباتهنّ وتطلّعاتهنّ.

لقد أنفقت تلك السيّدات بسخاء حين تبرّغنَ بجزء كبير من ثروّاتهنّ ووهبنه لصالح المؤسسات الاجتماعيّة المختلفة، التي تعمل في ميادين شتى، مثل: الصحّة والتعليم وغيرهما، وقد اكتسبن شهرة كبيرة وسُمعة طيبة؛ بسبب إسهاماتهنّ في أعمال الخير، والرعاية، ومساعدة المحتاجين. وبحلول منتصف القرن السادس عشر -أي في الفترة التي عاشت فيها "السلطانة خُرَّم" - كانت قد تطوّرت مجالات بناء وتشيد الأوقاف الخيرية.

ف"السلطانة خُرَّم" أسهمت في الكثير من الأعمال الخيرية خلال فترة حياتها، وقد تركت لنا الكثير من الأوقاف، إلا أنها لم تنس أن يكون لها -أيضاً- عمل خاص يميّزها عن الآخرين، فقد قامت "السلطانة خُرَّم" بإضافة دار لإطعام المساكين، ألحقتها بـ "مجمّع خَاصِكِي"؛ لإطعام الأشخاص المحرومين والمحتاجين الذين لا يجدون الرعاية والعناية اللازمة.

\*\*\*

إن دارَ إطعام المساكين، تقعّ اليوم بين شوارع "جودت باشا" الممتدّة بمحاذاة شارع "خَاصِكِي"، ولهذه الدار ثلاثة أبواب؛ "الباب الرئيس" ويقع بجوار السيل، كما يُطلّ على شارع "خَاصِكِي"، وقد دُوّن على هذا الباب

الأثري بيتٌ من الشِّعْر مُحْيٍ شَطْرُهُ الْأَوَّلُ وَبَقِيَ الشَطْرُ الثَّانِي مَكْتُوبًا عَلَى نَحْوِ يُمَكِّنُ قِراءته بسهولة، وقد سُجِّلَ تَارِيخُ إِنْشَاءِ الدَّارِ بِحَسَابِ الْجُمْلِ، فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ الْمُدَوَّنِ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ فِي عَامِ (١٥٤٧هـ/١٥٤٠م)<sup>(١٥٣)</sup>، وَهَكَذَا تَمَّتْ إِضَافَةُ بِنَاءِ ثَالِثٍ إِلَى الْجَامِعِ وَالْمَدْرَسَةِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي حَوَاهَا "مَجْمَعٌ خَاصِكِي"، وَهُوَ دَارُ إِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ<sup>(١٥٤)</sup>.

لَقَدْ كَانَتْ دَارُ "خَاصِكِي" لِإِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ إِحْدَى رَوَاحِ "سِنَانِ" الْمُمَيَّزَةِ، بِحَيْثُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ هَذَا الْمَعْمَارِي الْقَدْ قَدْ اسْتَطَاعَ مِنْ خِلَالِ هَذَا الْأَثَرِ أَنْ يَخْطُوَ أَوَّلَى خَطَوَاتِهِ عَلَى سَلَمِ الْعَبْقَرِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَهَارَةَ الَّتِي أَظْهَرَهَا "سِنَانٌ" فِي هَذَا الْعَمَلِ تَفُوقُ فِي سِمَاتِهَا وَخَصَائِصِهَا الْمَعْمَارِيَّةِ بَاقِيَ بَنَائَاتِ الْمَجْمَعِ؛ حَيْثُ إِنَّ الطَّرِيقَةَ وَالْكِيفِيَّةَ الَّتِي قَامَ بِهَا "سِنَانٌ" بِبِنَاءِ الْقَبَابِ وَالْأَقْوَاسِ فِي هَذَا الْعَمَلِ كَانَتْ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالذِّقَّةِ الَّتِي تَصِيبُ مَنْ يَرَاهَا بِالذَّهْوَلِ.

إِنَّ هَذَا الْبِنَاءَ الْفَرِيدَ الَّذِي صَمَّمَهُ وَأَنْجَزَهُ "سِنَانٌ" بِيَدَيْهِ، قَدْ اسْتَطَاعَ مِنْ خِلَالِهِ أَنْ يَعْضُزَ أَمَامَ الْعَالَمِ قُوَّتَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ إِلَى جَانِبِ عَظَمَةِ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ.

### اثنان وثلاثون كيلو جرامًا من اللحم يوميًا

وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ نَجْدُ دَارِ إِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ أُحِيطَتْ بِرَوَاقِ ذِي ثَلَاثِ أَقْوَاسٍ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَخَمْسٍ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ، وَنَجْدُ أَنَّ هَذِهِ

(١٥٣) إِنَّ السَّيِّدَ طَافُكِيَّزَانَ " فِي عَمَلِهِ الَّذِي نَشَرَ عَامَ (١٩٧٢م) يَقِفُ بِإِصْرَارٍ عِنْدَ عَامِ (١٥٤٠م/١٩٤٧هـ). لَكِنَّا نَجِدُ فِي الْمَجْلَدِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ كِتَابِ "السُّلْطَانَةُ خُرْمٌ" الَّذِي طُبِعَ مِنْ قَبْلِ مُؤَسَّسَةِ (الْمَوْسُوعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، هَيْئَةِ الدِّيَانَةِ الْتُرْكِيَّةِ)، DLA عَامَ (١٩٩٧م) الْعِبَارَةَ التَّالِيَةَ: "مَكْتُوبٌ أَنَّ دَارَ إِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ قَدْ أُنْشِئَتْ مِنْ قَبْلِ "الْقَانُونِي" عَامَ (١٥٥٠م/١٩٥٧هـ)". كَذَلِكَ نَجِدُ الْجُمْلَةَ التَّالِيَةَ الَّتِي تَطَالَعْنَا فِي الْمَقَالَةِ الَّتِي تَحْمِلُ تَوْقِيعَ "دَوَّغَانَ قُوبَان" فِي الْمَجْلَدِ الرَّابِعِ مِنَ الْمَوْسُوعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، هَيْئَةِ الدِّيَانَةِ الْتُرْكِيَّةِ، إِسْطَنْبُول- ٢٠٠٣م: "بِنَاءٌ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْكِتَابَةِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى مَدْخَلِ دَارِ إِطْعَامِ الْمَحْتَاجِينَ قَدْ أُسِّسَ هَذَا الْبِنَاءُ مِنْ قَبْلِ "الْقَانُونِي" عَامَ (١٥٥٠م)".



دار إطعام المساكين "خَاصِکِی السلطانة خُرَم" في "خَاصِکِی/إسطنبول"



الأروقة مغطاة بقبابٍ مثبتةٍ على أعمدة ذات رؤوسٍ مربَّعةٍ، أما المطبخ الذي يقع شمالَ صحن الدار فيتكوَّن من مساحةٍ مغطاةٍ بقبتين كبيرتين، وفي الخلف منها يوجد قسمٌ لإعداد الطعام ذو أربع قبابٍ صغيرةٍ ومزودٍ بموقد، وإلى جوارٍ ما سبق نجدُ رَدَهَتَيْنِ مستطيلتي الشكلٍ ولكلٍ منهما قُبَّتَانِ، وتفتحان على الشارع الموجود في الناحية الغربية من دهاليز ذات أقبية نصف دائرية. (١٥٥)

\*\*\*

كان من المؤكد أن هذه المؤسسة الخيرية وهذه الدار المخصصة لإطعام المساكين في حاجةٍ إلى إمكانات ضخمة؛ لضمان استمرار القيام بأعمالها وتقديم الخدمات التي أنشئت من أجلها، وبناءً على اللائحة الخاصة بأوقاف السلطنة "خاصكي" والموجودة في أرشيف متحف قصر "طوب قابي"، فإن المبالغ المالية المخصصة لـ "دار خاصكي لإطعام المساكين" كانت تقدر حوالي مائة وعشرين ألف آفجه،<sup>(١٥٦)</sup> وفي الصفحة الأولى من تلك اللائحة نجد أنه من أجل استمرار الخدمة وضمان عدم انقطاعها، فقد خُصص لهذه الدار بشكل مُسبقٍ ولمدة عامٍ مبالغ مالية احتياطية، بحيث وصل الاحتياطي من تلك المبالغ المالية إلى قرابة ثلاثمائة وتسعة وثمانين ألفاً، وثمانمائة وخمسين آفجه، وقد كانت تُستخدم في تلك الوثيقة عبارة: "المبلغ المتبقي احتياطي لنفقات الدار العامة لإطعام المساكين"<sup>(١٥٧)</sup>.

\*\*\*

ونلاحظ في لائحة وقف السلطنة "خاصكي" أن هناك اهتماماً بالغاً بجوانب عديدة؛ كجودة الطعام الذي يتم طهوه بدار إطعام المساكين،

(١٥٥) تروبان، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٥٦) آفجه: وهي عملة عثمانية من الفضة من عيار ٨٥ ويبلغ وزنها ٠,٦٤١ جرام

(١٥٧) طاشكيران، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.



وكيفية مراقبة المواد اللازمة لتجهيز المأكولات، بالإضافة إلى قواعد محدّدة لتوزيع الطعام، وكان من الشروط الواجب توافرها في المواد الأساسية التي تُعدّ منها الأطعمة أن تكون من أجود الأنواع، وأن تُستخدم البهارات، مثل: الكمّون والفلفل والبصل والنعناع والزعفران؛ لتحسين طعم ونكهة المأكولات.

ووفقاً لما وردّ في تلك اللائحة، فإنه كان يتمّ إعداد وجبتين كل يوم، وكان يتمّ صرف خمسين أوقية من اللحم (حوالي أربعة وستين كيلو جراماً) كل يومين، -باستثناء أيام المناسبات الخاصة والأعياد- هذا، وإذا أمعنا النظر في تلك الإمكانيات التي كانت مخصّصة للحم، فإننا سنذكر بشكل جليّ مدى الكرم وسعة اليد تجاه الفقراء والمُعذّمين.

وكانت الأطعمة الرئيسيّة في دار إطعام المساكين هي المأكولات التي تُعدّ من القمح والأرز، أما في الأيام الخاصّة فقد كان على رأس المأكولات التي يتمّ إعدادها (الأرز باللحم البقري)، وبوسعنا أن نذكر أن هذه الوجبة كان يدخل في إعدادها الأرز والزُبد والجِمْص والبصل، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أصناف أخرى تُقدّم في الوقف، مثل: "زُرْبَا (zirba) (١٥٨)، و"أكشي آش (Ekşi Aş) (١٥٩)، و"أرز زُرْدَا (zerda) (١٦٠)، و"عاشوراء".

وكانت الوجبات المطبوخة تحتوي على مكوّنات غنيّة بالبروتين والدهون والكربوهيدرات والفيتامينات، كما كان يتمّ تحديد مقدار المواد المستخدمة من أجل ضمان أن يكون مذاق الطعام المُعدّ على خير وجه،

(١٥٨) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود واللوز والتين والمشمش والبرقوق والعسل والزعفران.

(١٥٩) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود والعنب الأحمر والتين والمشمش والبرقوق والنعناع وفاكهة مجففة على هيئة ورق.

(١٦٠) صنف من الحلوى يصنع من الأرز والزعفران والعسل والزبدة.

كما أُخِذَ في الاعتبار تَكْلِفَةُ الحطب الذي سيستعملُ في طهي الطعام، وإضافتهُ إلى إجماليِّ الحساب<sup>(١٦١)</sup>.

\*\*\*

كما ذَكَرَ كذلك في لائحةِ الوقفِ أوصافُ الأشخاص الذين سيستفيدون من هذه المؤسسة الخيرية.

وتمَّ السماحُ للموظفين الذين يعملون في هذه الدار، وكذلك للموظفين الذين يعملون في المشفى، والمدرسة الدينية، والجامع إلى جانب الطلبة الذين يدرسون في المدرسة أن يتناولوا الوجبات التي كانت تُجهَّز في الدار، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يتمُّ تقديمُ الطعام باستمرارٍ لأربعةٍ وعشرين فقيرًا ومحتاجًا طوال حياتهم، وفي حال موت أحد هؤلاء الأشخاص، فقد كان يتمُّ تحديدُ الأشخاص المحتاجين الجُدُد من خلال البحث الدقيق، فقد كانت هناك قواعد صارمة لا تسمح لغير المُستحقِّين بأن يتمَّ وضعُ أسمائهم في لائحة مَنْ له حقُّ الاستفادة من خدمات الوقف.

أما الأُطعمَةُ التي كانت تأتي من المطبخ وتزيدُ عن حاجةِ الوقف، فقد كان يتمُّ توزيعُها على الفقراء والمحتاجين، بشرط أن يتمَّ أكلُها في القاعة المُخصَّصة لتناول الطعام داخل هذا الوقف.

### التعليمُ الدينيُّ في مدارس الصِّبيان

كانت المدارسُ الدينيةُ، ومدارسُ الصبيان<sup>(١٦٢)</sup> - فيما قبل مرحلة التعليم الأساسية - يمثلان أهمَّ عنصرٍ في النظام التعليمي والتربوي في

(١٦١) طائفيزان، المصدر السابق، ص ٤٩.

(١٦٢) الصبيان كلمة عربية الأصل وهي جمع لكلمة "صبي"، وتعني الولد الذكر الصغير، أما مدرسة الصبيان فهي مدرسة أنشئت للطلاب الذكور الصغار، إلا أنها برغم تسميتها باسم الأولاد الذكور أي الصبيان فقد كانت تدرس فيها البنات الصغيرات أيضًا، وكانت مدارس الأولاد والبنات منفصلة عن بعضها في الأغلب الأعم في الدولة العثمانية، أما تلك المدارس المختلطة فقد كان الأولاد والبنات يجلس كل منهم في صفوف خاصة به في الفصل الواحد.

الدولة العثمانية، ولم تكن الدولة هي من تُنشئ هذه المؤسسات التعليمية، بل كان يُشيدُها العلماء والأغنياء وميسورو الحال من أبناء الشعب وكبار رجال الدولة، مثل: السلطان، والصدر الأعظم، والوزير، والسلطنة<sup>(١٦٣)</sup>.

وكان الأشخاص الذين يقومون ببناء مدرسة للصبيان يُخصِّصون أيضًا موارد مائية كافية؛ للوفاء باحتياجات المدرسة، وتوفير الدعم اللازم لكي تتمكن تلك المؤسسة التعليمية من القيام بنشاطها بشكل مستمر، ولهذا فكان يتم تخصيص وقف ليكون مصدرًا ماليًا متجددًا يكفي لتغطية كافة المصاريف المتعلقة بالمؤسسة، مثل: المبالغ المالية اللازمة للاعتناء بالمدرسة بعد إنشائها، وتوفير الإصلاحات التي قد تتطلبها، هذا إلى جانب مرتبات الموظفين العاملين فيها، والمصاريف اللازمة لإطعام وإيواء الطلبة الذين يتلقون العلم في المدرسة،<sup>(١٦٤)</sup> وهكذا، كان يتم الإنفاق على مؤسسات التربية والتعليم من غير اللجوء إلى أية أموال من خزانة الدولة<sup>(١٦٥)</sup>.

وفي وقف "السلطنة خُرم"، كان يُشترط أن يكون التعليم الديني في المدرسة موجهاً فقط للأطفال المسلمين، بالإضافة إلى تعليم قواعد اللغة كدروس تكميلية، وكانت إدارة المدرسة تشترط في المعلم ومن معه

(١٦٣) بناء على الدراسة التي قام بها "المعلم جودت" عام (١٩١٩م)، فقد كان في إسطنبول مائة وثلاثة وثمانون وقفًا وتسعة وثلاثون مدرسة تم إنشاؤها من قبل سلطات وسيدات القصر. وقد أُنشئت أول مدرسة للصبيان من قبل السلطان "محمد الفاتح"، وذلك ضمن مجمع الفاتح حيث أخذت اسم "دار التعليم". (إسماعيل نزه، مدارس الصبيان، إسطنبول - ٢٠٠٥، ص ١٦).

(١٦٤) نجد أن بعض المدارس في الأوقاف كانت تقدم الطعام للطلاب والعاملين بها، إلا أننا نجد بعض المدارس الأخرى تصرف لكل طالب مبلغًا ماليًا كل يوم وذلك في مقابل أن يقوم كل واحد من الطلاب بقراءة جزء من القرآن، (فخر الدين بوزداغ (Bozdağ)، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من إصدارات ندوة السلطان "أيوب"، إسطنبول، ٢٠٠٤، ص ١٢٧).

(١٦٥) فخر الدين بوزداغ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من إصدارات ندوة السلطان "أيوب"، إسطنبول، ٢٠٠٤، ص ١٢٤.

من مساعديه، صفاتٍ يجبُ توافرها فيهما، ومن بين هذه الصفات الواجب توافرها: الأخلاقُ القويمةُ والصفاتُ الحميدةُ، وأن يكون صديقاً مُقرباً من الطلاب، كما كان من ضمن الصفاتِ المنتظرِ توافرها في المعلم، أن يكون في تعامله مع الطلاب كالأب الشفيق، كما اشترط في المعلم أن يكون مجيداً لإجادة تامّة لأحكام<sup>(١٦٦)</sup> القرآن الكريم.<sup>(١٦٧)</sup>

### حديقةُ ألعابٍ للأطفال

كانت مدرسة "خاصكي" للصبيان تتكوّن من قسمين، وتقع بين المدرسة الدينيّة والباب الرئيس لدارِ إطعام المساكين، وكانت هذه المدرسة في شكلها المعماري تُعبّر عن البساطة والجمال، الذي يتلاءم مع شخصيّة "سنان".

وتتخذُ المدرسة شكلَ وحدةٍ معماريّةٍ مربّعة الشكل تتكوّن من قسمين، القسم الأول منهما له جانبان يُضَعَدُ إليه بسُلّم ذي أربع درجات، وطرفا هذا القسم الأول مفتوحان تُجَمِّلُهُما القناطرُ والأروقة ذات الأعمدة الرخاميّة الأثريّة، أما القسم الثاني من المدرسة فعبارة عن قاعةٍ مغلقةٍ للتعليم، كلا القسمين في المدرسة له سقفٌ مُستوٍ، بحيث إنّ كلّ المساحات مغطاة بسقفٍ مثبت، أما الساحة ذات الحوض التي في مواجهة البناء، فعلى الأرجح أنها كانت تُستخدَم كحديقة ألعابٍ للأطفال.

ولم يتسنى لأحدٍ حتى الآن معرفة تاريخ إنشاء هذه المدرسة على سبيل الجزم والقطع؛ حيث لم يُدوّن عليها تاريخُ الإنشاء، لكن الأعمال

(١٦٦) كان تعليم الدين الإسلامي هو الهدف الرئيس والوظيفة الأساسية المنوطة بمهنة التدريس في مدارس الصبيان، وإذا كانت الغاية الرئيسة من تأسيس هذه المدارس -في الغالب- هو رعاية يتامي والفقراء فقد كانت هذه المدارس كذلك تظهر صدق الروح والمشارع التي توليها الطبقة الدنيا من المجتمع للتعليم الديني. أما أولئك الذين كانت ظروفهم الاقتصادية جيدة فقد كانوا يرسلون أبنائهم ليتلقوا شكل من أشكال "التعليم الخاص".

(١٦٧) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ١٢٤.

المزخرفة برسم زهرة "اللينوفر" (*linifer*) التي نراها موجودة على بناء المدرسة تشير إلى أن كلاهما قد تم الانتهاء منه في وقت واحد، أي في عام (١٥٣٩م).<sup>(١٦٨)</sup>

إن مدرسة "خاصكي" للصبيان تمثل لنا نمطاً معمارياً مختلفاً، من خلال شكلها الفريد والمميز عن باقي المباني ذات القباب.

### سبيل الماء

في الطرف الشمالي من شارع "خاصكي" نجد سبيلاً للماء من الحجر المقطوع، الذي يعود تاريخ إنشائه إلى القرن السادس عشر من الميلاد، حيث نراه يقع تجاه الأبواب الثلاثة التي تمثل مدخل المجمّع، متخذاً مكانه بين أبواب مدرسة الصبيان ودار إطعام المساكين.

وفوق هذا السبيل توجد قطعة من الرخام كُتب عليها ما يشير إلى أنه قد تم ترميمه في عام (١٧٩٩م/١١٨٠هـ)، ويأخذ هذا السبيل شكل قوسٍ حادٍ حجريٍ منحوتٍ داخل إطارٍ مربعٍ على النمط الكلاسيكي، وعلى الحجر ذي النقوش والزخارف الخاص بهذا السبيل نرى كتابةً بخطٍ مقوَّسٍ مستديرٍ، وقد حُمِلت هذه الكتابة بواسطة عمودين رخامين، ومع الأسف، فقد توقَّف نزول المياه من السبيل بسبب كثرة وتكرار رصف الطريق إلى أن أصبح الطريق أعلى من مصدر نزول المياه، مما اضطرَّ إلى إيقاف هذا السبيل عن الخدمة حينما انخفض جزء منه عن مستوى الطريق وذلك في عام (١٩٩٧م).<sup>(١٦٩)</sup>

\*\*\*

(١٦٨) سنفا دوغان، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٦٩) سنفا دوغان، المصدر السابق، ص ٣٧١.



سبيل "خاصكي السلطنة خرم"



وهذا هو البيت الثاني من المقطوعة الموجودة أعلى الكتابة:

"ماء السبيل يفيض كماء زمزم

ومن يد الخضر شربت كل الكائنات شرباً طهوراً" (١٧٠).

\*\*\*

مشفى "خاصكي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر

إن مشفى "خاصكي" الذي تم بناؤه في عام (١٥٥٠م/٩٥٧هـ) يُعتبر البناء الأخير الذي تم إنشاؤه ضمن أبنية "مجمع خاصكي"، وهو يمثل مستشفى "خاصكي" الموجود اليوم.

وفي الأثر الذي تركه لنا "أيوان صَرَاي" (Ayvansarayi) والمسمى "حديقة الجوامع" نجده يشير بحساب الجُمْل إلى تاريخ إنشاء الوقف الرئيس الذي يعود إلى "السلطانة خُرَّم"، حيث يذكر لنا أن تاريخ إنشاء هذا الوقف هو عام (١٥٥١م)، وهو ما يشير بشكل واضح إلى تاريخ إنشاء المشفى.

وفي الثالث عشر من حزيران/يونيو من العام نفسه، تم وضع حجر الأساس لبناء جامع "السليمانية" الذي يعتبر من أعظم وأروع الجوامع، وفي كتاب "تذكرة البنيان" يذكر لنا المعمارى "سِنَان" هذه الجملة المتعلقة بذلك الأثر الفريد:

"تم إرساء أساس هذا الجامع المنيف في وقت شريف  
وساعة سعيدة"

\*\*\*

يقع مشفى "خَاصِكِي" في الجهة الجنوبيّة المقابلة للمدرسة الدينيّة ومدرسة الصبيان، وبمحاذاة دارٍ لإطعام المساكين الواقعة في جهة الشرق. إن هذا المشفى الذي ظلَّ يُقدِّم خدماته في المبنى نفسه لمدة ثلاثمائة وأربعة وثلاثين عامًا، يُعتبر المشفى الوحيد الذي يعودُ إلى القرن السادس عشر، ولا يزالُ يعملُ حتى الآن في إسطنبول، لكنَّ الجزء الأكبر من هذا المشفى -الذي ربّما يكونُ قد أُنشئ قبلَ أو بعدَ هذه البناية- قد انهدم ولم يتبقَّ لنا منه أي أثر، أما الأقسام المتبقية حتى الآن من مشفى "خَاصِكِي" فقد استُخدمت ولا تزالُ تُستخدمُ لأغراضٍ مختلفةٍ أخرى. (١٧١)

لقد صمَّم المعمارِيُّ "سِنَان" هذا المشفى الذي قُدِّرَ له أن يصمَّدَ حتى عصرنا الحاليّ، على طرازٍ معماريّ مختلفٍ عن تلك الطُرُز التي كانت تُصمَّم على أساسها المشافي الفارسيّة والسلجوقيّة والعثمانيّة القديمة، ونجح في أن يُشيدَ مشفى يضم ثمانين سريرًا على مساحةٍ صغيرة.

### فناء المشفى ذو الحوض

يتميّز المشفى بغيرفه ذات القَبَاب التي تقع في محيطٍ خمسة جوانب من فناء المشفى أمّا الأماكن الواقعة في الشرق والغرب والجنوب من الفناء الثماني الشكل، فنجدها مشيدة من الحجر المقطع والمنحوت، وتأخذ شكل صَفَيْنِ مستديرين بالتناسق التام فيما بين بعضهما البعض وتعلوهما قُبَّتَيْنِ مُزدوجتين .

(١٧١) لم يتبق من مشفى "الفتاح" -كما يخرنا "منافينوس" الذي عاش في القرن السادس عشر- سوى حائط صغير متهدم من إجمالي خمسة وعشرين قبة، وقد أُنشئ بعد ذلك بساتون العديد من المنازل نُحِّلَ هذا المشفى الذي كان الأول في إسطنبول، أما المشفى الذي أنشاه السلطان "يائزید الثاني" فلم يعد معلومًا مكان إنشائه، ولكن المصادر التاريخية تتفق على أن هذا المشفى كان يوجد داخل نطاق مجمع "يائزید".



أما في الجنوب الشرقي والجنوب الغربي من المشفى، فنجد أن هناك وحدات كبيرة مقوَّسة ومقنطرة ومنفتحة على الفناء، وفوق كلِّ جهة من هاتين الجهتين -الجنوب الشرقي والجنوب الغربي- قُبَّة كبيرة وضخمة، كما نجد هناك غرفتين مستقلَّتين تقعان بين المشفى ودار إطعام المساكين الملحقة بالقسم الخلفي، ويُعتَقَد أنَّ هاتين الغرفتين كانتا تُستخدَمان من أجل تجهيز وإعداد الأدوية<sup>(١٧٢)</sup>.

إذا جئنا إلى الحوض الذي يقع في منتصفِ الفناء الأساسي للمشفى، فإننا نجد أنه قد صُمِّم بحيث يأخذ شكله الخارجي منظرَ شجرة تحيطُ بها مجموعة من الزهور، أما اليوم فإننا نجد أن أرضية الحوض قد صارت مغطاة بالرخام المتنوع والمختلف الأشكال.

وليس من المعلوم على وجه اليقين، ما إذا كان الشكل الأصلي للمبنى قد تعرَّض -خلال الثلاثمائة وعشرين عامًا التي سبقت عام (١٨٧٠م)- إلى تغييرات طرأت عليه أم لا؛ حيث إنه ليس متاحًا لدينا اليوم الرسوم الهندسيَّة أو المعلومات المتعلقة بالمشروع، سواء أكانت تلك المعلومات متعلِّقة بتشييد البناء أم بعمليات الإصلاح والترميم؛ لذلك فلسنا على علم يقيني بحجم التغييرات أو الأضرار التي لحقت ذلك الأثر العظيم الذي خلَّده لنا المعمارِيُّ "سِنَان".

### الكلمةُ الفُطَّةُ توجُّع المريض

لقد أعلنَ بتاريخ (١٥٥١م/٩٥٨هـ) عن الصفات التي يجب أن تتوافر في الأطباء الذين سيتولَّون وظائفهم في أقسام المشفى التابع لوقف "السلطنة خُرْم"، وها هو ملخَّص تلك الصفات:

الأطباء الذين سيعملون في المشفى يجب أن يكونوا على علم ودراية بقوانين الطب والحكمة، وأن يكون لديهم إحاطة بتفاصيل كل هذه المسائل، كما يجب أن يكون الطبيب متخصصاً في مجاله، وليس طبيباً عاماً، وأن يكون لديه سابق خبرة في تخصصه، وأن يكون قد أمضى فترة طويلة يمارس فيها الجانب التطبيقي في مجال تخصصه، ويتم اختيار هؤلاء الأطباء من بين الأشخاص الذين قضوا فترة زمنية أطول في الممارسة والتطبيق.

لقد كان يُشترط في كل واحد من هؤلاء الأطباء الذين سيعملون في المشفى أن يكون من الذين يقومون بعملهم على خير وجه، ومن الذين يُشهد لهم بحسن السير والسلوك، وسلامة القلب، وكرم الأخلاق، وحُسن السجية، والرحمة، ولين القول، وحلاوة اللسان، ولطافة المعشر، وبشاشة الوجه، ورقة الطبع، ويرجو الخير لجميع الناس؛ القريب منهم والبعيد، كان لزاماً على هؤلاء الأطباء أن يتعاملوا مع المرضى بمتنهي الرحمة والشفقة، كما يتعامل الصديق مع صديقه المقرب فيرعاه، ولا يعامله بصورة فظة أو غليظة على الإطلاق<sup>(١٧٣)</sup>.

لقد كان لزاماً على الطبيب في ذلك المشفى ألا ينطق بأية كلمة سيئة أو منفرة ولو نادراً، وذلك لأن الكلمة الفظة تكون أحياناً بالنسبة لبعض المرضى أكثر إيلاماً من أشد الأوجاع، وقد وصل الأمر إلى درجة حتى إنه ربما كنا نجد الطبيب من هؤلاء يتحرى في كلامه مع المريض اللطف العبارات، ويستخدم عند سؤال المريض أكثر الطرق ليئناً وشفقةً، وهذا لأن الكلمات الرقيقة التي توجّه للمريض إذا ما كانت ستقدر بالمال فستكون

بالنسبة لهذا المريض أغلى قيمةً من جثة الكوثر وأحلى طعمًا من الزلال والسلسيل، فالمريضُ في النهاية محتاجٌ بشدةٍ إلى الكلمة الطيبة. (١٧٤)

إن الطبيب الناجح يَفِرْدُ أجنحةَ الرأفةِ والشفقةِ على المرضى وَيَبْسُطُ لهم مظلةَ العنايةِ والرعاية.

كان كلُّ واحدٍ من الأطباءِ يأتي المشفى صباحًا ويأشُرُ عمله، فيطْلُعُ على أحوالِ الأشخاصِ المرضى ذوي البلايا والعلل، ويعاينُ بنفسه أمراضهم وآلامهم، فيقيسُ نبضهم ويلاحظُ مستوى الإدرارِ لديهم، ويُدَقِّقُ في الأعراضِ المعهودةِ للمرض، كان الطبيبُ يسألُ عن كلِّ الأمورِ المتعلقةِ بالمريضِ سواءِ الصغيرةِ أو الكبيرةِ ولا يهملُ حتى أدقَّ الأشياءِ الخاصةِ به، ثم بعد ذلك يداوي كلَّ واحدٍ من المرضى معطيًا له أفضلَ العلاجاتِ وإذا ما كانت حالةُ المريضِ تتطلبُ أن يتكرَّرَ قدومه إلى المشفى فإن الطبيبَ كان يسارعُ في الحالِ ودونَ أيِّ تقاعسٍ للقيام بما عليه من واجبٍ، ولقد كان الأطباءُ ملتزمينَ وبشكلٍ كاملٍ برعايةِ هذه الشروطِ وعدمِ إخلالِ أو إهمالِ أيِّ منها.

إن هذه الصفاتِ الروحيةِ والعمليةِ والتي كان مطلوبًا توافرها في الأطباءِ العاملونَ بمشفى الوقفِ نجدها اليومَ محلَّ طلبٍ ومناطٍ أولويةٍ قصوى بالنسبةِ لباقي الصفاتِ المطلوبِ توافرها في الوقتِ الحاليِّ عندِ الأطباءِ، وفي اللاتحةِ التي تُنظَّمُ عملَ الوقفِ يُذكرُ أنه من الضروريِّ أن يكونَ الأطباءُ العاملونَ بالمشفى على علمٍ ودرايةٍ بالمسائلِ الطبيةِ والعلميةِ، كذلك فقد كانت تُراقَبُ وتُلاحظُ أيضًا أدقُّ تصرفاتهم تجاهِ المرضى وبشكلٍ كانت تُراعى فيه هذه الناحيةُ إلى أقصى درجة.

وإذا نظرنا إلى الموصفات التي كان من المطلوب توافرها في أطباء مشفى الوقف فإننا نجد أنها تعكس فكرًا متطورًا للغاية ينطوي على أفكار أكثر تقدمية من قسَم الحكيم "هيبوقراطيس" <sup>(١٧٥)</sup> الذي يُعدُّ بمثابة "قانون أخلاقي" في عالم الطب المعاصر.

فمثلًا لا نجد في "قسَم هيبوقراطيس" أي ذكر للتأثير القوي الذي تُحدثه الكلمة الطيبة واللغة اللطيفة على المرضى، كما لا نجد ذكرًا على الإطلاق لضرورة أن يظهر الطبيب للمرضى الرأفة والاهتمام الشخصي، إننا لا نجد من بين كلمات "قسَم هيبوقراطيس" ذكرًا واضحًا وصريحًا للصفات الواجب توافرها لدى الطبيب.

### العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى

من بين الأطباء الذين كانوا يعملون في مشفى "خاصكي" الذي كان يوظف ما يقارب الثلاثين شخصًا نجد أن كبير الأطباء كان يبلغ أجره اليومي ثلاثين درهماً، أما الطبيب الثاني فقد كان أجره خمسة عشر درهماً، أما الطبيب المختص بالعيون -واللذان يكونان على درجة عالية من التمكن في تخصصيهما ويتميزان بمهارة اليد والدقة في وصف العلاج إلى جانب البراعة في تشخيص المرض وتقييم الحالة المرضية دون الوقوع في أخطاء- فقد كان الواحد منهما يتقاضى أجرًا يوميًا يبلغ خمسة دراهم، في حين أن الباقيين من نفس تخصصيهما كانوا يتقاضون ثلاثة دراهم يوميًا، كذلك فقد كان بالمشفى اثنان من الجراحين الماهرين في مجالهم، والقادرين على مداواة كل أنواع الجروح، والتعامل معها بشكل إسعافي،

(١٧٥) "هيبوقراطيس" (٤٦٠ ق.م - ٣٧٠ ق.م). ولد هذا الطبيب اليوناني الذي يعرف بـ "أبو الطب" في (استانكوى)، وبناء على هذا الطبيب فقد كانت أولى مبادئ الطب هي القاعدة التي تقول (أولاً: لا توقع الضرر) أو بمعنى آخر الوفاة خير من العلاج، وعندما يبدأ الأطباء الشبان حياتهم العملية فإنهم يقسمون "قسَم هيبوقراطيس" المعروف.

حيث كان الواحد منهم يتقاضى خمسة دراهم أمّا الباقيون من نفس تخصصهم فقد كانوا يتقاضون ثلاثة دراهم، وكان هناك أيضًا صيدليان يمتنعان بالمهارة في إعداد وتحضير الأدوية والأشربة، حيث كان كلُّ منهما يتقاضى ثلاثة دراهم، وإلى جانب الأطباء فقد تمَّ تعيين أربعة من الممرّضين لكي يقوموا على خدمة المرضى في المشفى، وكان كلُّ واحدٍ من هؤلاء الممرّضين مسؤولاً عن رعاية أمور المرضى، والقيام بما يتطلبه ذلك من الإسراع في قضاء حوائجهم ورعاية أمورهم وتلبية طلباتهم بأسرع وقت، بحيث لم يكن يقصر أيُّ واحدٍ من هؤلاء الممرّضين في المكوث إلى جانب المرضى، أو تلبية ما يحتاجونه بأي وقت، وفي النهار لا نجدهم يتأخرون عن القيام بواجباتهم المتعلقة بالمرضى كما لا نراهم يُبدون أي تراخ أو تقاعس في أداء هذه الواجبات، وفي الليل فقد كان كلُّ اثنين من هؤلاء الممرّضين الأربعة يتابعون الخدمة بشكل متناوب، وكانت أجرتهم اليومية تُقدَّر بثلاثة دراهم. (١٧٦)

\*\*\*

لقد أمرت "السلطنة خُرْم" بأن يُصرف كلُّ يوم مبلغ مائة وخمسين درهم يُخصّص من أجل العلاج والشراب والطعام والمستحضرات العلاجية وما شابهها، حيث أنّ كلَّ هذه الأشياء تُوزَّع حسب احتياجات المرضى المتواجدين في المشفى.

وكان النظام القائم في المشفى ألا تُعطى الأدوية إلا للقاطنين في المشفى والمقيمين فيها للعلاج، لكن هذا النظام كان يُستثنى منه كلُّ يوم اثنين وخميس من كلّ أسبوع، فقد كان يستطيع الأطباء -في يومي الإثنين والخميس- أن يعطوا هذه الأدوية والمستحضرات العلاجية إلى

الأشخاص الوافدين من خارج المشفى، وكان يُشترط عند توزيع هذه الأدوية أن توزعَ على الفقراء بغرضِ التداوي وليس على من يرغبُ في الحصولِ عليها لبيعها، وبناءً عليه فإن الطبيب يقرّر الأمر وفقاً لما يمليه عليه ضميره. (١٧٧)

### كان مشفى الوقف مركزاً علاجياً

كان الجزء الخامس من اللائحة التي تُنظم عمل الوقف والذي يحمل تاريخ (١٥٥١/هـ ١٥٥١م) هو الجزء المتعلق بالمشفى، فهذا الجزء يختص بما يحدّد مهمة المشفى:

"إن المشفى يعالجُ كل أنواع الأمراض، والوقف قد خُصص لعلاج جميع حالات المرض والعلل دون استثناء".

ويفهم من هذه العبارات أن المشفى لم تكن مؤسسة مقتصرة على علاج المجانين فقط، ولكنها كانت مؤسسة عامّة وشاملة علاج جميع المرضى، ومفتوحة على اتساعها لكل الحالات المرضية، وإذا لم يكن مشفى الوقف على هذا النحو -من الشمول في العلاج- فلا داعي إذاً لذكر عبارة "كل أنواع الأمراض"، فهذه الجملة الصغيرة والمختصرة تُمثّل في الوقت نفسه جواباً على كثير من العبارات الخاطئة غير الدقيقة التي أُثيرت حول المشفى. (١٧٨)

فعلى الرغم من أن هذا المشفى كان نبعا للشفقة والرحمة، واعتباراً من تاريخ تأسيسه لم تكن به أي تفرقة في المعاملة حيث كان على الدوام فاتحاً ذراعيه ومستقبلاً لكل صنف المرضى، كذلك نجد أن هذا المشفى كان يعمل بكل طاقته على مداواة آلامهم، إلا أنه مع الأسف الشديد

(١٧٧) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ١٣٤.

(١٧٨) طاشكيزان، المصدر السابق، ص ٤٥.

أصبحَ فيما بعدُ مجردَ مكانٍ لِمَن لا يجدُ مأوىً أو سكناً، فصار مكاناً للعجزة وملجأ للنساء السجيناتِ أو النساء اللاتي لا يجدنَ بيتاً وملجأً، وأصبحت هذه المؤسسة تُؤوي كلَّ هؤلاء الأصنافِ من البشرِ وتقدِّمُ لهم ما يحتاجونه من علاجٍ.

\*\*\*

لقد تعرض "مجمع خاصكي" الذي يُسمَّى وقف "السلطانة خُرُم" لعملية إصلاح وتجديد في عام (١٧٤٨م)، وفي عام (١٨٤٣م) كانت هناك مراسلاتٌ توصي بضرورة إجراء عملية ترميم جديدة وإصلاحاتٍ، وحتى عام (١٨٦٩م) كانت المستشفى تابعة لإدارة الأوقاف، ثم تحول بعد هذا العام ليكون مخصصاً تحت تصرف مديرية الشرطة، وظل يُستخدم "سجننا نسايتاً" إلى أن حوّل إلى مستشفى خاص بالنساء لاحقاً<sup>(١٧٩)</sup>.

ظل مشفى الوقف بعد ذلك أحد عشر عاماً تابعاً لإدارة مديرية الشرطة، وكان يتم مداواة المريضات هناك من قِبل أطباء الشرطة، وأحياناً كان يتم فتح قسم العيادات من أجل المريضات اللاتي يفذن من الخارج، والخلاصة أن مشفى الوقف أصبح بعيداً كلَّ البعد عن مهمته الأصلية التي تم تحديدها في اللائحة التي تُنظِّم عمل الوقف.

وفي آذار/مارس من عام (١٨٨٠م) تم نقل إدارة مشفى الوقف وعُهدَ بها إلى البلدية، كما تم نقل النساء المريضات والمحكوم عليهنَّ إلى مشفى النساء الجديد الذي أصبح مكانه في منطقة "السلطان أحمد".

وفي هذا التاريخ وبسبب ضيق المكان والحالة المتردية التي وصل إليها مشفى الوقف، فقد تمَّ الإعداد لتأسيس مشفى جديد، ولذلك فقد

(١٧٩) في ذلك الوقت كانت هذه المستشفى تعرف بين الناس باسم (زندان خاصكي).

أُمِمْتُ عِدَّةُ بَنَائِيَّ مجاورةً للمشفى وَخُصِّصَتْ لَتَكُونُ جزءًا منه، وفي عام (١٨٨٥م) قامت البلدية بِشراءِ قِصرٍ "مورالي" (Morali) علي شفيق بك" وتَمَّ ضَمُّهُ هو الآخرُ إلى المشفى، وبهذا الشكل فقد ارتفعتِ الطاقةُ الاستيعابيةُ لمشفى الوقفِ لتصلَ إلى مائة سريرٍ، وفيما بعد فقد انضمَّ أيضًا إلى مساحةِ المشفى قِصرُ "صالح باشا".<sup>(١٨١)</sup>

### خمسَةٌ وثلاثون عامًا في إدارةِ الشؤونِ الدينيةِ

تَمَّ في عام (١٨٨٤م) افتتاحُ المشفى الجديدِ، وبعد أن تَمَّ الانتهاءُ من التعديلاتِ التي بدأت في عام (١٨٨٣م) جرى البدءُ في نقلِ المرضى إلى المستشفى الجديدِ، وأما المشفى القديم فقد أصبحَ خاويًا تمامًا من وجودِ أيِّ شخصٍ.

وفي عام (١٩٤٦م) رُمِّمَ مشفى الوقفِ، وأُعيدَ إلى الخدمةِ من جديدٍ في صورةِ عيادةٍ طَبيَّةٍ، وفي عام (١٩٦٣م) تَمَّ البدءُ في عمليةِ إصلاحِ وترميمِ للمشفى امتدت أحدَ عشرَ عامًا إلى أن تَمَّ الانتهاءُ منها بالكامل عام (١٩٤٧م)، وقد شملت هذه الإصلاحاتُ كُلَّ أنحاءِ المَجْمَعِ، وبناءً على الاتفاقيةِ التي وُقِّعتْ بين المديريةِ العامةِ للأوقافِ و"كلوب مديترانيان (Club Mediterraneeen)" فقد تَمَّ إجراءُ عمليةِ ترميمٍ وإصلاحاتٍ جديدةٍ على كُلِّ أجزاءِ المَجْمَعِ باستثناءِ الجامعِ وذلك بهدفِ استخدامها لأغراضٍ سياحيةٍ، ولكن وبسببِ ردودِ الفعلِ الواسعةِ التي صدرت على الأخصِ من سُكَّانِ المنطقةِ فقد عدَلَتِ الأوقافُ عن قرارِها وقامت بتخصيصِ المَجْمَعِ ليكونَ تحتَ إدارةِ رئاسةِ الشؤونِ الدينيةِ من أجلِ استخدامها في صورةِ "مركزٍ تعليميٍّ للخدمةِ العامةِ"، واعتبارًا من يومِ العشرين من كانون

(١٨٠) نُورُزَانُ يَلْبِيرِيْمُ، "مستشفى ومستوصف غاضكي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ٢٠٠٣م.



الثاني/يناير من عام (١٩٧٦م) فقد تمَّ البدء في تنظيم دوراتٍ تعليميةٍ مهنيةٍ للوعاظِ والمُفتين في البنايات التابعة للمجمع والذي أصبح يلعب دورًا كبيرًا في هذا المجال تحت اسم "مركز خاصكي التعليمي الخاص بإسطنبول التابع لرئاسة الشؤون الدينية".<sup>(١٨١)</sup>

وفي العام (٢٠١٠م) أصبح "مجمع خاصكي" خاويًا حيث تمَّ نقل المركز التعليمي منه إلى بنايةٍ جديدةٍ في منطقة "بنديك" (Pendik) في إسطنبول، وأصبح "مجمع خاصكي" يقفُ منتظرًا أن تحدّد المديرية العامة للأوقاف الجهة الجديدة التي سيكون الوقفُ تابعًا لها.

### حمام "خاصكي" الكائن في منطقة السلطان أحمد

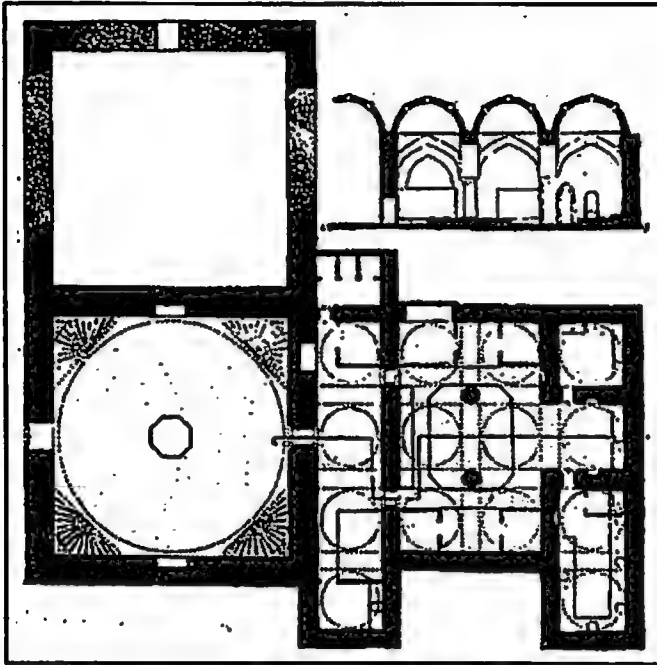
من الآثار التي أمرت "السلطنة خُرم" بتشيدِها في إسطنبول حمامٌ رائعٌ يقعُ في ميدان "السلطان أحمد" حيث يُعرَفُ هذا الحمام باسم حمام "أياصوفيا" أو حمام "خاصكي"، ويُفهَم من الكتابة الموجودة على هذا الأثر التاريخي الذي نراه في الناحية الجنوبية من "أياصوفيا" والذي صُمِم من قِبَل المعمارِي "سنان" أن عامَ إنشائه يعودُ إلى سنة (١٥٥٦م/٩٦٤هـ).<sup>(١٨٢)</sup>

إنَّ هذا الحمام المزدوج الذي يُعتَبَر من أكبر الحمامات العثمانية في إسطنبول تمَّ تشييده في المكان الواقع بين جامعي "أياصوفيا" و"السلطان أحمد" بسبب ضيق المساحة المجاورة لجامع "أياصوفيا" وأيضًا بسبب عدم إمكانية إنشاء حمامٍ آخر بالقرب منه.

لقد صُمِم المبنى على هيئة حمامٍ مزدوج، ويمتدُّ بشكلٍ مستقيمٍ من الشمال إلى الجنوب، وأحدُ قسَمَي الحمام -المماثلين لبعضهما البعض-

(١٨١) سنان ذوغان، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٨٢) م. يافا طانمان (Tanman)، "حمام خاصكي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، ٢٠٠٣م. الجزء الرابع،



مخطط "حمام خاضكي السلطنة خُزْم" خَطَّهُ *Heinrich Glück*

باستثناء بعض التفاصيل - مُخصَّص للرجال وهو الموجود في ناحية جامع "أياصوفيا"، أما الآخر فهو مخصص للنساء وهو الموجود في ناحية جامع "السلطان أحمد"، وفي الجزء الشمالي من القسم الخاص بالرجال الذي يأخذ مدخله شكل جامع نجد هناك رواقاً مؤلفاً من خمس وحدات، وهو ما لا نراه موجوداً على الإطلاق في الحمامات الأخرى<sup>(١٨٣)</sup>.

وتحت "البسمة" التي نجدُها مكتوبةً على باب مدخل القسم الخاص بالرجال نجدُ أبياتاً من الشِّعر يعود تاريخُها إلى عام (٩٦٤هـ) تُنسبُ إلى شاعرٍ لقَّبُه خدائي (*Hüddâî*)."

"لو كنتَ ترجو رؤيةَ جنة الفردوس والرضوان،

فتعالِ إلى حمام السلطان لتتَّره وتجذَّ الصفاء.

فمن داخلِ النهر الجاري يخرجُ السلسيلُ ونهرُ الكوثر،

والحانُ هذا الماءِ للشاربِ هي ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

عندما دخل "خدائي" إليه شاهدَ حديقةَ جنةٍ عدنٍ في الحال

لقد حكى التاريخُ عنه أنه حمامُ الجنة السلطاني الأبدِي<sup>(١٨٤)</sup>

### نوافيرُ على شكلِ الحيتان

يذكرُ لنا الرحالة "أوليا جلبي" أن حمام "خاصَكِي" الذي كان يُعتبرُ حماماً لأعيانٍ وأشرافِ القوم، والذي كان يُعدُّ أيضاً من أكبرِ وأجملِ حماماتِ السوقِ بإسطنبول، كان قد أنشئَ من أجلِ تأمينِ وتوفيرِ النفقاتِ التي تحتاجُها أوقافُ "السلطنة خُرم".

(١٨٣) طائفتان، المصدر السابق، ص ٤.

(١٨٤) أحمد آتُكُونُوزُ (*Aktünöz*) - سعيد أوزتورك (*Öztürk*)، "جامع آبا صوفيا من الكنية إلى المتحف"،

وقد كانت توجد-سابقًا- في وسط القسم الخاص بالرجال مِضَاة في ساحتها ثلاثُ نوافيرَ كُلٌّ منها على شكلِ الحِيتان، يفيضُ منها الماءُ في حوضٍ رخامٍ مُجَزَّأٍ إلى شرائحَ، وقد كانت هذه النافورةُ الفريدةُ -التي من المحتمل أنها جُلِبَتْ غنيمةً من الغربِ- مصونةً ومحفوظةً إلى أن تنتهي عمليةُ ترميمِ الحمامِ التي أُجريت عام (١٩٨٦م) لِتُعَادَ إلى مكانِها وسطَ الحوضِ من جديد<sup>(١٨٥)</sup>.

أما أهمُّ ما يميّزُ القسمَ الخاصَّ بالنساءِ من الحمامِ عن القسمِ الخاصِّ بالرجال هو كونُ مدخلِهِ مُتَّجِهًا نحوَ الجهةِ الغربيّةِ، كما أنَّ هذا القِسْمَ قد صُمِّمَ بحيث يكون بدونِ رواقٍ، إن الفسيفساءَ الحجريّةَ الملونةَ الموجودةَ في مصاطبِ التدليكِ، والأعمدةَ الرخاميّةَ الخلّابةَ والأحواضَ التي تعكسُ ملامحَ الأسلوبِ الكلاسيكيِّ تُبيِّنُ وتُوضِّحُ لنا خصائصَ حمامٍ "خاصّكي" الفريدةَ والتي استطاعت أن تحافظَ على رونقِها وتبقى إلى يومنا هذا. <sup>(١٨٦)</sup>

### حمامٌ تحوّلَ إلى خزانٍ للبنزين

لقد ظلَّ الحمامُ قابلاً في قلبِ منطقةٍ سكنيّةٍ مزدحمةٍ حتى حدثَ حريقٌ "إسحق باشا" الذي وقع عام (١٩١٣م)، حيث أصبح الحمامُ في أسوأِ حالاتِهِ وأيامِهِ خصوصاً بعدَ الحريقِ، وبحلولِ عامي (١٩١٦-١٩١٧م) تمَّ البدءُ في إجراءِ مجموعةٍ من التعديلاتِ بعد أن طُرِحتَ فكرةُ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ، فتمَّ فتحُ ممَرٍ في الحائطِ الذي كان يفصلُ قسمَ الرجالِ عن قسمِ النساءِ، كما جُددَ الرواقُ الموجودُ في مدخلِ قسمِ الرجالِ، لكن فيما بعدُ تمَّ التخلّي عن فكرةِ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ. <sup>(١٨٧)</sup>

(١٨٥) شفاوي أَيْجَه (Semavi Eyice)، "حمام خاصّكي"، إسطنبول، ١٩٩١م، الجزء الرابع، ص ٢١١.

(١٨٦) طانتان، المصدر السابق، ص ٤.

(١٨٧) أَيْجَه، المصدر السابق، ص ٢١١.

وقد كانت هناك فكرة لهدم حمام "خَاصِكِي" في عصر الجمهورية، إلا أنه نَجَا من تلك المحاولة، وعلى الرغم من ذلك نجد أن الحمام قد تعرّض للتخريب والدمار بسبب استخدامه استخدامات غير مناسبة حتى إن أرضياته قد دُمِرَ قسم منها، وفي أول الأمر أصبح هذا الأثر التاريخي مخزناً للجاز والبزيرين تابعاً للبلدية، ثم تحوّل بعد ذلك إلى مخزن للورق تابع لإحدى المطابع الحكومية، ووصل الأمر إلى أكثر من هذا حيث نجد أن الحمام قد بلغ به الحال إلى درجة أنه قد صار يُستخدم لفترة كمخزن فحم<sup>(١٨٨)</sup>.

وفي عام (١٩٨٨م) نُظِمَتْ في الحمام بعض المعارض الفنيّة المعاصرة ضمن فعاليات "البيّنالي (Bienal) الفنّ الدولي" والتي تُقام كلّ سنتين وذلك بعد إجراء أكثر من عملية ترميم سابقة في الفترة الممتدة من (١٩٥٧م) وحتى (١٩٥٨م).

\*\*\*

إن المبنى -مبنى دار الفنون التاريخي- العظيم الواقع في القسم المقابل للجهة الشرقية من "أياصوفيا" والذي كان يُستخدَم كدار للقضاء، إن ذلك المبنى قد تحوّل إلى رمادٍ تماماً في الحريق الذي اندلع ليلة الرابع من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٩٣٣م)، وفي أثناء ذلك الحريق تمكّن البناء المجاور وهو حمام "خَاصِكِي" من أن ينجو من خطر كبير كاد أن يصيبه هو الآخر، فقد تمكّن رجال الإطفاء في اللحظة الأخيرة من إنقاذ هذا الحمام قبل أن يصله الحريق، حيث تسنى لهم واستطاعوا إخلاء المكان من المواد المشتعلة كالبنزين والجاز والتي كانت تُخزّن في ذلك الوقت بالحمام<sup>(١٨٩)</sup>.

(١٨٨) أيّنه، المصدر السابق، ص ٢١١.

(١٨٩) إلغان آغاجي، "جامع أياصوفيا"، انقرة - ١٩٦٨م، ص ١٠١.

إن حمام "خَاصِكِي" يُعتَبَرُ من الآثارِ الهامَّةِ التي خَلَفَها لنا تاريخ العمارة العثمانيَّة، حيث يُعتبر هذا الحَمَّامُ في نوعِهِ من أعظمِ الآثارِ التي شيَّدها المعماريُّ "سِنان" ويُعدُّ بجدارةٍ رمزا حقيقيا لِفَنِّ العمارةِ العثمانيَّةِ.

### دار "خَاصِكِي" لإطعامِ المحتاجينَ في القدس الشريف

لقد تمكَّنت "السلطانة خُزْم" التي تعتبر من أقوى نساءِ الدولة العثمانيَّة العليَّة في القرنِ السادس عشرٍ من بناءِ مُجمَّعٍ خيريٍّ في مدينةِ القدس الشريف إلى جانبِ مكَّة المكرَّمة والمدينة المنورة.

ويتألَّفُ هذا المُجمَّعُ من جامعٍ وخانٍ للقوافلِ ودارٍ لإطعامِ المحتاجينَ ملحقٍ بها خمسٌ وخمسون غرفةً.

وبالإضافة إلى القسمِ الرئيسِ من دارِ إطعامِ المحتاجينَ والمحاطِ بالجدرانِ فقد كان هناك أيضًا سلسلةٌ من البناياتِ الموجودةِ ضمنَ المُجمَّعِ الخيريِّ والتي شملتِ المطبخَ والفرنَّ وبيتَ المونةِ ومخزَنَ المعداتِ ومخزَنَ الفحمِ وقاعةَ الأكلِ ودوراتِ المياهِ إلى جانبِ الخانِ والاشطَبِلِ<sup>(١٩٠)</sup>.

\*\*\*

تقعُ دارُ إطعامِ المحتاجينَ التي بدأتْ تُقدِّمُ خدماتِها في القدس على شارعٍ يُسمَّى "عقبة الست"، لكنَّ اسمَ السيدةِ الذي يُطلَقُ على هذا الشارعِ

(١٩٠) مسجد الوقف ليس من المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة، ولكنه أنشئ من أجل أن يتمكن العاملون بدار إطعام المحتاجين والضيوف الذين يحلون بشكل مؤقت بخان القوافل وكذلك المقيمين في المناطق والأحياء القريبة من أن يقوموا بأداء فروضهم الدينية، أما ما يخص خان القوافل فإن هناك معلومات قليلة للغاية تتعلق به، ومن المرجح أن هذا الخان كان يعمل في إطار من كرم الضيافة التقليدي حيث يقدم الطعام ومكان الإقامة مجانًا لمدة أربعة أيام للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين.

لا علاقة له بـ "السلطنة خُرْم" حيثُ إنَّه يعودُ إلى السيِّدة "طنشَق" إحدى سيِّدات العصرِ المملوكيِّ التي شَيَّدتُ البنايَةَ الأولى في تلك المنطقة في نهاياتِ القرنِ الرابعِ عشر، وعندما فتحَ العثمانيُّونَ القدسَ الشريفَ وذلكَ القصرَ المملوكيَّ الموجودَ بها وجدوا بداخلِ البنايَةِ عدَّةَ صالوناتٍ واسعةٍ إلى جانبِ غُرَفٍ كثيرةٍ وكذلك بئرَ ماءٍ، بعد ذلكَ قامَ العثمانيُّونَ بتوسيعِ تلكِ البنايَةِ باتجاهِ الشرقِ والجنوبِ، وكي يتمكَّنَ الوقفُ من تقديمِ الخدمةِ المنشودةِ فقد أُضيفَ إليه سبيلٌ كبيرٌ نوعًا ما إلى جانبِ غُرَفِ الطبخِ، ومعنى هذا أنَّ "السلطنة خُرْم" لم تأمُرْ هنا ببناءِ بنايَةٍ جديدةٍ تمامًا، وإنما هو تعديلٌ للبناء القديم.

وبعدَ أن بدأ الوقفُ في تقديمِ خدماتِهِ خُصَّصَ إيرادُ الكثيرِ من القرى في كلِّ من "القدس" و"غزة" إلى جانبِ إيرادِ الحمَّامِ المزدوجِ لِيُنْفَقَ على احتياجاتِ دارِ إطعامِ المحتاجين بعد أن تمَّ شراؤها.

### الطعامُ كان يوزَّعُ على المسيحيين أيضًا

كان عددُ الأشخاصِ المكتوبةِ أسماؤُهُم في قائمةِ الأفرادِ بالوقفِ عام (١٥٥٧م) -وهو العام الذي كُتِبَتْ فيه اللائحةُ التي تُنظِّمُ عملَ هذا الوقفِ- تسعةً وأربعين شخصًا، وقد كانَ لكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الأشخاصِ لقبٌ وعملٌ وراتبٌ محدَّدٌ ونصيبٌ من الطعامِ الذي يُطهى في مطبخِ الوقفِ، وكان العاملون بهذا الوقفِ مسؤولينَ جميعًا عن الأمورِ الماليَّةِ المتعلقةِ بمتعلَّقاتِ الوقفِ وكذلك الحفاظِ على سلامةِ مبانيهِ وتشغيلهِ بشكلٍ سليمٍ.

وفي أوائلِ الخمسينياتِ من القرنِ السادسِ عشرَ كانَ خَسَاءُ الأَرزِ والبرغلِ اللذان يُطهَّوانِ في قدورٍ ضخمةٍ يوزَّعانِ صباحًا ومساءً في

دار إطعام المحتاجين - أكثر أجنحة الوقف نشاطاً - على ما يقرب من خمسمائة شخص، وكان الأكل اليومي الذي يُوزَّع يتضمَّن تقديم نوعين من الحساء مع الخبز يطبخان مرَّة في الصباح وأخرى في المساء.

وكان الوزن المعياريُّ المُحدَّد لرغيف الخبز - المصنوع من القمح والملح والماء - بعد أن يخرج من الفرن تسعين درهماً<sup>(١١١)</sup> وفي المساء كانت تُقدَّم وجبة حساء البرغل الذي يطهى بإضافة الزبدة والحمص والبصل والملح والكثون والكوسا - وقد يتوفَّر نوع آخر من الخضروات حسب الموسم - والزبادي والليمون أو الفلفل الأسود، أما في المناسبات الخاصة فقد كانت الموائد العامرة تُقام للجميع.<sup>(١١٢)</sup>

وبناءً على ما ذُكر في لائحة الوقف والتي تعود إلى عام (١٥٥٧م) فقد كان يُشترط في يوم عاشوراء أن يتم إعداد شوربة تملأ أربعة قُدُور مع استعمال كلِّ المواد اللازمة والضرورية من أجل إعداد الطعام،<sup>(١١٣)</sup> وحيث إن الأكل كان يخرج من مطبخ دار إطعام المحتاجين مرتين في اليوم فقد كان عدد من تُصَرَّف لهم وجبات الطعام يُقارب الخمسمائة شخص، وهذا العدد يشمل المقيمين في خان القوافل الذي يضمُّ خمساً وخمسين غرفة إلى جانب العاملين في الوقف هذا بالإضافة إلى أربعمائة فقير ومحتاج.

لقد كان هناك الكثير ممن يتردَّدون على دار "خاصكي" لإطعام المحتاجين، وأيا كان نوع الناس الذين يقدُّون على الدار ويدقُّون الباب

(١١١) حيث إن كل درهم كان يزن حوالي ثلاثة جرامات، فإن كل رغيف كان يخبز من كمية عجينة تزن ما يوازي مائتين وسبعين جراماً.

(١١٢) كان ذلك في الليالي والأيام الخاصة مثل ليالي الجمعة "الليالي التي تصل يوم الخميس بالجمعة" وشهر رمضان وأمسيات الليالي المقدسة وأعياد الفطر والأضحي، في تلك المناسبات كان يقدم الخبز كما هو الحال في باقي الأيام لكن بدلاً من الشورية كان يُقدَّم نوع من الحلوى يسمى "زردة" إلى جانب خبز على هيئة حبات، ومهما كانت مكانة الضيف فقد كانت توضع هذه الأكلات التي يتظرها كل الواقفين على كل الموائد.

(١١٣) أمي سنجر (Amy Singer)، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، [إسطنبول، ٢٠٠٤م]، ص ٦٩-٧١.



فقد كَانَ هناك بالطبع فائضًا من الأطعمةِ المجهزةِ والمُعَدَّةِ في انتظارِ مَنْ سيأتي، لقد كَانَ يتمُّ عملُ كُلِّ ما يلزَمُ، بحيثُ إن المحتاجينَ لم يكونوا يخرجون أبدًا جوعى من دارِ "السلطنة خُرم" المخصَّصةِ لإطعامِ المحتاجينَ، إذ كَانَ يُخشى من أن يتساءلَ المحتاجونَ: "ألا تستطيعُ السلطنةُ أن تُساعدَ الجميعَ؟".

في الأعوامِ اللاحقةِ استمرتُ أيضًا تلك الدارُ في الأعمالِ الخيريةِ دون توقُّفٍ، فمثلاً يذكُرُ أحدُ الرحالةِ الفرنسيينَ ويُدعى "موريسون (Antoine Morison)" ما شاهده عام (١٧٠٥م) قائلاً:

"لقد كَانَ يُقدَّمُ كُلُّ يومٍ ولكلِّ فقيرٍ يأتي إلى هناك حوالِي نصفِ كيلو من الخبزِ بالإضافةِ إلى زيتِ الزيتونِ وصحنٍ من الشوريةِ المطهَّوةِ مع بعضِ الخضرواتِ والتي كانت تُجهَّزُ في قُدورٍ عملاقةٍ لم نَرِ لها مثيلاً من قبلُ". (١١١)

ويذكُرُ نفسُ الرحالةِ الفرنسيِّ أنَّ الطعامَ كَانَ يُوزَعُ في دارِ إطعامِ المحتاجينَ بشكلٍ متساوٍ سواءَ أَكانَ ذلكَ للمسلمينَ أو المسيحيينَ ومعنى هذا الكلامُ أَنَّ المسيحيينَ أيضًا لم يُستثنوا من لائحةِ الوقفِ (١١٢).

\*\*\*

وعلى الرغمِ من مرورِ أربعِ مائةٍ وأربعِ وخمسينَ عامًا على تشييدِ هذا البناءِ الذي يُعرَفُ بينَ الناسِ باسمِ دارِ السلطنةِ "خاصَّكي" لإطعامِ المحتاجينَ أو "التَّكِيَّةِ"، إلا أَننا لا نزالُ حتى اليومُ نرى هذا الصرَّخَ واقفاً على قدميه في قلبِ مدينةِ "القدس" القديمةِ التي تُحيطُ بها الأسوارُ، وابتداءً من الأعوامِ التي تَلَتْ عام (١٩٢٠م) وحتى يومِنا هذا فقد تحوَّلت

(١٩٤) سنجر، المصدر السابق، ص ٣.

(١٩٥) سنجر، المصدر السابق، ص ٨٩.

دار "خَاصَكِي" لإطعام المحتاجين إلى "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المِهَن والمهارات" (١٩٦) وعلى الرغم من حدوث هذا التحوُّل إلا أنَّ توزيع الطعام قد استمرَّ حتى إن اليونسكو (UNESCO) أيضًا في الأعوام التي تَلَتْ عام (١٩٥٠م) قد قامت بتوزيع الطعام في نفس المكان، وما زال حتى اليوم يتمُّ وبشكلٍ يوميٍّ توزيع الطعام على المحتاجين في دارِ الأيتام (١٩٧).

---

(١٩٦) كانت "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المِهَن والمهارات" حيث كانوا يتعلمون فيها الحرف الصناعية...

(١٩٧) يوسف أفندي ناتشي (Nashe)، "الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطنة خاضكي لإطعام المحتاجين

(My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice)، القدس، ٢٠٠١م، ص ٧.





كلُّ مخلوقٍ لله ربيبٌ أنَّهُ يفتنى،  
وكلُّ متسامحٍ في الآخرة لا يندمُ .  
ببذئبِ الجببِ ولا أحد على وجه الأرض يبقى،  
لأنَّ الأجلَ لله محالةٌ آت،  
فلا باقى إلا الله عزَّ وجلَّ.

"السلطانة منيرة قاه"



## "السلطانة مهرماه"

انتهت أيام الشتاء الباردة وهدأت الرياح الشتوية العاصفة، وقد تساقطت أوراق الأشجار اليابسة الصفراء على الأرض حتى تَبَعَثَرَتْ واختَفَتْ، وبدأت الحياة تستأنف مسارها من جديد، بعد أن هَلَّ الرِّيحُ وبدأ يكسو وجه الأرض وأغصان الأشجار ثوبًا جذابًا أخضر.

نشأت "مهرماه" الجميلة وترعرعت في غُرَبِ الحريمِ الفخمة كابنةٍ وحيدةٍ للسلطان و"خُرْم"، إنها تقفُ الآن في إحدى النوافذ ذات الأقواس الحجرية الحادة بالقصرِ المزيّن بالخَزَفِ الفيروزيّ وقد أخذت تُراقِبُ بحرصٍ آفاقَ الموجاتِ البعيدة التي لا تُصِلُ إلى الساحل.

كانت الأميرةُ محبوبةً جدًا من والدها وكان يلتي لها كلَّ طلباتها، فها قد بلغتِ الأميرةُ "مهرماه" سنَّ السابعة عشر، وقد امتازت بحسٍّ مرهفٍ، ونالت حظًا وافيرًا من التعليم...

لقد كان القلبُ الرقيقُ لهذه الفتاة اللطيفة مضطربًا وخفّاقًا ومنتظرًا للأخبارِ السعيدة من "ديار بكر"، لقد امتلأ قلبها بالمشاعر التي تفيض أحيانًا على شفيتها لتُنشِئَ قصائدَ من الشِّعرِ أشبه ما تكون بالألحانِ الموسيقية التي تأسِرُ الأسماع .

لقد قَرَزَ والدها "السلطان القانوني" مع أمِها "خُزْم" أن يختاروا "رستم باشا" والي "ديار بكر" عريساً لابتهم الحبيبة "مِهْرَمَة".... فهل يا ترى سيحظى "رستم باشا" بما يطمحُ إليه، وهل يا ترى سَتُشْرِقُ شمسُ السعادة على قلبِ "مِهْرَمَة"؟

\* \* \*

لا نستطيع أن نحدّد على وجه الدقّة التاريخَ الذي وُلدت فيه "السلطانة مِهْرَمَة" الابنة الوحيدة للقانوني و"خُزْم"، إلا أنه يمكن الوصولُ إلى تاريخ ميلادها من خلال معرفتنا بتاريخ الزفاف الذي يُفهم منه أن تاريخ مولدها يوافق عام (١٥٢٢م)<sup>(١٩٨)</sup>.

صادف اليوم الذي ولدت فيه "مِهْرَمَة" السنة الثانية من حكم "سليمان القانوني" واعتباراً من هذا اليوم أطلقَ عليها والدها اسماً مثيراً وهو "مِهْرَمَة" كعلامةٍ على حبّه الشديد لها. وتعني كلمة "ماه" في اللغة الفارسية القمرَ و"مِهْر" الشمس. ومن المحتمل أن السلطانة "مِهْرَمَة" قد لُقِّبَتْ بهذا الاسم لجمالها.

لقد حظيت "السلطانة مِهْرَمَة" بحبٍ وحنانٍ وافرٍ نظرًا لأنها كانت ابنة السلطان الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من بين أخواتها فتلقّت تعليمًا جيّدًا في القصرِ وأُحيطتْ بالرعاية أثناء نشأتها.

ويُفهم من الأسلوبِ المُمَيِّز الذي نَجده في الخطابات التي تعودُ إلى "السلطانة مِهْرَمَة" أنها كانت تجيدُ المناظرة والنقاشَ والكتابة، وأنها كانت غايةً في الذكاء والعلم، كما أنّها كانت تُشبهُ أمّها في كثيرٍ من حركاتها وسكناتها وتصرفاتها وأسلوبها.<sup>(١٩٩)</sup>

(١٩٨) أولوخاني، نساء وبنات السلاطين، أنقرة، ١٩٨٠م، ص ٣٨.

(١٩٩) أولوخاني، نساء وبنات السلاطين، أنقرة، ١٩٨٠م، ص ٣٩.

لقد كان السلطان سليمان يَضْعُفُ أَمَامَهَا لدرجة أنه كان يلتي لها كل طلباتها في الحال، أما "السلطنة خُرْم" والتي كانت تعلم جيدًا مدى تأثير "مِهْرَمَة" على السلطان فتجدها تتوسل إلى السلطان وترجاه بمكانة مهرماه عنده في سبيل تحقيق مطالبها ومن ذلك ما وجدناه في إحدى خطاباتها إلى السلطان حيث تقول:

"سلطاني أرجوك بمكانة كريمتك "مِهْرَمَة" عندك أن..."

ويمكنُ اعتبارُ هذا العمل من جانب السلطنة "خاصيكي" دليلًا على مقدار المحبة والشفقة التي كان القانوني يمنحها لابنته "مهرماه" (٢٠٠).

لقد حافظت "مِهْرَمَة" من جانبها وحتى الموت على هذه العلاقة والمحبة التي كان يُكَبِّها والدُها تجاهها، كما استطاعت حتى النهاية أن تحافظ على تأثيرها الكبير ونفوذها عند السلطان.

\*\*\*

ولا تزالُ توجدُ حتى اليوم لوحة للسلطنة "مِهْرَمَة" ثلاثية الاتجاهات معروضة في متحف "بازوفيا" (Mazovia) "في مدينة "بلوك" (Plock) (٢٠١) البولندية، وقد صُنِعَت تلك الصورة على لوح من خشب شجرة الزيزفون ذي الرائحة العطرة حيث يظهر أنها لوحة زيتية قد رُسِمَت بأسلوب "تمبرا (tempera)" في الرسم، أما أبعاد اللوحة فهي ٩٧ X ٦٨,٧ سم، وبالنسبة للرسم فهو غير معروف، (٢٠٢) وتبدو "مِهْرَمَة" في الصورة وهي ترتدي

(٢٠٠) أولوخاني، رسائل العشق للسلطين العثمانين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٦٦.

(٢٠١) مدينة تاريخية تقع على ساحل "فيكول" في الشمال الشرقي من بولندا.

(٢٠٢) هذا اللوحة كانت ملكًا حتى الحرب العالمية الأولى لعائلة "زيميا ميريسكالي سلزنيا" ثم أصبحت في عهدة عائلة "رادزويل" بمدينة "زجره" بالقرب من "وارسو"، وقد سعت هذه العائلة إلى أن تستعيد هذه اللوحة من يد الألمان الذين استولوا عليها في الحرب العالمية الثانية إلى أن انتهى بها الأمر إلى أن تكون لدى جمعية "بلوك" العلمية ثم إلى متحف "بلوك مازوفيا" بعد ذلك.



لوحة "السلطانة مَهْرَمَاء"





رداء أحمر مزينا بزهرة ذات أربع أوراقٍ تيجانية الشكل،<sup>(٢٠٣)</sup> خلفيّة اللوحة سوداء اللون ومكتوب على القسم العلوي منها على اليسار بحروفٍ لاتينية "CAMARIA SOLIMA/IMP TUR/FILIA/ROSTANIS BASSAE/UXSOR/1541".  
فقد كانت السلطانة تُعرَف في أوروبا باسم "كاماريا (Camaria)"<sup>(٢٠٤)</sup>.

### قلمة تشكّل المستقبل<sup>(٢٠٥)</sup>

عندما وصلت السلطانة إلى سنّ السابعة عشر بدأ البحث عن زوجٍ مناسبٍ لها، ينبغي أن يكونَ هذا الزوجُ شخصاً يجمعُ بين معرفته بآدابِ القصرِ إلى جانب وفرة العلم وعظمة القوة، فكان "رستم باشا"<sup>(٢٠٦)</sup> -حاكم ديار بكر- الذي يعرفُ جيّداً بآدابِ القصر، والذي درسَ في "أندرون" -من أكثر الشخصياتِ المناسبةِ لهذا الأمر-

كان "رستم باشا" بعد أن تلقى تعليمه في "أندرون" قد عُيّن ليعمل في الاسطبل الخاصّ بالسلطان ثم التحقَ بعدها بالجيش في حملة "موهاج"

(٢٠٣) نظرا لوضع الحريم في ذلك العصر فإنه لم يكن من الممكن أن تنف "السلطانة غُرم" كموديل أمام الرسام لكي يرسم لها لوحة.

(٢٠٤) سُلَيمَن كُتُبَال (Selmin Kutsal)، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أُنقِرَة - ٢٠٠٦م، ص ١١٠.

(٢٠٥) لما انتشر خبر مصاهرة "رستم باشا" بالسلطان لم يتحمل منافسوه ذلك، وادعوا أن رستم باشا مصاب بالجذام، فبعث السلطان سليمان طيّبه الخاض لقخص الباشا، فوجد الطيب أثناء الفحص قملة في قميص الباشا، وكان من المعترف به في علم الطب آنذاك أن القملة لا يمكنها أن تستقر على جسد من أصيب بالجذام، وعلى ذلك سمح للباشا أن يتزوج ابنة السلطان.

(٢٠٦) ولد "رستم باشا" أوائل القرن الخامس عشر (١٥٠٥-١٥٠٦م) وذلك في إحدى القرى الواقعة إلى الغرب من "سراييفو" و"بوتومير" بالقرب من "سراييفو"، ويروى عن عائلته أنها كانت تحمل لقب "تشياليتش"، أما عن أصله فيرجح أنه كان ألبانياً أو صربياً أو بوسنياً أو كرواثياً، وقد ترك "رستم" سيّده الغني الذي كان قد اشتراه وانتقل إلى قصر سيّده الجديد آخر بمنطقة "جلطه" في إسطنبول مقابل دين كان مستحقاً على سيده القديم، وقد نجح "رستم" الذي كان يقوم بخدمة سيده الجديد وفي خلال فترة وجيزة في أن يلفت الأنظار إليه بفضل مهارته وموهبته، وهو ما كان السبب في إرساله إلى قصر "طوب قايي" ليكون من عبيد السلطان. (أُوْهَانْ أُوْغُونُور (Ughan Uguncu)، "رستم باشا"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٨م، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٨).

عام (١٥٢٦م) حيث عمل في وظيفة "سلحدار" (*silahdar*)<sup>(٢٠٧)</sup>، وعند انتهاء الحملة وقبيل عودة السلطان "القانوني" إلى عاصمة الدولة يوم واحد أرسل ليعمل سائسا لخيول القصر<sup>(٢٠٨)</sup> وذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام (١٥٢٦م)، وفي عام (١٥٣٦م) عُيِّن ليكون أمير الأمراء في "دولقادر" ثم بعد ذلك عُيِّن في ولاية "كارامان" ثم من بعدها انتقل إلى "ديار بكر" ليصبح أمير الأمراء هناك.<sup>(٢٠٩)</sup>

لقد كان العريس المرشح "رستم باشا" رجلاً عسكرياً يتمتع بخنكة وخبرة عالية رغم أنه ليس وسيم الشكل والمظهر، وكما تروي لنا بعض المصادر العثمانية فقد كانت هناك شائعات انتشرت على لسان مناصبي "رستم باشا" عن أنه مصاب بمرض الجدام،<sup>(٢١٠)</sup> لهذا فقد أرسل السلطان "القانوني" واحداً من أطبائه وهو "محمد أغا" إلى "ديار بكر" لكي يتبَّت بنفسه من حقيقة هذه الشائعات.<sup>(٢١١)</sup>

### صدرًا أعظم في سنِّ التاسعة والثلاثين

تمَّ عقدُ زواج "السلطانة مِهْرْمَاة" على "رستم باشا" وذلك في حفل زفافٍ عظيم استمرَّت مراسيمُه خمسةَ عشرَ يوماً وذلك من يوم الحادي

(٢٠٧) سَلْحَذَار: اصطلاح عثماني يطلق على الموظف المسؤول عن حماية أسلحة وذخائر السلطان والوزير والمحافظة عليها.

(٢٠٨) حيث كان هو الشخص المسؤول عن الخيول والعناية بها في القصر.

(٢٠٩) أَتْيُونُجُو، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢١٠) مرض جلدي صعب الشفاء وسريع العدوى يظهر في صورة بقع جلدية تنتشر في عدة مناطق من جسم الإنسان.

(٢١١) جَاوِيْتْ بَايْتَرُونُ (*Cavir Baytun*)، "السلطانة مهر وماه"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية،

إسطنبول - ١٩٦٠م الجزء الثامن، ص ٣٠٧.

عشر إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٩م)، حيث أُجْرِيَ هذا الاحتفال بالتزامن مع إجراء حفل الختان للأمير "بيازيد" و"الأمير جهانجيز"، وفي نفس الوقت ومع إجراءات ومراسم الزواج تمّ ترفيع "رستم باشا" لينال رتبة وزير.

\*\*\*

كان النظام المتبع قبل زواج الأميرة "مهرماه" أنّ الأميرة حينما تتزوج تتقلّد مع زوجها خارج إسطنبول وتتبعه إلى مكان إقامته، لكنّ زواج السلطنة مهرماه قلب المعادلة وألغى العرف القديم وأنشأ عرفاً جديداً وتقليداً بديعاً داخل الأسرة الحاكمة، حيث إن السلطنة خرم وزوجها القانوني لم يستطيعا تحمّل ألم فراق ابنتهما المدللة الوحيدة، فأقامت السلطنة مهرماه في إسطنبول وأقام معها زوجها، وأصبحت العادات بعد ذلك الزواج التاريخي أنّ السلطانات يبقين في إسطنبول ولا يتبعن أزواجهن خارجها<sup>(٢١٢)</sup>.

\*\*\*

لقد انفتح طريق المجدي أمام "رستم باشا" الذي أصبح من خلال زواجه بـ"السلطنة بمهرماه" قريباً من الأسرة الحاكمة، وفي عام (١٥٤١م) وعلى إثر عزل "لطفی باشا" وتعيين "خادم سليمان باشا" مكانه كصدر أعظم فقد تمت ترقية "رستم باشا" هو الآخر ليصبح وزيراً ثانياً، وفي الفترة من (١٥٤١م) وحتى (١٥٤٣م) والتي ظلّ فيها "رستم باشا" يعمل كوزير ثانٍ للسلطان فقد كان في الوقت نفسه مرافقاً للسلطان "سليمان" في حملاته العسكرية على المجر، كانت خبزة وقدره "رستم باشا" تزداد

(٢١٢) نخذت صفّاً أوغلو (Necdet Sakaoglu)، "السلطنة بمهرماه"، موسوعة إسطنبول من أمس إلى اليوم،

كلَّ يومٍ في مجالِ إدارةِ شؤون الدولة وكان لزوجته "السلطانة مِهْرِمَاة" دورٌ كبيرٌ في هذا الأمر.

وبحلول أواخرِ عام (١٥٤٤م) وقعتْ حادثةٌ أصبحَ "رستم باشا" على إثرها مهينًا لكي ينالَ أرفعَ درجةٍ في الديوانِ السلطاني، ففي اليوم الثاني من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٥٤٤م) وعلى إثر الشجارِ الذي وقع بين الصدرِ الأعظمِ "خادم سليمان باشا" والوزيرِ "ذلي خُسرو" (*Delî Hüseyin*) فقد أصدرَ السلطانُ أمرًا بعزلِهما من وظائفهما وتعيينِ "رستم باشا" الذي كان في التاسعةِ والثلاثينَ من عمره صدرًا أعظمًا<sup>(١١٣)</sup>.

وكما نذكرُ لنا المصادرُ فقد كان للسلطانة "مِهْرِمَاة" و"رستم باشا" بنتُ اسمُها "عائشة هماشاه" (*Hümaşah*)<sup>(١١٤)</sup> وولدانِ مدفونان في ضريح "سنان الدين يوسف باشا" الموجودِ داخلِ مجمّعِ "السلطانة مِهْرِمَاة" في منطقةِ "أسكودار"<sup>(١١٥)</sup>.

### غزاء لملك بولندا "زيجموند"

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاة" مملوّةً بالحيويةِ كأُمِّها "خُرَم" وكانت تهتمُّ بأمورِ الدولةِ وشؤونِ السياسةِ الخارجيّةِ، وكانت "مِهْرِمَاة" تمتلك من الشجاعة ما يَمَكِّنُها من إرسالِ خطاباتٍ إلى ملوكِ وحُكّامِ الدول من حولِها، ومن ذلك خطابها الذي أرسلته إلى ملكِ بولندا "زيجموند أوغسط"

(٢١٢) تدعي بعض المصادر أن "رستم باشا" قد دبر بنفسه هذه الحادثة من أجل أن يمهد الطريق أمامه لكي يصبح الصدر الأعظم.

(٢١٤) "السلطانة عائشة" زُوجت إلى "سميز أحمد باشا" الذي تولّى منصب الصدر الأعظم ما بين عامي (١٥٧٩-١٥٨٠م).

(٢١٥) بعد أن تزوجت "السلطانة مِهْرِمَاة" من "رستم باشا" أنجبت منه أكثر من ابن، حيث أنجبت منه ابنتها السلطانة "عائشة" التي عاشت حتى العشرينات أو الثلاثينات من العمر، كما أنجبت منه ولدين، وقد دفن هؤلاء الأبناء في ضريح موجود بجامع "أسكودار". (السجل العثماني، الجزء الأول، ص ٨٢).

بمناسبة جلوسه على عرش بولندا بعد وفاة والده الملك "زيجموند"<sup>(٢١٦)</sup> الأول عام (١٥٤٨م)، فنجدها ترسل إلى الحكام خطابات تعزية وتهنئة كأمها "حُرْم"، وعلى إثر رَدِّ الملك بخطاب شكرٍ على الخطاب الذي أرسلته "السلطنة مِهْرَمَاء" فقد أرسلت له خطاباً ثانياً وبعثت له بالهدايا مع رسولٍ خاصٍّ<sup>(٢١٨)</sup>.

\*\*\*

وفي أول الخطابات التي كتبها "السلطنة مِهْرَمَاء" إلى ملك بولندا نجدها تقول:

"نما إلى علمنا خبرُ وفاةِ والدكم، فنحن كلنا عبيدُ الله تعالى  
﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أسألُ الله لكم الصبرَ وأن يباركَ ملككم،  
آمين... عندما علمنا أنكم قد جلستم على عرش بولندا سعدنا

(٢١٦) اعلى "زيجموند" (Zygmunt) الأخ الصغير لكل من "جان ألبرت" (Jan Albert) و"الكسندر" (Alexander) عرش بولندا عام (١٥٠٦م) حيث ظل يحكم لمدة اثنين وأربعين عام وحتى وفاته عام (١٥٤٨م)، ومن أجل عدم الخلط بين الملك "زيجموند" وبين ابنه الملك "زيجموند أوغسطس" فقد اصطلاح على تسميته في التاريخ البولندي باسم "زيجموند المعجوز" (Zygmunt Stary) وقد تمكنت بولندا في عهد الملك "زيجموند" من أن تحتفظ بعلاقة صداقة مستمرة مع الباب العالي -لدرجة إن هذه العلاقة تمثل حالة فريدة في تاريخ الدبلوماسية العثمانية- وذلك في مقابل ابتعادها عن المسار السياسي الذي كانت تتبعه كل من المجر ومولدوفيا.

(٢١٧) كلمات الغزاء التي كتبها "السلطنة مِهْرَمَاء" إلى ملك بولندا نجدها مكتوبة باللون الأسود ويخط الرقعة المركب، كما نجد ختم السلطنة أسفل الرسالة، وهذه الوثيقة المميزة نجدها مجلة تحت اسم: AGAD, AKW, Dz. Tur. (k. 68, t III, no. 221 de KDT, s. 104).

(٢١٨) إن بداية العلاقة بين بولندا والدولة العثمانية تمتد إلى القرن الخامس عشر، وقد نشأت هذه العلاقة من خلال مساعي إقامة صلح وصداقة بين كل من السلطان العثماني "محمد شلبي" وملك بولندا "جاجيللو" (Jagello)، حيث أثمرت هذه المساعي عن فترة سلام امتدت لفترة طويلة، وفي عام (١٤٨٩م) تم إرسال "ميكولاج فيرلج" (Mikolaj Firlej) إلى إسطنبول كأول سفير لبولندا، حيث تم توقيع أول معاهدة رسمية بين بولندا والدولة العثمانية، وفي السنين التي تلت ذلك أبرمت العديد من المعاهدات والاتفاقيات وتم إرسال السفير البولندي إلى الدولة العثمانية بشكل لم يكن له مثل مع أي دولة أخرى، (نازان أولنجر Nazan Ölgür)، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أقره، ٢٠٠٦، ص ١٧).

كثيراً ونالنا السرور، ومن أجل هذا فقد أرسلتُ إلى جنابكم السامي أحد أصدقاء حضرة الباشا (تقصدُ زوجها "رستم باشا") مع خطابٍ يقوِّي ويدعم صداقتنا وهو "حسن آغا"، إنني أرجو من جنابكم أن تُسرِّعوا في إعادة إرسال مبعوثنا إليكم وذلك بعد أن يصلَ إلى قصرِكم ويُظهِرَ لكم الاحترامَ والتبجيلَ، ونرجو بصفةٍ خاصة أن تُساعدوه على إتمام مهمته، إن رجاءنا من الله تعالى أن يُديم دولتكم، وليكن حكْمُكم مبارك بإذن الله تعالى...".

فقيرة الفقراء، خادماتكم "السلطانة مِهْرِمَاة"... (٢١٩).

\*\*\*

أما الخطابُ الثاني الذي أرسلته "السلطانة مِهْرِمَاة" فيمكنُ تلخيصُه كالآتي:

"ندعو الله أن يطيل من عمر جلالة الملك وعمر دولته حتى يصبح اليوم الواحد فيها كآلف يوم، واعلم يا جلالة الملك أنه عندما بلغنا خطابكم الذي يفرضُ موثقةً وحباً شعزناً بسعادةٍ وسرورٍ فائقين يصعبُ التعبيرُ عنهما بالكلمات أو بالأقلام.

إن خطابكم القيمَ يبيِّن بوضوحٍ ترحيبكم بالعلاقة التي أبديناها إليكم، فلقد أظهرتم بشكلٍ كريمٍ صداقتكم لنا وقربكم منا، أما أسطرُ الصداقةِ والحبِّ التي أبديتُموها للسلطان -الذي يُعدُّ القادرَ الوحيدَ على أن يكونَ الملجأَ الأمينَ لأي شخصٍ- فإننا سعدنا بها إلى حدِّ كبيرٍ لا يمكنُ وصفُه بالكلام أو الكتابة.

أتمنى من الله أن يهبَ لكم العمرَ المديدَ والسعادةَ الدائمةَ وقضاءَ أسعدِ الأوقاتِ...

لقد قال حضرةُ السلطان: "لقد كنتُ والذَّه كالأخوين، وصارت تربيَني مع ولديه صداقةً، وقد حان الوقتُ لنكنُ من

الآن فصاعداً كالأب وابنَه "جلالة الملك" إنني أريد أن أبلغكم بكلّ إخلاص أنه في حالٍ ذُكِرَ أيّ مسألة متعلّقة بكم عند السلطان فإنني وزوجي "رستم باشا" سنكون إلى جانبكم.

الفقيرة المسكينة "السلطانة مِهْرْمَاهُ". (٢٢٠)

\*\*\*

إن كتابة كلٍّ من "مِهْرْمَاهُ" أو أمها "خُرْم" برسالةٍ تعزيةٍ وتهنئةٍ إلى ملكٍ دولةٍ غربيّةٍ يُظهرُ بشكلٍ واضحٍ مدى اهتمام نساءِ القصرِ العثمانيّ ومدى مشاركتهنّ في أمورِ السياسةِ الخارجيّةِ في عهد "القانونيّ" والتي وصلت إلى درجةٍ ولعنّ بتلك الأمور، مع أن "السلطانة مِهْرْمَاهُ" عند كتابتها لتلك الخطاباتِ عام (١٥٤٨م) كانت في سنِّ السادسة والعشرين.

\*\*\*

إن العلاقاتِ العثمانيّةِ البولنديّةِ لا تنحصرُ في مسألةٍ علاقةٍ حربٍ أو سلامٍ، فاعتباراً من بداياتِ القرنِ الخامس عشر واستمراراً بعد ذلك إلى القرنِ السابع عشر والثامن عشر كانت العلاقاتُ الثقافيّةُ والتجاريّةُ قد بلغت ذُرْوَتَها بين الدولتين، حيث اسهّمت تلك العلاقات في رقيّ الجوانبِ الفنيّةِ الرفيعةِ لدى كلا المجتمعين، لا سيّما أنّ النخبةَ في بولندا قد تأثّرت بوضوحٍ بنمطِ الحياةِ والملابسِ والدوقِ التركيّ إلى جانبِ الولعِ بالسجاجيدِ والأقمشةِ التركيّةِ والغُرَبِ المفروشةِ على النمطِ الشرقيّ والإكسسواراتِ التي تزيّنُ ملابسَ الرجالِ والنساءِ والبُسطِ والأقمشةِ النفيسةِ التي أُرْسِلَت كهدايا إلى الكنائسِ، ويتّضح هذا التأثيرُ والتأثرُ في وثائقِ الجمركِ والميراثِ في ذلك العصرِ، وهذا كله يدلُّ على وجودِ حركةٍ تجاريّةٍ قويّةٍ وكثيفةٍ بين البلدين.

كانت نتيجة هذا الطلب الشديد على مظاهر الحضارة العثمانية أن شُيّدت تدريجيًا ورشٌ محلّية في بولندا، وبدأت تلك الورشُ تتواصل مع المشاغل والمعامل الموجودة في مراكز صناعة النسيج المهمة مثل "إسطنبول" و"بورصة"، وراحت تنتج منتجات شبيهة بما تُنتجُه تلك المراكز في الدولة العثمانية. (٢٢١)

### تكفي يدٌ واحدة ولا داعي أن تتمدّ الأخرى

بناءً على قيام الأمير مصطفى ولي العهد بالتمرد على والده السلطان فقد تمّ إعدامه خنقًا في (اكتبه) بالقرب من (قونية إيرليسي) وذلك أثناء الحملة التي قادها "سليمان القانوني" على إيران في السادس من تشرين الأول/أكتوبر عام (١٥٥٣م) (٢٢٢)، ولقد كانت هذه الحادثة المشؤومة سببًا لوقوع اضطراب وهياج كبير في أوساط الشعب والجيش على حدّ سواء، وعلى أثر هذه الحادثة فقد تمّ عزل الصدر الأعظم "رستم باشا" في نفس اليوم من وظيفته حيث إن التاريخ قد صار يحكم سلبا فيما يتعلّق بتلك الواقعة والتي أصبح يُذكرُ فيها اسمه مقترنًا بعبارة (مكر رستم)، ومن أجل أن تحمي السلطنة "مهرماه" زوجها من الإعدام بعد هذه الواقعة فقد لجأت إلى أمها "السلطنة خُرم" والتي قامت بدورها بكتابة خطاب إلى زوجها "السلطان سليمان" الذي كان يتواجد في هذا الوقت في (حلب)، حيث استعطفته في ذلك الخطاب وطلبت منه العفو عن زوج ابنتها.

وبعد أن تمّ عزل "رستم باشا" من وظيفة الصدر الأعظم التي شغلها لمدة تسع سنوات تقريبًا فقد عاد إلى القصر الصيفي الذي تملكه زوجته

(٢٢١) أولنجز، المصدر السابق، ص ١٧

(٢٢٢) تم إفصاح هذه الحادثة بشكل مفصل في القسم الخاص بـ "السلطنة خُرم".



"السلطنة مهريمة" والواقع في منطقة "أسكودار"، وعلى الرغم من عزله من منصبه فإن "رستم باشا" لم يفقد شيئاً من سلطته نظراً لكونه صهر السلطان "القانوني". (٢٢٢)

\*\*\*

وفي عام (١٥٥٤م) أُلِّمَ بـ"السلطنة مهريمة" مرضٌ خطيرٌ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، وعلى الرغم من كلِّ الجهود التي بذلها الأطباء إلا أنها لم تتحسن، وعندما عَلِمَ حَمُوها قبطانُ البحر "سنان باشا" بالأمْرِ فقد طلب المساعدة من عبده وطيبه "بيدرو"، لكنه لم يذكر له أن المريضة هي السلطنة الابنة، وعندما صارحهم الطبيب "بيدرو" أنه لا يمكن أن يعالج المرض بدون رؤية المريض وقياس نبضه وتحليل البول رُفِعَ الأمرُ إلى "رستم باشا" (٢٢٣).

لقد كان "رستم باشا" غيوراً للغاية مما جعله يطلب من الطبيب "بيدرو" أن يعالج زوجته "مهريمة" بدون أن يراها وذلك من خلال الحديث معه هو دون أن يقابلها، لكن مع إلحاح الطبيب فقد رضي "رستم باشا" بأن يُحِيلَ المسألة إلى "السلطنة مهريمة" لكي تقرّر هي ما تراه مناسباً، وفي النهاية نجح "بيدرو" في أن يدخلَ إلى غرفة السلطنة المريضة، إلا أن

(٢٢٣) يذكر "بوسيك" (Busbecq) "السفير الألماني الذي وفد إلى إسطنبول عام (١٥٥٥م) في مذكراته الشهيرة: "على الرغم من المدة التي بقيها "رستم" باشا معزولاً من منصب الصلر الأعظم فقد كنا نقوم بزيارته وتقديم له الهدايا حيث كان لدينا قناعة بأن هناك احتمال أن يعود "رستم" باشا في المستقبل إلى موقعه القديم". (أفيونجور، المصدر السابق، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٣).

(٢٢٤) يحكي الطبيب الإسباني "بيدرو" تلك الواقعة على النحو التالي: "لقد أخبرني سيدي "سنان باشا" بأن حياته هو وأخيه "رستم باشا" مرتبة بشفاء هذه المريضة، وأن موتها سيغني هلاكهما، من أجل هذا فلني سأقوم بما يمكن عمله وأصنع اللازم من أجل شفاء السلطنة وسيقوم بعثي إذا نجحت في هذا الأمر، وقد أجبته بأنني لا أريد أن أعتل لأنني إذا صرت حراً فلنني سأصبح بلا سند أو كفل، لكنني من أجل الامتثال لأوامره فقد أخبرته بأنني سأبذل قصارى جهدي، وبناء على ما ذكرته فقد أرسلني "سنان باشا" إلى قصر أخيه" (ترجمة: فواد جازم (Carim)، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول - ١٩٦٤م، ص ٣٥).

الطيب اندهشَ عندما اقتربَ من فراشِ السلطنة، فقد كانت "السلطنة مِهْرَمَاء" مغطاةً ومستترةً وملتحفةً تمامًا بملاءِ ذاتِ خيوطٍ وضمائرٍ ما عدا إحدى يديها التي كانت بارزةً.

\*\*\*

وها هو الطيبُ "بيدرو" يحكي لنا في مذكراته ما وقع في تلك الحادثة:

"بعد أن غسلت يدي بفوطة كبيرة قمْتُ بقياسِ نبضها، وعلى الرغم من شعوري برغبةٍ زوجها في أن أكتفي بهذا القدرِ إلا أنني لم أبالِ، وقلْتُ باللغةِ التركية: "اعطني يدك الأخرى يا سلطانتي"، فأدخلت السلطنةُ يدها تحتَ الغطاءِ ثم مدَّت الأخرى إلي، وعندها وجدتُ "رستم باشا" يُعربُ عن ضيقهِ وعدمِ ارتياحِهِ -بمجرد أن قمْتُ بقياسِ النبض- قائلاً: "حسنًا، لنذهب الآن يكفي يدٌ واحدةً فقط"، حينها قلْتُ للسلطنة متظاهراً ببرودة الأعصابِ التي يقتضيها الموقفُ الذي كنتُ فيه -وباللغة التركية مرةً أخرى: "سلطانتي هل من الممكن أن تُخرجي لسانك؟"، فما كان من السلطنة إلا أن أخرجتُ رأسها وذراعيها من تحتِ الغطاءِ، ثم أخرجت لسانها وهي تنظرُ بحدةٍ إلى زوجها، فلم يستطع "رستم باشا" أن يُنسى بينتِ شفةٍ أمامَ تصرُّفِ زوجته السلطنة، أما أنا فقد قلتُ من جانبي "سيكونُ هناك تحسُّنٌ وتغيُّرٌ للأفضل خلالَ خمسة عشرَ يوماً إن شاء الله" وقبلتُ "السلطنة مِهْرَمَاء" بتناولٍ وأخذٍ أي نوعٍ من أنواعِ العلاجِ باستثناءِ الأدويةِ المسهِّلةِ وفصدِ الدمِ وذلك لأنها قد عانت كثيراً من هذه العلاجاتِ التي وصفها لها الأطباءُ مرَّاتٍ عديدة، فقلْتُ لها: "إنَّه من الضروري أن تأخذي شرباً حلو المذاقٍ سأعطيك إياه الآن"، وعندما قالت حسناً انسحبْتُ متقللاً إلى جناح "رستم باشا" (٢٢٥).

وخلال فترة وجيزة من التداوي بالعلاجات التي وصفها الطبيب "بيدرو" كانت "السلطنة بمِهْرَمَة" قد استردت صحتها.

### "بيازيد" لا يَأْبَهُ بالنصيحة

بعد عزل "قره أحمد باشا" ثم مقتله في التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر عام (١٥٥٥م) تولّى "رستم باشا" للمرة الثانية مقام الصدارة العظمى.

كانت أهمّ الأحداث التي وقعت خلال الفترة الثانية من تولّي "رستم باشا" لمقام الصدر الأعظم هو الصراع الذي نشب بين الأميرين "بيازيد" و"سليم" على العرش، حيث إن الفرصة قد أصبحت متاحة بشكل أكبر أمام "الأمير بيازيد" بعد موت الأمير مصطفى، لكن بوفاة والدته "السلطنة خُرُم" قد فقد "الأمير بيازيد" أهم سند بالنسبة إليه، ولم يعد هناك الآن من ناصر أو معين له في القصر سوى "رستم باشا" زوج أخته "السلطنة مِهْرَمَة"، وذلك لأن "السلطان سليمان" بعد وفاة زوجته "خُرُم" أصبح مرتبطاً بشكل كامل بابتته "مِهْرَمَة".

لكن تصرفات وقرارات "بيازيد" الطائشة والغير مسؤولة كانت تضع أخته "مِهْرَمَة" في موقف صعب من ناحية، ومن ناحية أخرى تُعزّل هذه التصرفات جهود الحفاظ على جبل المودة مع أخيها "سليم"، ففي الواقع كان "سليم" ينتهز بدوره كل فرصة من أجل إشعار أخته الكبيرة "مِهْرَمَة" بأنها تأخذ موقفاً مؤيداً لأخيها "بيازيد".

\*\*\*

وعندما علّم السلطان "القانوني" بالخلافات التي كانت بين الأميرين عاقبهما بشكل متساوٍ وبدون أن ينحاز إلى أي منهما حيث قام بإرسال

"الأمير سليم" ليكونَ واليًا على "قونه" أمّا "الأمير بيازيد" فقد أرسله ليكونَ واليًا على "أماسيا".

لم يعترض "الأمير سليم" على ما قامَ به والدُه، لكنَّ "بيازيد" ظلَّ في مدينة "كوتاهية" وكان يتصرفُ بشكلٍ يعيِّرُ عن عدمِ رغبته في الذهابِ إلى "أماسيا" بحجة أنَّ هذا الأمرَ يهدفُ إلى إبعاده عن إسطنبول وجعل "سليم" هو القريبُ من العرش، كان "بيازيد" في تلك الأثناء يُرسلُ بالخطاباتِ إلى أخته الكبيرة "السلطانة مهرمة" ويريدُ منها أن تبدلَ جهدها في صالحه عند والدها.

أمّا "السلطان القانوني" الذي كان يدرُسُ الشكاوى الواردةً من "سليم" فقد طلبَ من ابنته "مهرمة" أن تكتبَ لأخيها رسائلَ تنصحه فيها، وأن تقدّمَ له الخطاباتِ القادمة إليها من "بيازيد"، كما طلبَ منها الردَّ على شكاوي "سليم"، أمّا "السلطانة مهرمة" والتي كانت من جانبها في غاية الضيق بسبب كونها في موقف وضعها بين أبيها وأخيها فقد أرسلت بخطابٍ سرّيٍّ إلى "بيازيد" لم تترك فيه شيئاً لم تذكره فيه،<sup>(٢٢٦)</sup> حيث أوصته في هذا الخطاب بالذهابِ على الفورِ إلى ولاية "أماسيا" التي كلف بتولي إدارتها، ونجد أنَّ "السلطانة مهرمة" بعد أن بدأت خطابها إلى أخيها "بيازيد" بكلماتٍ فاترةٍ فقد أخذت تستخدمُ معه لهجةً قاسيةً ناصحةً إياه بالآ يتصرفَ على نحوٍ يؤدي به نفسه، وفي النهاية قام السلطان "القانوني" بإرسالِ كلِّ من "صوكوللو باشا" إلى "الأمير سليم" و"برتف باشا" إلى "الأمير بيازيد" كناصحين إلى كلِّ منهما، لم يُبدِ "سليم" اعتراضاً على ما ذكره الناصح كما أعربَ عن تقبّله لما جاء به، أمّا "بيازيد" فلم يلقِ بالآ لقدم "برتف باشا"، قائلاً:

(٢٢٦) محمود آق، "السيدة مؤسسة الوقف: السلطانة مهرمة"، مجلة الأرقاف، أنقرة - ٢٠٠٦م. (عدد خاص: عام ثقافة الوقف) ص ٨٣.

"على الرغم من أن إسطنبول مملوءة عن آخرها بالعلماء الكبار والشيوخ المبجلين، إلا أنه من المدهش ألا يُرسل إليّ واحدًا من هؤلاء لِيُسيدي إليّ النصيحة وينير لي الطريق، فعلى الأقل أمثال أولئك العلماء يمكن أن أستهدي بهديهم وأن أسترشد بأفكارهم".

وعلى هذا النحو فقد أخذ يسخر من الرجل المخضرم الذي أرسله إليه أبوه .

وعلى الرغم من عدم إلقاء "بيازيد" البال إلى نصيحة الناصحين -بمن فيهم أخته الكبرى- فقد ذهب إلى "أماسيا"، ومن هناك أخذ "بيازيد" في التخطيط للوصول إلى العرش من خلال إعداد العدة من أجل التحرك لملاقاة أخيه "سليم" عسكريًا متخذًا في ذلك من جدّه السلطان "سليم ياوز" مثالاً أعلى أمامه، لكن جدّه السلطان "سليم ياوز" كانت تسحره الشجاعة والكفاءة العسكرية التي كان يتحلّى بها، وبعد وقت قصير تحرّك "الأمير بيازيد" إلى "قونية" على رأس القوّات التي جمعها في الثلاثين من أيار/مايو عام (١٥٥٩م) وبدأ في قتال القوّات التي كانت تحت إمرة أخيه "سليم"، لكن جيشه -أي بايزيد- هُزم بعد مناوشات بسيطة، فانسحب، واضطرّ حينها "بيازيد" إلى العودة إلى "أماسيا"، إلا أنه لم يستطع أن يستقرّ به الحال هناك أيضًا.

### نهاية "بيازيد" الحزينة

عندما وصل "الأمير بيازيد" -الذي لم يستطع التفاهم مع والده وأخيه "الأمير سليم"- إلى مشارف "أرضروم" أخذ يبذل قصارى جهده في العمل على إقامة اتصال مع والده السلطان، وفي سبيل ذلك نجده

قد سعى وحاول الوصول إلى كلِّ الأطرافِ المحيطين بوالديه والذين بإمكانهم أن يؤمّنوا له المساعدة والعون في هذا الصدد.

وفي الخطاب الذي كتبه "بيازيد" إلى "السلطانة مهرماه" نجدّه يبدأ كلامه قائلاً: "أختي العزيزة، أختي السلطانة" ويذكرُ بعد ذلك أنه قد جاء إلى هنا لكي يتمكن من النجاة بحياته، كما نجدّه يسعى في التذلل إلى والده لكي ينال منه العفو قائلاً:

"إذا ما نالني عفوك وأمانك، فوالله لن أرحل إلى أيِّ مكانٍ".

كذلك نراه يرسلُ السلام إلى كلِّ من "رستم باشا" وابنة أخته "عائشة هماشاه"، وينتهي "بيازيد" خطابهُ قائلاً:

"صغاري يقتلون أيدي عمتهم، نشاق إلى رؤياكم قبل أن يوافينا الأجل" (٢٢٧).

توفي الصدر الأعظم "رستم باشا" في الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام (١٥٦١م) بسبب مرض الاستسقاء عن عمرٍ يتراوح بين الخامسة والخمسين والستين، حيث ظلت بعد ذلك "السلطانة مهرماه" أرملة بعد زواج استمرَّ سبع عشرة عاماً.

وقد فضلت "السلطانة مهرماه" أن تنسحب إلى القصر القديم بعد وفاة زوجها متخلية عن فكرة الزواج مرّة ثانية، هذا وقد خصصت لها الدولة دخلاً كبيراً يُقاربُ الستمائة قطعة من الفضة.

\*\*\*

وبعد حوالي العام من حدوث ذلك وفي نهاية مساوماتٍ طويلة أجراها "الأمير سليم" مع شاه إيران تمَّ الاتفاق بينهما على إعادة "الأمير بيازيد"،

وفي الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦١م) تمّ إعدام "الأمير بيازيد" خنقاً بوتر القوس في (قزوين).<sup>(٢٢٨)</sup>

### مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه"

بدأت "السلطنة مهريمة" بعد وفاة "الأمير بيازيد" في تحسين العلاقات مع "الأمير سليم" الذي كان هو المرشح الوحيد للجلوس على العرش، في هذه الأثناء كانت هناك رغبة لدى "سليمان القانوني" والديوان السلطاني في فتح جزيرة "مالطه"، حيث كانت تلك الجزيرة تهدد أمن التجارة العثمانية في البحر الأبيض وكذلك تهدد أمن سواحل شمال أفريقيا، وأيضاً فقد كانت تأتي التقارير من "تورجوت ريس باشا" سنة (١٥٦٥م) والتي تشير إلى أهمية هذا الموقع، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت "السلطنة مهريمة" الابنة الحبيبة للسلطان "سليمان القانوني" تذكر أن فتح "مالطه" هو مسألة مهمة جداً بالنسبة لها، ومن أجل ذلك نرى أن "السلطنة مهريمة" قد ساندت بمالها وثروتها في إعداد هذه الحملة العسكرية المجهزة في سبيل الفتح، فنجد أن "مهريمة" كانت تجهز من مالها الخاص السفن البحرية بما تحتاجه من مستلزمات.

### كل شيء خاضع لقدرة إلهية

بعد أن مرَّ عام واحد على حملة "مالطه" وبينما كان "بياله باشا" منشغلاً بفتح جزيرة "صاكير" كان "سليمان القانوني" الذي يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً يستعدّ لحملة جديدة على النمسا (زيغتفار)، في هذه الأثناء

(٢٢٨) إن هذه الحادثة المولمة تظهر لنا أن التأثير المزعوم أنه كان واقفاً على السلطان "القانوني" من قبل زوجته "السلطنة خرم" وابنة "السلطنة مهريمة" وزوجها "وسم باشا" الذين كان يوصفون بأنهم عصابة القصر لم يكن كيزا بالدرجة التي صورت. كما تعتبر هذه الحادثة دليلاً واضحاً على أن الأمير "بيازيد" قد تعرض لنفس المصير الذي انتهى إليه أخوه الأكبر مصطفى وأن القانوني لم يكن تحت تأثير هؤلاء الثلاثة، حيث إن من يسوقون مثل هذه الإدعاءات يذكرون أن هذه العصابة كانت تريد تولية "بيازيد". (أفكسون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٢٢).

كان السلطان يعاني من مرضٍ "النقرس" الذي ورثه من أجداده، وعلى الرغم من إخبار الأطباء له من أنه لن يتمكن من تحمل مشاق الحرب إلا أنه قرَّر أن يخرج للغزو وكان يقول:

"إنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ".<sup>(٢٢٩)</sup>

وبناءً على المصادر التاريخية، فقد كان السلطان دائماً ما يدعو ويتضرَّع إلى الحقِّ تعالى أن يقبض روحه وهو يُؤدِّي مهمته المقدَّسة في إعلاء كلمة الله ﷻ، وبهذا الشكل فقد كان السلطان العادل يعلم أنه يقترب من النهاية.<sup>(٢٣٠)</sup>

وقد استجاب الله ﷻ لدعاء عبده المخلص، حيث إنَّ السلطان قد وافقته المنيَّة في ليلة السادس من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦٦م) عند مشارف قلعة "زيجفتار".

\*\*\*

عندما علم "الأمير سليم" نبأ وفاة والده أتى من "كوتاهية" إلى إسطنبول، وفي قصر "طوب قابي" التقى مع أخته "السلطانة مِهْرَمَاء" حيث تباحث معها في الموقف، وكما يذكر في كتاب "تاريخ سلانيكي" فقد تشاور "سليم" مع السيدة السلطانة "مهرماه" باعتبارها الأكبر والأعلى مكانة في كلِّ الأمور.<sup>(٢٣١)</sup>

(٢٢٩) بناءً على هذه الرواية فإن "السلطانة مِهْرَمَاء" قد شجعت مع "صوكوللو محمد باشا" والدها "السلطان سليمان" على الخروج للغزو والجهاد، أما بالنسبة للسلطان "القانوني" فإن الاستماع لهذه الكلمات التي تبين درجة تعلقه بالحياة يظهر لنا مدى عظمت هذا الرجل. (دافشند، المصدر السابق. الجزء الثاني، ص ٣٤٢).

(٢٣٠) أكشون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣١.

(٢٣١) كانت "السلطانة مِهْرَمَاء" هي أول من بايعت أخيها "الأمير سليم" عند دخوله إلى قصر "طوب قابي"، وقد ملكت قلب أخيها السلطان "سليم" عندما قالت وهي غارقة في دموعها: "إن نار الحرة والتفكر تصاحب الباكي المتحِب الذي قد احترق وانتهى...". ويقال إنها قد أقرضت في الحال أخيها خمسين ألف قطعة ذهبية من أجل الإنفاق على أمور مثل الصدقة والإحسان وذلك حتى لا تعرض خزينة الدولة لأي وضع سيء. (دافشند، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٦٢).



وقد أعطت "السلطنة بمهرمة" خمسين ألف قطعة ذهبية من ثروتها إلى أخيها السلطان "سليم الثاني" الذي لم يكن راضياً عن العجز الذي كان موجوداً بخزينة الدولة العثمانية<sup>(٢٣٢)</sup> وبفضل التضحية التي قامت بها السلطنة فقد شعر السلطان الجديد بارتياح شديد في هذا الوقت الضيق والحساس، وغطى بهذا المبلغ نفقات ضرورية وهامة بالنسبة للدولة.<sup>(٢٣٣)</sup>

### وفاة السلطنة الخيرة!

لقد كانت "السلطنة بمهرمة" بعد وفاة "سليمان القانوني" عام (١٥٦٦م) وفي عهد أخوها "سليم الثاني" وحفيده "مراد الثالث" من أكثر السيدات نفوذاً سواء بين نساء القصر أو عموم الحريم.

إن هذه السيّدة المحبّة للخير والتي أمضت الفترة الأخيرة من حياتها في القصر القديم الذي يُطلُّ على ميدان "ييازيد" الذي ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً قد رحلت عن عالمنا إلى دار البقاء إثر مرض مفاجئ وهي في سنّ صغيرة نسبياً عن عمر يناهز السادسة والخمسين، حيث جاءت وفاتها بعد عدة أيام من وفاة قائد البحرية الكبير "بياله باشا" (Piyale Paşa) في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير عام (١٥٧٤م)<sup>(٢٣٤)</sup>.

وقد كتب عنها المؤرخ "مُنَجِّم بَاشِي" (Müneccimbaşı) الذي يُعْبَرُ من مؤرخينا المعروفين قائلًا:

(٢٣٢) أوزغان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

(٢٣٣) في الغالب كانت "السلطنة بمهرمة" صاحبة ثروة كبيرة للغاية امتلكتها عندما ضمت الميراث الكبير الذي انتقل إليها من زوجها "رستم باشا" إلى الممتلكات التي كانت متوحة لها من والدها السلطان، وقد فضلت "السلطنة بمهرمة" أن توجه هذه الثروة التي بلغ عائدها في اليوم ألفي قطعة ذهبية إلى أعمال الخير والإعمار. (صفا أوغلر، المصدر السابق، ص ٤٥٣).

(٢٣٤) بناء على ما يذكر الرحالة الألماني "ستيفن جيرلخ" فإن هذا التاريخ كان يوافق الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر سنة (١٥٧٤م).

"كان والدهما يُكرِّمُ لها حبًّا جمًّا لكونها راجحة الرأي وصاحبة أعمالٍ خيرية".

وقد دُفِنَت السلطانة بجامع "السليمانية" في ضريح والدها الفخم الذي يقع جهة القبلة<sup>(٢٣٥)</sup>.

لعبت "السلطانة مِهْرَمَة" دورًا كبيرًا في التاريخ العثماني كالسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَم" وزوجها "رستم باشا" ويرجع هذا إلى أنها قد أُمضت حياتها في عصر عاشت فيه شخصيات مؤثرة.

كذلك فقد لعبت "السلطانة مِهْرَمَة" دورًا مهمًا من خلال علاقاتها مع إخوتها، حيث إنها اضطرت إلى الانحياز إلى أحد إخوتها وذلك بسبب الظروف السياسية التي مرّت بها البلاد في هذه الفترة، وعلى هذا النحو فقد أصبحت "مِهْرَمَة" من الأسماء المهمة التي تركت بصمة في التاريخ العثماني، مع ذلك نجد أن أكثر المعالم الموجودة اليوم والتي تُعبّر لنا عن شخصية "السلطانة مِهْرَمَة" هي الأوقاف التي أنشأتها والخدمات التي قدّمتها تلك الأوقاف والتي تعكس مشاعرها الطيبة وحبها للمساعدة والخير وكرمها الوافر.

لقد أنشأت "السلطانة مِهْرَمَة" ما لا يُعدّ من الأوقاف في سبيل أن تكون تلك الأوقاف معينة لها على الظفر برضا الله ونيل شفاعة النبي ﷺ وقد استطاعت أن تفوز بمكانة متميزة على صفحات التاريخ بفضل ما خصّصته أيضًا من إمكانات ضخمة في سبيل أن تكون هذه الأوقاف قادرة على الاستمرار في العطاء.

وسوف تظل "سلطانة مِهْرَمَة" تحافظ على مكانتها المرموقة في قلوب المسلمين كلما استمرت هذه الخدمات الخيرية التي قدّمتها.

## أعمال "السلطانة مِهْرْمَاه" الخيرية

"السلطانة مِهْرْمَاه" تُنافِسُ الآخَرِينَ عَلَى نَيْلِ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ  
لقد بذلت السلطانة مِهْرْمَاه -الابنة الحبيبة والوحيدة للقانوني- جهداً  
وافراً طيلة حياتها في بناء المؤسسات الدينية والاجتماعية، وكأنها كانت  
في هذا الأمر تنافس أهل البر والخير، وكانت تهدف من خلال هذا السعي  
والجهد إلى نيل رضوان الله تعالى وإدراك شفاعته نيّبه ﷺ، وكذلك رغبة  
منها في القيام بخدمة وطنها الذي تُكنُّ له حباً لا يوصف، فقد ساهمت  
"السلطانة مِهْرْمَاه" في عمل الخير بإنشائها مجمّعين خيريّين، الأول على  
ساحل منطقة "أسكودار" والثاني في منطقة "أدِرْنَه قَايِي".

### مجمّع "السلطانة مِهْرْمَاه" في "أسكودار"

وفي لائحة الوقف المكتوبة باللغة التركية التي تخصّ المجمّع  
الخيريّ الذي أنشأته "السلطانة مِهْرْمَاه" في "أسكودار" والتي سُجِّلَتْ بعد  
مرور ثلاث سنوات من انتهاء بنائه، نجد في الصفحة الثالثة من تلك  
اللائحة هذه الأشعار:

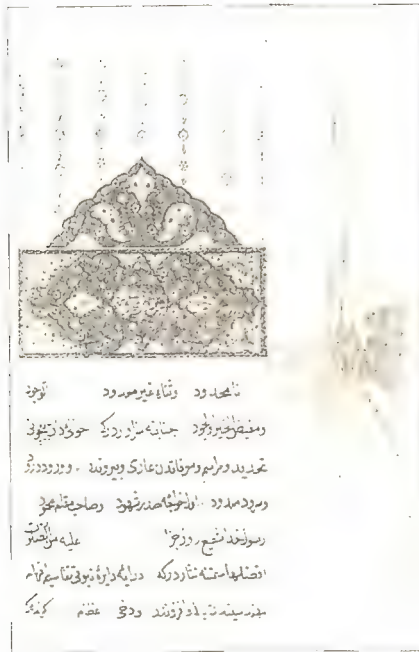
"لا تاج ولا عرش ولا ملك ولا مال،

لا جاء ولا وجهة ولا فضل ولا كمال ينجي الإنسان من الموت.

إن الله خلق العالم وكتب عليه الفناء

كل مخلوق لا ريب أنه يفنى

وكل متسامح لا يتدم في الآخرة



الصفحة الأولى في لائحة وقف "السلطانة مَهْرَمَة"

(أرشف وزارة الأوقاف، رقم - ٢٨/ك)



سيذهب الجميع ولن يبقى أحد على وجه الأرض لأن الأجل سيأتي لا محالة  
فلا باقي إلا الله ﷻ" (٢٣٦)

\*\*\*

وقد أنشئت البنايات الموجودة في المجمع -المقام على سفح هضبة السلطان- على نحوٍ متفرقٍ فنجدها موزعةً من الشمال إلى الجنوب، وأما جامع الميناء -الواقع عند نقطة مشرفة ومطلّة على الميدان- فإننا نجده في الكتابات القديمة يُذكرُ بصورةٍ أوسع تحت اسم جامع "السلطنة مهريماة"، (٢٣٧) ويتّضح لنا من الكتابات القديمة أنّ المسافة التي كانت بين الجامع والبحر أقلُّ مما هي عليه الآن، وفي المصادر القديمة نجدُ عبارة الضفاف والتي يفهم منها أن هذا الجامع قد أنشئ على ضفاف البحر، وبناءً على إحدى الروايات التاريخية فقد وطئت قدما السلطان "القانوني" الأرض في النقطة الواقعة أمام سلالم الجامع حين وصل شاطئ "أسكودار" بقرابه السلطاني لحضور مراسم افتتاح الجامع (٢٣٨).

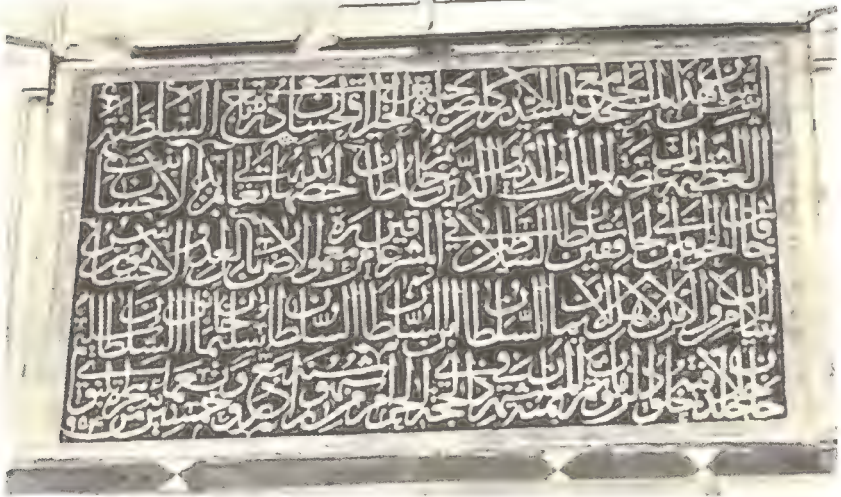
ويذكرُ لنا كذلك "أوليا شليبي" في كتابه المعروف ما يلي:

"كان يتم الدخول إلى خرم هذا الجامع الواقع على ضفاف البحر من خلال سلالم حجرية على الجانبين."

\*\*\*

(٢٣٦) إسماعيل حقي قونياتلي (Konyali)، تاريخ "أسكودار" (Askudar) مع الآثار والكتابات المدونة، إسطنبول - ١٩٧٦م، الجزء الأول، ص ٢٣١.

(٢٣٧) يأتي ذكر جامع "السلطنة مهريماة" في حفريات "الوم" (Allom) " حيث يتميز هذا الأثر بأنه ملاصقٌ للبحر. (٢٣٨) الآثار التي استخرجت من حفريات جامع والدة الجديدة " السلطنة جولنوش (Gulnuş) " والذي شيد عام (١٧١٠م) تم إقائها في البحر جهة ساحل منطقة "أسكودار"، لقد أقيم سيل ميدان الميناء والذي يتمتع بجمال بدیع من قبل السلطان " أحمد الثالث " عام (١٧٢٨م) في هذه الساحة التي أصبحت متلثة حيث إن التخطيط الأخير لهذا الميدان والذي نجده عليه اليوم قد تم -في العصر العثماني- في عهد السلطان " أحمد الثالث "، وفي عام (١٩٧٠م) وفي أثناء إقامة قناة إلى جوار سبيل الميدان الذي يوجد اليوم استخرج من الأرض وعلى عمق مترين رمال بحر وأصداف محار بحرية، (م. ن) نرمني خضكان (Nermi Haskan)، أسكودار على مر العصور، إسطنبول - ٢٠٠١م، الجزء الأول، ص ٢٦٥) أما الأقسام ذات المتحدر النازل - والتي كان يوجد معها السقف الذي يظهر في الحفريات القديمة - التي تقع بين السبيل والجامع فقد تم عملها في عهد السلطان (سليم الثالث).



النص العربي المكتوب على الباب الرئيس لجامع السلطنة مهمراه والواقع في منطقة أسكودار

أسس بانيان هذا المسجد الجامع المشيد الأركان صاحبة الخيرات والحسنات درة تاج السلطنة العظيمة الشأن عصمة الملك والدنيا والدين خانم سلطان<sup>(\*)</sup> خصها الله تعالى بمزيد الإحسان بنت خاقان الخواقين في الخافقين سلطان السلاطين في المشرقين عامر معمورة الأرض بالعدل والإحسان مؤسس بنيان الأمن والأمان لأهل الإيمان السلطان بن السلطان السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان خلد خلافته خلود الزمان وتم بمنة المنان في شهر ذي الحجة الحرام من شهور سنة أربع وخمسين تسعمائة من هجرة النبي



(\*) لم يذكر في الكتابة المدونة اسم "السلطنة مهمراه" التي أمرت بتشيد الجامع، وقد ذكر بعض صفاتها فقط حيث إن التقاليد الإسلامية لا تفصح في أغلب الأحيان عن أسماء السيدات سواء في الكتابات المدونة أو في سجلات الأرشيف وذلك كتعبير عن التوقير الكبير والاحترام الموجه نحو المرأة.

إن الكتابة التي كُتِبَتْ باللغة العربية الموجودة على الباب الرئيس الواقع في ميدان "أسكودار" تشير إلى أن الأثر قد أنشئ من قبل "السلطنة مهريمة" ابنة القانوني في شهر ذي الحجة / يوليو سنة (١٥٤٨/٩٥٤م).

### براعة المعماري "سنان" في هذا الأثر

وقد كانت معاصرة "السلطنة مهريمة" فنائاً كبيراً بمستوى المعماري "سنان" فرصة ثمينة بالنسبة للسيدة السلطنة.

لقد أنشأ المعماري "سنان" مجمع "السلطنة مهريمة" -والذي كان واحداً من أوائل المجموعات المعمارية الهامة التي شيدتها- بالتزامن مع إنشاء مجمع "الأمير محمد"، حيث بدأ بهذه المهام المعمارية بعد أن أصبح كبير المهندسين المعماريين، وقد ضمّ مجمع "السلطنة مهريمة" عدّة أقسام مثل الجامع والمدرسة الدينية ومدرسة للأولاد ودار لإطعام المحتاجين،<sup>(٢٣٩)</sup> إلى جانب المطبخ وخان، وإلى جوار هذه المنشآت فقد كانت هناك أيضاً أعمال أخرى ملحقّة بالمجمع مثل قنوات المياه والسبيل والمخزن والخلاء، ونجد أنه في الفترات اللاحقة قد أضيف إلى المجمع قبرين إلى جانب حمام مزدوج يُرجّح أنه كان موجوداً قبل إنشاء هذين القبرين، كذلك نجد الكتابات القديمة تشير إلى وجود قصر خشبي وغرفة صغيرة لتحديد أوقات الصلاة، لكن تعاقب الزمن ومرور الأيام أتلّف هذه الآثار فاندثر المطبخ الخاص بإطعام المحتاجين وكذلك الخان والقصر وغرفة تحديد الصلاة ولم يبق منها شيء<sup>(٢٤٠)</sup>.

\* \* \*

(٢٣٩) حيث كانت لائحة العمل بهذا المكان تقضي بتقديم الطعام لطلاب المدرسة وموظفي الجامع والفقراء والمسافرين ذهاباً وإياباً والضيوف.

(٢٤٠) إسماعيل أوزمان (Orman)، "مجمع السلطنة مهريمة"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ٢٠٠٥م، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

قام "سِنَان" بوضع حجر الأساس من أجل بناء الجامع على ساحل "أسكودار" الذي يُمَثِّل أحد المعايير الهامة في العاصمة، وبذلك يكون المعماري "سِنَان" قد حافظ على طابع إسطنبول كمدينة نموذجية التصميم، أما الدخول إلى فناء الجامع فيتُّم من خلال الأبواب الأربعة التي يُشْرِف أحدها على شارع "سلمان آغا" والثاني على "ميدان الميناء" والثالث على شارع "ميناء الباشا" والرابع على المدرسة الدينية، وفي وسط فناء الجامع الذي يحيط به سور من الحجر المقطَّع والمنحوت توجد مِضْأَةٌ رائعة ذات عشرين وجه مصنوعة من الرخام واقعة في مواجهة الباب الرئيس الفخم الخاص بالجامع، وتعلو هذه المِضْأَةُ شبكة من الزخارف الهندسية، وهذه الشبكة يلفُّها من الأعلى إطارٌ عريضٌ يصوِّر زهرة السوسن، ويعلو ذلك كله إطارٌ أسود مستديرٌ حول المِضْأَةُ مرصَّع بالرخام، ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه المِضْأَةُ تُعْتَبَر واحدة من أكثر الأماكن المخصَّصة للوضوء راحةً وتجهيزاً في إسطنبول.

\* \* \*

وفي مكان الصُّفَّة بجامع "السلطنة مِهْرَمَة" نجد رواقاً ذا خمس قباب تحملها ستَّة أعمدة من الرخام، وأمامه نجد مظلةً منكَّسةً إلى الأسفل وواسعة للغاية، وقد صُمِّم القسم المسقوف من هذا الجامع كي يَقِي من سيتعبدون في صُفَّة الجماعة من الظروف الجوية القاسية؛ حيث إنَّ الجامع كان قد أنشئ على مقربة شديدة من البحر، ولم تكن هناك إمكانيَّة لعمل فناء ذي رواقٍ كلاسيكيٍّ بسبب ضيق المساحة الساحلية التي بُني عليها الجامع.

\* \* \*





منظر داخلي لجامع "السلطنة مِهْرَمَة" (أسكودار/إسطنبول)



وقد كَتَبَ شَخْصٌ يدعى "عثمان جليبي" بيتًا من الشعر باللغة العربية وبخط النسخ -عام (١٦٠٩م/١٠٢٠هـ)- على السوارِ المصنوعِ من النحاسِ الأصفرِ والموجودِ على العمودِ الرخاميِّ الأخير، ذي القُبَّةِ الواقعِ إلى اليسارِ من مكانِ الصُّفَّةِ:

"لا يشعر فؤادك بالحزنِ بسببِ ضيقِ الرزقِ

إن الرزقِ فقط عند الله الكريم"

أما على العمودِ المجاورِ لهذا العمودِ الرخاميِّ الأخيرِ فقد كُتِبَتْ الجملةُ التاليةُ "في الثاني من محرم عام (١٠٧٠هـ) ذهب السفراء إلى الشاه" ويوافق هذا التاريخ بالتقويم الميلادي عام (١٦٥٩م).<sup>(٢٤١)</sup>

وهذا التاريخُ الذي يشيرُ إلى إرسالِ سفراء في عهد "السلطان محمد الرابع" إلى شاهِ إيران في الثاني من محرم سنة (١٠٧٠هـ) نجده كذلك مدونًا ومثبتًا في المصادر التاريخية<sup>(٢٤٢)</sup>.

\*\*\*

جامع "السلطنة مِهْرَمَة" من الجوامع ذاتِ المنارتين، كلا المنارتين بهذا الجامع لها شُرْفَةٌ واحدةٌ متوجَّهةٌ إلى الأطرافِ الشماليَّةِ من جسم البناء، كذلك نجد أن الأقسام التي تمثل قلب المئذنة بما فيها ما تحت الشُرْفَةِ وما فوقها هي أقسامٌ متعدِّدة الزوايا تقتربُ من الشكلِ الدائريِّ، أما الجُدُرُ الخارجِيَّةُ الخاصَّةُ بشُرْفَةِ كُلِّ مئذنةٍ فذاتُ حلبيّ متدلِّيةٍ من السقفِ، في حين أن الأسوارَ الخاصَّةَ بهذه المآذن تأخذُ شكلَ الشبكةِ أو الغربالِ

(٢٤١) فُونيالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٣.

(٢٤٢) إن "أوليا شلي" فيما يخصُّ الأوقاف يتحدَّث عن وجودِ موظَّفين مختصِّين بالحفر على الأساور المصنوعة من النحاس الأصفر والتي توجد على الآثار الهامة مثل الجامع والقصير، كما نجد على الأساور البرونزية كتابات تصوِّر لنا الأحداث الهامة مثل زواج السلاطين والأمراء ووقاتهم وذلك في جوامع "السليمانية" و"شاهزاده باشي" وغيرها من الجوامع.

الحجري، أما الجزء الأعلى الذي يأخذ صورة المخروط فنجدُه حادَّ الشكلٍ متناهي الدقَّة، ونجدُ لكلِّ من المثلثَين بابٌ ينفُتِحُ على الصُّفَّة.

أما بابُ القِبلةِ المصنوع من حجرِ الكوفَكِي<sup>(٢٤٣)</sup> المُقَطَّع والمغطَّى من أعلاه بطبقةٍ من الرصاص فتوجدُ في قَمَّتِهِ لوحةٌ منقوشةٌ من الرخام الأبيض<sup>(٢٤٤)</sup>.

### الساعة الشمسيَّةُ الموضوعَةُ في القسمِ الجنوبيِّ

وعلى الحائطِ الذي في الطرفِ الأيمنِ من بابِ الفناءِ المقوَّسِ والمفتوحِ على شارعٍ "سلمان آغا" توجدُ ساعةٌ شمسيَّةٌ كُسرَ عقريها تعودُ إلى عام (١٧٦٩م/١١٨٣هـ)، وهذه الساعةُ -التي تُعْتَبَرُ من أفضلِ الساعاتِ التي استطاعت أن تبقى حتى وقتنا هذا- تُمَثِّلُ واحدًا من أكثرِ النماذجِ إبداعًا ضمنَ مجموعةِ الساعاتِ الشمسيَّةِ الرأسيَّةِ المركَّبة، وفي الزاويةِ السفليَّةِ على اليمينِ في القسمِ العلويِّ للوحةِ الرخاميَّةِ المثبَّتة على الحائطِ بسبعةِ مساميرٍ معدنيَّةٍ توجدُ كتاباتٌ قصيرةٌ مكتوبةٌ بخطِ الثُلُثِ، أما القسمِ العلويُّ فنجدُ مكتوبًا عليه:

"أثر "ساعات زاده (Saatzâde)" محمد عارف المكلف بضبط الوقت"

أما في الزاوية الجنوبية فنجد مكتوبًا عندها:

"رسمه الدرويش "يحيى محيي الدين" المؤت بالجامع الجديد."

(٢٤٣) أحد أنواع الحجارة التي تستخدم في البناء، يشد صلابته مع الزمن، وتوجد به فراغات صغيرة، يسهل تشكيله، خفيف وذو لون فاتح.

(٢٤٤) عبد الله كُرْزَان (Kur'an)، "مجمع السلطنة بهرمانة في أسكودار"، مجلة جامعة "بورغازليجي" (Boğaziçi)، إسطنبول - ١٩٧٥م، الجزء الثالث، ص ٤٤.



الساعة الشمسية في جامع "السلطنة مهرة" (أسكودار/إسطنبول)



وفي السطر الأخير نجد عبارة السّنة السلطانيّة (١١٨٣هـ/١٧٦٩م)<sup>(٢٠)</sup>.

\*\*\*

وأمام الباب الذي يُفضي إلى هذه النقطة من فناء الجامع يلتفت الانتباه وجود منصّة حجرية، كانت في السابق موجودة بجانب "مرفاً أسكودار الكبير"، ثم نقلت إلى هذا الموضع لاحقاً، فكان السلطان بعد أن يصل إلى "أسكودار" ينزل من قارب السلطنة، ثم يصعد درجات هذه المنصّة الحجرية الرائعة كي يرتقي إلى سيارته.

\*\*\*

أما بابُ الفناء الذي يُفضي إلى شارع "سلمان آغا" فنجد إلى يمينه ضريحاً صغيراً، حيث يوجد بهذا الضريح العديد من المقابر التي تعود إلى عائلة "جاغالا زاده" (*Cağalazade*)، ومن بين الذين دُفِنوا في تلك المقابر قبطان البحر "سنان باشا" -أخو زوج "السلطنة مِهْرَمَة" وهو نفسه الذي شيّد جامعاً باسمه في منطقة "بشيكناش" بإسطنبول أسماه جامع "سنان باشا" - كذلك نجد قبر "زهدي أفندي" الذي كان من أشهر الخطاطين البارعين في عهد العثمانيين، كما يوجد هنا أيضاً قبر الشيخ "عبد الرحيم

(٢١٥) الساعات الشمسية هي ساعات بسيطة ذات مؤشر معدني يأخذ شكلاً يرتبط بحركة الشمس، وهذه الساعات تظهر الوقت عن طريق تغير مكان هذا المؤشر فوق القاعدة الرخامية أو الحجرية أو المعدنية والتي تصنع بطريقة خاصة. وكانت هذه الساعات توضع على حوائط الجامع المواجهة للشمس من أجل تحديد أوقات الصلاة بشكل أكثر دقة. واعتباراً من أول صلاة بعد شروق الشمس وهي صلاة الظهر فقد كانت في الغالب هذه الساعات الشمسية التي توضع في الجوامع تضبط من أجل العمل. وتوجد إلى جوار الخطوط الموجودة بهذه الساعة الموجودة في جامع "السلطنة مِهْرَمَة" كتابة باللغة التركية العثمانية لأسماء الأبراج الفلكية مثل: المقرب والأسد والميزان والسنبلة والقوس والجدي. وأمام خط الظهر في هذه الساعة الشمسية يمكن أن نقرأ بوضوح العبارة التالية "خط الزوال" أما خط العصر فنقرأ أمامه عبارة "خط العصر الأول" و"خط العصر الثاني". (نُضِرْتُ جَامَ *Nisrüt Cami*)، الساعات الشمسية العثمانية، أنقرة، ١٩٩٠م، ص ٦٤ - ٦٥).



مِضَاءُ جَامِعِ "السُّلْطَانَةِ مَهْمَدَا" (أَسْكُودَارِ/إِسْطَنْبُولِ)



أفتدي" -والذي كان معروفاً بشيخ الأباطنية أو شيخ الأصفر- والذي يعود أصله إلى مدينة "قيصري" (Kayseri) (٢١٦).

### بساطة تليقُ ببنتِ السلطانِ

كذلك نجدُ من مزايا جامع "السلطانة مهريمة" أنه لم يخصص فيه مكانٌ لقبةٍ نصفيةٍ عند مدخله وذلك على عكس التصميم الذي نجدُ عليه جامع "شَهْزَادَه" -الذي أنشئ في العصر نفسه-.

ويعتبرُ هذا الجامعُ أولُ الأعمالِ التي ميّزتِ المعماري "سنان" من حيثُ تصميمه للمكانِ بناءً على أسلوبه الشخصي، فقد أبدعَ وابتدع في عمارة المساجدِ العثمانية فكرةً جديدةً، وهي ألا تنحصر مساحة المسجد على قدرِ مساحةٍ وشموليةِ القبة، بل كانت فكرته أن يزيدَ من مساحة المسجد أكثرَ من إطارِ القبة، فلا يتقيدَ حجمُ المسجد بحجم قُبته وإنما يتوسّع فيه عرضاً كما يريدُ ويضعُ القبةَ في الوسطِ دونَ أن يتكلّفَ شمولها للمسجد كُله، وفعلًا طبّق "سنان" هذه الفكرةَ على هذا المسجد (٢١٧).

ونجد القبابَ النصفيةَ والقبةَ المركزية التي تعلو الساحةَ الداخلية المربع الشكلَ محمولةً على أقواس حادةٍ مستندةٍ إلى حوائطٍ ودعاماتٍ صمّمتْ على شكلِ زهرة النفل، نلاحظُ أنَّ الساحةَ الداخليةَ للجامعِ

(٢١٦) كان الشيخ "عبد الرحيم أفندي" الذي يقع بيته في منطقة "اسكودار" يأتي أحياناً إلى حضرة السلطان من أجل أن يفسر له الأحلام، وفي إحدى المرات فسر له هذا الشيخ إحدى الرؤى على النحو التالي: "سيلحق الضرر بجسدكم من قبل جماعة الإنكشارية، وحيث إنه ليس من الممكن أن يتم قتلهم جميعاً فعلى الأقل من الممكن أن يتم تغيير زعيم الخاض وإزالة كلمتي "البلاد" و"عمامة الإنكشارية" من الوجود، إن هناك إشارةً وتنبهاً بخصوص هذا الأمر من العالم الغيبي"، بعد ذلك أمر السلطان بإعدام الشيخ قائلاً: "لقد اختلّ عقله وأصبح كلامه مصدرًا للفتنة".

حيث كان هذا في عام (١٦٣٧م). إن الأمر اللافت للنظر هو أن الشيخ "عبد الرحيم أفندي" قد تنبأ قبل مائتي عام من القضاء على طائفة الإنكشارية كيف إن هذه الطائفة ستكون في المستقبل منبعاً للخيانة والفساد اللذان سيهدمان الدولة

العثمانية! (هاسكان، المصدر السابق، ص ٢٦٥).

(٢١٧) "دوغان كُوبَان" (Dogan Kuban)، "مجمع مهرماء سلطان"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم،

إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.



منظر داخلي لجامع "السلطنة مهَرَمَة" (أسكودار/إسطنبول)





يغلب عليها الضوء الخافت إلى أقصى درجة لعدم وجود عددٍ كافٍ من النوافذ.

\*\*\*

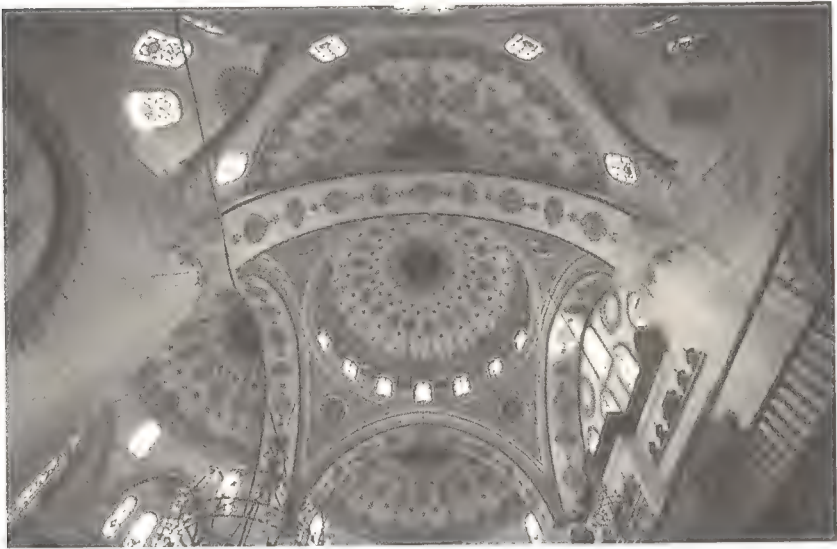
إن الزخرفة الأساسية التي في جامع "السلطانة مِهْرِمَاة" عبارة عن أعمالٍ فنيةٍ قد رُسِمَت بالقلم، وقد نُجِحت هذه الزخارف بأن منحت الجامع جمالاً وروعةً رسومٍ شرائط الزينة، ففي وسطِ قبة الجامع نجدُ أمامنا كتابةً تأخذُ شكلَ إطارٍ حيث تبدو تلك الكتابة ذات لونٍ أصفر -ربما تكون مكسيةً بطبقةٍ من الذهب- على خلفيةٍ سوداء -بخطِ الثلثِ الجليّ المستدير- على نمطِ القرنِ السادس عشر<sup>(٢١٨)</sup>.

وفي قلبِ المساحة التي تقع بين الإطارِ المحيطِ بالقبة والأقواس التي تربطُ القبة الرئيسة بالقباب الجانبية؛ توجدُ بكلِّ ركنٍ من الأركان الأربعة لوحاتٍ كبيرةٍ مكتوبٍ عليها أسماء "أبو بكر" و"عمر" و"عثمان" و"علي" (رضي الله عنهم أجمعين) كما نجد الزجاج الملون والأعمال الفنية الزجاجية موزعةً في أماكنٍ متعدّدةٍ من المبنى بحيث تؤمّن إضاءةً خاصّةً للقسم الداخلي من الجامع.

\*\*\*

إن الخاصية التي تلاحظُ في جامع "السلطانة مِهْرِمَاة" هي البساطة المطلقة، فخارج نطاقِ مبنى الجامع يندرُ وجودُ أعمالِ الزينة والنقش، وأما الحوائط الحجرية المبنية بحجرٍ (الكوفكي) -المقطع بدقة عالية وإتقانٍ محكم- فإننا لا نجدُ عليها أي نوعٍ من أنواعِ الزينة على الإطلاق، أما منبرُ الجامع فيُعتبرُ واحدًا من أكثرِ النماذجِ المعبرة عن فنِّ نحتِ

(٢١٨) إلخان أوزكجيجي (İlhan Özkeçici)، نظرة على شكل الزينة في الأضرحة الموجودة بجمع وجامع "السلطانة مِهْرِمَاة" بمنطقة (أسكودار). الندوة الدولية عن "أسكودار". إسطنبول - ٢٠٠٨ م، الجزء الثاني، ص ١٠٢ - ١٠٣.



منظر داخلي لجامع "السلطنة مَهْمَدَة" (أُسكودار/إسطنبول)



الحجر، حيث استطاعت الأشكال الرخاميّة الهندسيّة ذات الشباك أن تقدّم لنا منظرًا بديعًا في غاية الروعة والجمال.

\*\*\*

كذلك يلفت انتباهنا غياب أحد أشهر أشكال الزخرفة في ذلك العصر عن جامع "السلطنة مِهْرَمَة" ألا وهو استعمال الخزف، فقد بُني هذا المسجد في منتصف القرن السادس عشر وهذه هي ذات الفترة التي كان بها فن الخزف التركي في قمّة تألّقه وازدهاره، لذلك فإن غياب الأعمال الخزفيّة تمامًا عن جامع "السلطنة مِهْرَمَة" يُعتبر دليلًا على الرغبة القويّة التي كانت موجودة عند بناء هذا الجامع في التركيز على البساطة المطلقة وعدم الخروج عن إطارها.

وعلى العكس من الميل إلى الزخرفة والزينة -والذي نجده في كثير من الجوامع التي بنيت في تلك الفترة- فإن ما نلاحظه هو خلوّ كافّة أرجاء جامع "السلطنة مِهْرَمَة" من أي شكل من أشكال هذه الزخرفة، وقد كانت هذه البساطة هي ما أعطى الساحة الداخليّة لهذا الجامع طابعًا خاصًا، لكننا على الرغم من هذا البعد عن الزخرفة الذي نجده في جامع "السلطنة مِهْرَمَة" فإننا نجد أنّ الأعمال الفنيّة الزجاجيّة الملونة الموجودة بالأجزاء الأماميّة السفليّة لنوافذ الطابق العلويّ لهذا الجامع تُعتبر من الأعمال والنماذج الفريدة التي بقيت لنا من تراث القرن السادس عشر.

حيث إن هذه الزخارف التي رُسمت على النمط "الروميلي (rumili)"<sup>(٢٤٩)</sup> والنمط "خطائيلي (hatâili)"<sup>(٢٥٠)</sup> الشرقي والتي نجدها

(٢٤٩) نمط شائع في الزخرفة يعتمد على أشكال الحيوانات والنباتات.

(٢٥٠) نمط من الزينة يظهر في صورة خطوط متقاطعة على سيقان الزهور المتنوعة.

على تلك الأعمال الزجاجية سواء أكانت شفافة أو خضراء أو حمراء أو صفراء أو زرقاء أو بيضاء فإنها تمثل لنا صورةً لشخصيةً فنيةً مميزةً وتعتبر لنا كذلك في نفس الوقت عن العصر العثماني الكلاسيكي<sup>(٢٥١)</sup>.

### بابٌ منقطعُ النظرِ في الزخرفة

إننا في القرن السادس عشر وما سبقه لا نجدُ في الفنِ العثماني أعمالاً فنيةً خشبيةً على أبواب الجوامع الرئيسة لكننا نجد ذلك النوع من الزخرفة كان شائعاً جداً على أجنحة النوافذ في نفس ذلك القرن حيث كان يُصنَعُ هذا النوع في صورة أعمال هندسية نجمية مزخرفة على نمط الفن "الكوندكاري" (*kündekâri*)<sup>(٢٥٢)</sup> ومع ذلك فإنك ترى في جامع "السلطنة مِهْرَمَاءَ" نموذجاً منقطع النظر من أعمال الزخرفة الخشبية على الباب الرئيس للجامع، حيث تمثل لنا هذه الزخارف النموذج الأوحَد للفنِ العثماني من هذا النوع وعلى هذا الشكل.

إن الباب الرئيس في جامع "السلطنة مِهْرَمَاءَ" نجده يحمل ثلاث زخارف على الشكل التقليدي، وتعلو هذه الزخارف كتابات متنوعة، أما في الأقسام الوسطى والسفلى من هذا الباب فتوجد زخارف هندسية على طريقة الفن "الكوندكاري"، ويلاحظ أن البعض من هذه الزخارف الهندسية الصغيرة يأخذ أشكالاً نجمية، أما الحلبي الهندسية الأخرى التي توجد على الباب -والتي كانت غالباً ما تُصنَعُ من المعدن- فراها هنا مصنوعة من عاج الفيل، وإلى جانب الأجزاء ذات الأصدالة المعدنية الموجودة على الباب فإننا نجد أن مقبض الباب الجميل يُظهِرُ بوضوح فن "الباروك"،

(٢٥١) يَلْدِيزْ دَمِيرْإِيْزْ (Yıldız Demirel)، جامع "السلطنة مِهْرَمَاءَ" في أسكودار، دار نشر "صنعت دنياماظ (Sanat

(Dünyamiz)، إسطنبول، ١٩٨٠م، الجزء الرابع، العدد ٢٠، ص ٢٠.

(٢٥٢) أحد الفنون الجميلة التي تختص بالمشغولات الخشبية حيث يتم تمثيit قطع خشبية صغيرة ودقيقة مصنوعة من أخشاب أشجار صلبة ونخسية ومقاومة للرطوبة والحرارة مما يجعلها تغطي في النهاية تصميمًا هندسيًا.

كما نجدُ في الأقسام العليا والسفلى من القوائم الخشبيّة للباب زخرفة خشبيّة مختلفة مطعّمة على النمط الروميلي، حيث يُعتبرُ هذا الشكلُ من الزينة والزخرفة من الأنماط التي لا نصادفُها كثيرًا في أعمال الزينة التي تعودُ إلى القرن السادس عشر، وهكذا نرى أن هذا الباب البديع الخاصّ بجامع "السلطانة مهريّمة" يُعتبرُ أثرًا فنيًا عظيمًا يتميّزُ عن غيره من الأبواب التي تعودُ إلى ذلك العصر بما فيه من فنٍّ وإبداعٍ يجعله لافتًا للنظر. (٢٥٣)

\* \* \*

بالإضافة إلى ما سبق فإنّ هناك ملحوظة أخرى تثيرُ الاهتمام فيما يتعلّق بموضوع الزينة، فعند المدخل الذي يُفضي إلى مكان الصّفّة نجدُ على باب المنارة الواقع إلى اليسار كتابةً مزخرفةً بخطٍ كبيرٍ بارزٍ مكتوبٍ بها "لا إله إلا الله"، حيث لا تزال تمثل هذه الكتابة إلى اليوم عملًا فنيًا منقطع النظير من ناحية فنّ التطعيم والزخرفة، كما نجد أنه قد وُضِعَ بمنتهى البراعة أحجارٌ متنوّعةٌ ومختلفةٌ حمراء وملوّنة في الفراغات التي حول الكلمات وبين الحروف (٢٥٤).

وباختصارٍ فإنّ جامع "السلطانة مهريّمة" يُعتبرُ من الآثار القيّمة التي تركت طابعها على منطقة "أسكودار" وذلك بفضل بساطتها وروعيتها وجلالها الذي يليق ببيت السلطان.

### ضريحان بلا تاريخ أو كتابة عليهما

بالإضافة إلى المبنى الخاصّ بجامع "السلطانة مهريّمة" نجدُ أنّ هناك أيضًا ضريحانٍ إلى جانب ما تبقى لنا من آثار، أحدهما هذين الضريحين

(٢٥٣) ديميزليز، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢٥٤) "دوغان كوتان" (Doğan Kuban)، "مجمع مهرماه سلطان"، موسوعة إسطنبول من الأسس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ١٤٥٧ قوتئالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٦.

-والذي يقع في مواجهة البحر- يُعرَفُ بأنَّه ضريحُ "سنان الدين يوسف باشا"، وبناءً على ما يذكرُه المؤرِّخُ الفنِّي المرحوم "إسماعيل حقي قونيالي" فإنَّ هذا الضريحَ قد دُفِنَ فيه أربعةُ أشخاص، بنتٌ واحدةٌ وثلاثةُ رجال، ومن بين أولئك الرجالِ الثلاثةِ ابني السلطنةِ "مهرماه" من زوجها "رستم باشا" لكننا مع الأسفِ لا نصادفُ أيَّ تاريخٍ أو كتابةٍ تؤكِّدُ لنا هذه المعلومات لا على باب الضريح ولا على النعوش. <sup>(٢٥٥)</sup>

أما الضريح الثاني والموجود في فناء الجامع فهو ضريحُ الصدرِ الأعظم "إبراهيم أدهم صاكي زلي باشا"، وعلى باب هذا الضريح توجدُ الآيةُ الكرِمةُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقد كتبت بزخرفةٍ بدِيعَةٍ على طراز (جلي) مع تاريخ (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) <sup>(٢٥٦)</sup>.

وفي هذا الضريح نجد قبر "إبراهيم أدهم باشا" وابنه "غالب بك" إلى جانب ثلاثة أشخاص من نفس العائلة.

\*\*\*

وفي الزاوية الشمالية الغربية من جامع "السلطنة مِهْرْمَاة" وإلى اليمين من مكان الصَّفَّة نجدُ نعشاً يعتبرُ هو الآخر واحداً من أكثرِ الأعمالِ الفنِّيةِ المبهرةِ فيما يتعلَّقُ بالزخرفةِ الخشبيَّةِ على القبر، وفي الجهةِ الجنوبيَّةِ من هذا النعشِ المُحاطُ بالسورِ المقضَّبِ توجدُ كتابةٌ بخطٍ كبيرٍ وواضح على شكلِ خنجرٍ يقفُ في وضعيَّةٍ مائلةٍ بين حِلِيَّتَيْنِ مزخرفَتَيْنِ "إن هذا القبرَ يعودُ إلى "عثمان بك" ابن "رستم باشا" من زوجةٍ أخرى غير "السلطنة مِهْرْمَاة" والذي توفي عام (١٥٧٦م) <sup>(٢٥٧)</sup>.

(٢٥٥) أوزكججي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢٥٦) أوزكججي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢٥٧) أوزكججي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

### خمسُ قِطْعٍ من النقودِ الفِضَّةِ للطالبِ المجتهد

إلى الشمالِ من جامع "السلطنة مِهْرَمَاءَ" تقعُ مدرسةٌ ذاتُ ستِّ عشرة غرفة، وفي كتاب "تذكرة الأنبياء" يُذكرُ أنَّ هذه المدرسة قد بناها المعماري "سِنَانٌ"، وإذا كان من غير الممكن تحديدُ التاريخ الذي أُنتِشت فيه هذه المدرسة بِدِقَّةٍ فإن ذلك يرجعُ إلى عدمِ وجودِ كتابةٍ على المدرسة، إلا أنَّ الشكْلَ العامَّ للمبنى وخصائصَ تخطيطِهِ الهندسيِّ -التي تشبه كثيرًا مدرسة "خاصِكِي"- تُظهِرُ لنا أنَّ المدرسةَ والجامعَ اللذين يعودان إلى "السلطنة مِهْرَمَاءَ" قد تمَّ إنشاؤُهُما في وقتٍ واحدٍ وعلى التوالي فيما بين عامي (١٥٤٠-١٥٤٨م)، إن هذه المدرسة -التي توجدُ على ارتفاعٍ يبلغُ (٤,٤٠) متر بالنسبة لمستوى سطحِ المنطقةِ الموجودِ بها "ميدانِ ميناءِ أسكودار" ولها أبعادُ تقاربُ (٣٠ X ٣٠) متر- تتميزُ ببناءٍ هندسيٍّ متجانسٍ يمتدُّ بشكلٍ دقيقٍ للغاية على المحورِ الشرقي الغربي<sup>(٢٥٨)</sup>.

إن البابَ العاليَ والعظيمَ لهذه المدرسة -والذي يفتُحُ على فناءِ الجامع- لا نجدُ عليه أيَّ كتابةٍ، أما قناطرُ وأقواسُ هذه المدرسة فقد صُنِعتْ من الرخامِ الأحمرِ والأبيض، وعند العبورِ من البابِ الرئيسِ لمدرسة "السلطنة مِهْرَمَاءَ" نجدُ فناءً على شكلٍ مستطيلٍ تتوسطه مِضْبَاءٌ من الرخام، وفي مواجهةِ هذا البابِ توجدُ قاعةُ التدريس، وهذه المدرسة التي بنتها "السلطنة مِهْرَمَاءَ" -والتي تُعرَفُ باسمِ "المدرسةِ الرصاصيةِ" بسببِ وجودِ تسعِ عشرة قَبَّةً بها، مغطاةٌ كُلُّها بالرصاص- تتميزُ كذلك بأنَّ كُلَّ الأحجارِ المستخدمةِ في بنائها من حجرٍ (الكوفكي)<sup>(٢٥٩)</sup>.

\*\*\*

(٢٥٨) كُوزَان، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢٥٩) خضكان، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٢٤١.

لقد كان هناك نظامًا بالمدرسة يقضي - باستثناء الظروف ذات العذر الشرعي - بأن يحصل المدرّس الذي لا يخلّ بواجبات وظيفته على خمسين قطعة نقود فضّية، كذلك فقد كان يتمّ صرف مبلغ خمس قطع فضّية لأكثر الطلاب اجتهدًا بين زملائهم، كما كان يتمّ منح قطعتين من النقود الفضّية إلى كلّ طالب من الطلاب الأربعة عشر الذين يواظبون على الدراسة في المدرسة ولا ينقطعون عنها إلا لعذر، وفي أوقات تناول الطعام كان الطلاب ينزلون من سلالم باب المدرسة حيث يتجهون إلى مكان تقديم الطعام، لتناول الشوربة هناك، وقد اندثر هذا المكان ولم يبق منه شيء في عصرنا الآن<sup>(١٦١)</sup>.

لقد تحوّلت هذه المدرسة من مركز للعلم والخير إلى مأوى للمُدمنين، وذلك بعد الإهمال الشديد الذي تعرّضت له إثر تطبيق القانون القاضي بإغلاق الأضرحة والتكايا والمدارس الدينيّة، حتى إن قبائها بدأت تنهار مع مرور الوقت، وحتى إن الدار التي كان يتمّ فيها تقديم الطعام مجانًا - والتي كانت تقع إلى يسار المدرسة - تمّ هدمها من قبل رئيس حيّ أسكودار "عزت تشقّناز" بحجّة فتح الطريق، وفيما بين عامي (١٩٥٨ - ١٩٦١م) تحوّل مبنى المدرسة بعد أن تمّ ترميمه ليصبح تابعًا لوزارة الصحة بقرار من المديرية العامّة للأوقاف، حيث صار مبنى المدرسة بعدها وحدة صحيّة اجتماعيّة بحي "أسكودار" لخدمة الأطفال الرضع وأطفال المدارس، أما فناء المدرسة فقد تمّ تغطيته بالزجاج، في حين أنّ قاعة الدرس قد تحوّلت إلى مكان للكشف على المرضى، وفي عام (١٩٧٥م) تحوّلت المدرسة إلى مصحّة لعلاج الأمراض النفسيّة، ويلاحظُ



على هذه المدرسة أنها تعرضت لتغييرات كثيرة من الداخل لكنها حافظت على شكلها ورويقها المعماري من الخارج.<sup>(٢٦١)</sup>

والى اليوم لا تزال مدرسة "السلطنة مهريماة" مستمرة في القيام بنشاطها في صورة مركز صحي يحمل اسم السلطنة "مهريماة" التي أنشأتها قبل أكثر من أربعة قرون.

### السبيل العام الذي تم تأجيره

وعند جهة القبلة بجامع "السلطنة مهريماة" حيث يلتقي المنحدر الكبير مع شارع "سبيل سلمان أغا" نجد مدرسة الصبيان (أي: الكتاب)، وهذه المدرسة -التي تُعتبر هي الأخرى من أعمال المعماري "سنان"- قد سُيِّدَتْ بالكامل من الحجر المُقَطَّع، إنَّ مدرسة الصبيان هذه التي أنشأها "سنان" جعلها منقسمة إلى قسمين متجاورين، قسم صيفي وقسم شتوي وتعلوهما قبة، أما القسم الصيفي فيتميزُ بشكلٍ مربعٍ ولا نجد أي كتابة على بابهِ المقوَّس الذي يفتِّح على فناءٍ صغيرٍ وله نافذة تتألف من جزءٍ واحدٍ وتطلُّ على المنحدرٍ وتأخذُ شكلَ صالونٍ كبيرٍ، وأمَّا القسمُ الشتوي من مدرسة الصبيان فتوجدُ في الجزء السفلي منه نافذتان تطلَّان على كلا الشارعين، في حين أن الجزء العلوي من هذا القسم توجدُ به نافذة واحدة، ويلاحظُ أنَّ تلك النوافذ الموجودة سواء في القسم العلوي أو السفلي قد صنعت من العجس،<sup>(٢٦٢)</sup> كما تتميزُ النوافذ السفلية بأنها محاطة بسورٍ ذي قضبان حديدية ذات شكلٍ مكوَّرٍ، وأيضًا يتميزُ القسمُ

(٢٦١) قوتياي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٩٠.

(٢٦٢) حيث كان هذا القسم مفتوحًا من جهته الأمامية فقط ويوجد في الجهة الداخلية أو الخارجية من البناء، كما كان يتميز بصفة عامة بوجود قوس أو قنطرة معمارية.

الشتوي من هذه المدرسة بشكله الخارجي الذي يختلف تمامًا عن الشكل الخارجي الخاص بالقسم الصيفي الموجود بنفس المدرسة. (٢٦٣)

والى اليوم لا تزال مدرسة الصبيان تلك تقوم بنشاطها وإن كان في صورة مكتبة عامة للأطفال.

\*\*\*

أما السبيل العام الذي أنشأته "السلطانة مِهْرْمَاة" في نفس العام الذي تم فيه بناء الجامع الذي يحمل اسمها فنجده في داخل الصالون الكبير الموجود تحت القسم الشتوي من مدرسة الصبيان، حيث يقع هذا السبيل في مكان التقاء الشارعين عند جهة القبلة الموجودة بالجامع، لقد تعرض هذا السبيل للتدمير على مر الزمان إلى أن تم ترميمه من قبل السلطان "محمود الثاني" سنة (١٨٣١م) لكن هذا السبيل الذي تم إنشاؤه بالكامل من الحجر المقطع لم يبق لنا منه الآن أي شيء أو أثر أو علامة أو كتابة توضح لنا تاريخ إنشائه أو تاريخ ترميمه، وفي مكان الكتابة القديمة نجد أنه قد وضعت بعد ذلك كتابة جديدة بعنوان "سبيل السيدة الثالثة" وذلك بتاريخ عام (١٧٢٨م) (٢٦٤) وقد كان للسبيل الذي أنشأته "السلطانة مِهْرْمَاة" حوض وواجهة مزخرفة من حجرتين متلاصقتين، كما تم عمل ونحت ثلاثة تجاويف أحدها داخل قوس الصالون واثنان في الجدارين الجانبين. (٢٦٥)

(٢٦٣) خضكان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩١٨.

(٢٦٤) إن سبيل "السيدة الثالثة" والذي شيد من قبل "شرمي وابعة قادن" (Sermet Râbia Kadın) "الزوجة الثالثة للسلطان أحمد الثالث" يقع في الزاوية التي يتلاقى فيها شارع جامع "الشيخ" بشارع "سلمان أغا بستان" وذلك في منطقة "أسكودار"، وقد تهدم هذا السبيل بشكل كامل في عشرينيات القرن العشرين وذلك بعد أن كانت حالته قد تدهورت بفعل الزمن، وفي عام (١٩٣٥م) تم وضع الكتابة المدونة التي كانت تحض هذا السبيل والتي كانت ملقاة على الأرض على سبيل "السلطانة مِهْرْمَاة" الذي تم تغيير مكانه فيما بعد. (أورمان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٢).

(٢٦٥) خضكان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩١٨.

إن الصالونَ الموجودَ به هذا السبيل التاريخي قد تمّ تأجيره من قبل مديرية الأوقاف سنة (١٩٦٧م)، ومع الأسف فإنّ مكانَ هذا السبيل قد تحوّل اليوم إلى مكانٍ يُستخدَم كمحلٍّ لبيع العسل!

\*\*\*

وتحت الحائط الرئيس لمجمّع "السلطانة ومهرّمة" والذي يُطلّ على ساحة "ميناء أسكودار" نجدُ هناك سبيلًا آخرًا، حيث يبدو أمامنا قوسُ هذا البناء الأثري البديع الذي يمثله لنا هذا السبيل مزخرفًا بالرخام الأبيض والوردي، كذلك يميّز هذا الأثر بما عليه من كتابةٍ بديعةٍ مزينةٍ برسوماتٍ بارزةٍ تصوّر ورقَ الشجر والورود وأزهار (التوليب)، وهذه الكتابة التي نراها على السبيل عبارة عن ثلاثة أسطر مكتوبةٍ بأكثر نماذج خطِ الثلث روعةً وجمالًا في ذلك العصر:

ما أجمل نبع ماء الحياة هذا

فمن كانت قلوبهم عطشى ليشربوا على الدوام من هذا الماء الجاري من هذا السبيل الذي ينّث "السلطانة ومهرّمة" والتي تُشبّه الملكة "بليقيس" لقد أراد الله أن يجري ماء الحياة هذا على يديها في هذا التوقيت.

إن تلك الكتابة الموضوعّة على هذا السبيل التاريخي والموجودة مباشرةً أمام الميضأة وإن كانت تُشير إلى أن السبيل قد أنشئ عام (١٦٨١م/١٠٩٢هـ)، إلا أنّ هذا السبيل قد أنشئ في الحقيقة مع الجامع في نفس الوقت، حيث إنّ هذه الكتابة قد وُضعت بعد عملية الترميم التي أُجريت للسبيل عام (١٦٨١م)<sup>(٣٦٦)</sup>.

(٣٦٦) على الرغم من أن "ميدان الميناء" لم يكن قد تفتت توسعته في القرن السابع عشر فإن الحائط الشمالي لفتاه الجامع عند بنائه لم يكن يطلّ مباشرةً على مضيق البسفور، أي إن وصيف الميناء كان يقع بين الجامع والبحر، ونجد أن رواية الرحالة "أوليا شلي" عن وجود سُلج في شرق فتاه الجامع يستخدم من أجل أن يوصل بالميدان تعتمد على هذا التفسير، بالإضافة إلى ذلك فإن الحافة المزينة التي توجد أسفل إفريز السبيل المزخرف برسم لزهرة الزنبق قد شُغّت إلى نصفين بسبب الكتابة المدونة التي تم وضعها، إن هذا الإفريز الذي يعود إلى القرن السادس عشر لا نراه بحققتناجماً شكلياً بين اللوحة المكتوبة وبين الحواف المزينة. (كووان، المصدر السابق، ص ٤٩).

## القصرُ العظيمُ المُشَيَّدُ على هضبةِ السلطانِ

قامتِ "السلطانة مِهْرَمَة" بتكليفِ المعماريِّ "سِنَان" ببناءِ قصرٍ عظيمٍ على الهضبةِ المطلةِ على مضيقِ "البوسفور" خلفَ المجمِّعِ الخيريِّ، حيث احتلَّ هذا القصرُ بملحقاته مساحةً واسعةً للغاية، ولقد تعرَّضَ هذا القصرُ مع الوقتِ إلى التدميرِ والخرابِ لدرجةٍ أنَّه قد صارَ في الأزمنةِ الأخيرةِ يُستخدمُ كساحةٍ للعبِ كرةِ القدم، ولم يَبْقَ لنا من هذا القصرِ في السنواتِ الأخيرةِ سوى المكانِ الذي كانَ مخصَّصًا كمطبخٍ بالإضافةِ إلى المدخنةِ والحمامِ، حيث بإمكاننا اليوم أن نرى بقايا هذا القصرِ في الجانبِ الأيمنِ من قطعةِ الأرضِ التي كانَ مقامًا عليها، وبعدَ أن أخذَ هذا القصرُ العظيمُ اسمَ بنتِ السلطانِ فقد أصبحَ يطلقُ على تلكِ الهضبةِ والمنطقةِ كلها اسمَ "هضبةِ السلطان" ولقد كانَ "رستم باشا" من بعد عام (١٥٥٣م) عندما تولَّى منصبَ الصدرِ الأعظمِ للمرَّةِ الثانيةِ وحتى وفاتهِ عام (١٥٥٥م) يُقيَّمُ في هذا القصرِ الصيفيِّ الذي يعودُ إلى "السلطانة مِهْرَمَة" ويقعُ فوقَ هضبةِ السلطان.

## النزلُ الكبيرُ الذي تمَّ تفجيرُهُ بالديناميت

في ساحةِ الميناءِ وفي مواجهةِ سلالِمِ مدرسةِ "السلطانة مِهْرَمَة" المفضيةِ إلى الساحةِ يوجدُ نزلٌ كبيرٌ للمسافرين قامَ ببنائه المعماريُّ "سِنَان" مع الجامع، حيث نجدُ أنَّ هذا النزلَ كان يُعرَفُ في المصادرِ التاريخيةِ باسمِ "الخان الرصاصي"، أما لدى الشعبِ فقد كانَ هذا النزلُ يسمَّى باسمِ (خان الفاتح)، وقد تميَّزَ بناءُ هذا النزلِ بالشكلِ الرباعيِّ كما نجدُ أنه قد شيدَ كذلك من الحجرِ المقطَّعِ المتساوي.

وفي كتابه الشهير "سياحت نامه (Seyahatnâme)" يذكر لنا الرحالة "أوليا شليبي" أن منطقة "أسكودار" كان بها أحد عشر نزلاً للمسافرين أما أحدها فيقع على ساحل البحر الذي يُطلّ عليه الجامع الواقع على رأس الميناء، حيث يشبه هذا النزّل الكبير القلعة المتينة، فيُشْبِعُ لإيواء المسافرين مع جيادهم كما يضمّ كذلك مائة موقدٍ ومائة طاولة، وهذا النزّل عبارة عن مسكنٍ مغطى بالكامل بالرصاص وهو مفتوحٌ للقادمين والعابرين ليقدمَ لهم المأوى دون مقابل<sup>(٢٦٧)</sup>.

ويعتقد أن هذا النزّل الكبير قد أعيدَ تخطيطه من جديدٍ في عهد السلطان "سليم الثالث" ليستخدمَ كمخزنٍ للقمح، وفي حين كان يبدو لنا هذا النزّل -في الصور الفوتوغرافية التي تعودُ إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر- بنافذة تطلُّ على الهضبة وسطح مائلٍ مزدوج، فإننا نجدُه قد تحوّل في عشرينيات القرن العشرين إلى خرابٍ، أما ما تبقى من مبنى هذا النزّل فقد تمّ تدميره على يد "عز الدين تشغبار" الذي كان يعملُ كرئيسٍ لحَيِّ "أسكودار" عام (١٩٣٠م).

### دارُ إعدادِ الطعام التي هُدمَتْ بحجّةِ شق الطريق

من بين مباني مجمع "السلطنة مِهْرَمَاء" يوجد أيضاً مبنى تمّ تكليف المعمارى "سَنَان" بإنشائه وهو المبنى الذي يضمّ دار السلطنة مِهْرَمَاء لإطعام الفقراء وغرفة إعداد الطعام (بالتركية: "طَبْخَانَه (Tabhane)")<sup>(٢٦٨)</sup> وعلى الرغم من أن هذا الأثر الذي لم يتبقَّ لنا منه شيء إلى الآن لا يمكن كذلك تحديد مكانه بشكلٍ دقيقٍ، إلا أنه يُعتقد أن مكانه كان في الزاوية

(٢٦٧) خضكان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٧٩.

(٢٦٨) كلمة "طَبْ" (Tab) تعني بالفارسية الحركة والقدرة، أما كلمة "طَبْخَانَه" فهي تشير إلى مشافي العصر القديم. وخلال العصر العثماني كان يوجد في إسطنبول وحدها حوالي عشرين "طَبْخَانَه" أنشئت تقريباً إلى جانب كل جامع كبير بحيث كانت هذه المؤسسة توفرُ الملجأ والحماية للمحرومين.

اليمنى من البقعة التي يلتقى عندها شارع "المدرسة الرصاصية" بشارع "ميناء الباشا"، وبناءً على الرسم الهندسي للمبنى فقد كان يوجد سبيلٌ في الطرف الأيمن لباب المدخل، وقبل هذا الباب كان يوجد مدخل إلى مكان تناول الطعام وهو مغطى بقبّة كبيرة، أما الجانب الأيمن من المبنى فقد كان ينقسم إلى قسمين، أحدهما فيه المطبخ، والقسم الآخر فيه فرنٌ من أجل إعدادِ أحدِ أنواعِ الخبزِ المسماةِ "فودلا" (Fodla) <sup>(٢٦٩)</sup>، ولقد كان هذا القسمُ من المجمّع الخيريّ مغطى بقبّتين صغيرتين بكلٍ منهما مصباحٌ معلقٌ بالسقف، وإلى الخلف من دارٍ لإطعام المحتاجين وعلى الشارعِ كانتْ تقعُ مخازنٌ للذخيرة تتكوّن من ثلاثة أقسام. <sup>(٢٧٠)</sup>

وقد خصّصَ "السلطان القانوني" و"السلطانة مِهْرَمَاة" العائداتِ القادمة من بعضِ القرى الموجودةِ في الجانبِ الأوروپيِّ والتي تعودُ ملكيَّتها إليه لتكونَ أموالها مخصصةً من أجلِ الإنفاقِ على هذه الدارِ المخصصةِ لإطعام المحتاجين.

ويقولُ لنا الرحالةُ "أوليا شليبي" في كتابه الشهير "سياحت نامه" وهو يحدثُنا عن دورِ إطعامِ المحتاجين الموجودةِ في منطقةِ "أسكودار" موضحاً أن هذه الدور تبدأ بدارِ "السلطانة مِهْرَمَاة" لإطعامِ المحتاجين والتي يحكي لنا عنها ما يلي:

"في دارِ "السلطانة مِهْرَمَاة" لإطعامِ المحتاجين والتي توجدُ عند مقدمة الميناء كان يُقدّمُ الطعامُ لكلِّ شخصٍ مرّتين كلَّ يوم، وفي كلّ مرّة كانت تقدّمُ للفردِ صينيّة نحاسيّة فيها شوربة القمح وخبزٌ مع شمعة لكلِّ ليلة، كما كان يُقدّمُ لكلِّ جوادٍ علفٌ كصدقة

(٢٦٩) نوع من الخبز يصنع من الدقيق ذى النخالة، وكان هذا الخبز يأخذ شكل فليرة مفلطحة وكان يُقدّم في الدور القديمة المخصصة لإطعام المحتاجين حيث كان يُقدّم بها هذا الخبز للطلبة والموظفين والفقراء.

(٢٧٠) خضكان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٨٦.

بلا مقابل، وإذا ما بقي الضيف لأكثر من ثلاثة أيام فلا يقدم له شيء، حيث كان هذا هو شرط الوقف. (٢٧١)

وهذا يعني أنه لا يجوز للفرد أن يظل أكثر من ثلاثة أيام في دار إطعام المحتاجين، فالمرء لا يمكن أن يُعتبر ضيفاً لأكثر من ثلاثة أيام.

\*\*\*

وفي يوم العشرين من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٧٢٢م) اندلعت النيران من أحد الدكاكين المجاورة لجامع "السلطنة مهريمة" في "أسكودار"، ولم تقتصر النيران على المنازل والحوانيت التي كانت بجوار الجامع بل امتدت أيضاً إلى دار إعداد الطعام التي أنشئت من قبل "السلطنة مهريمة"، (٢٧٢) كذلك فقد امتدت النيران إلى السوق وإلى ورشة لتصنيع الأحذية بالإضافة إلى حمام صغير حيث احترقت كل هذه الأماكن نتيجة لهذا الحريق. (٢٧٣)

وقد شُيِّدت أبنية جديدة على أرض دار إطعام المحتاجين التي صارت خراباً، ومن المحتمل أن الانقراض التي هُدمت عام (١٩٣٦م) أثناء توسعة الطريق، (٢٧٤) والتي ربما كانت تشكّل مبنى دار إطعام الفقراء بالنظر إلى رسمها الهندسي -ربما كانت هي- مطبخ دار الإطعام بالوقف الذي أنشأته "السلطنة مهريمة". (٢٧٥)

أما الحمام المزدوج الذي أنشأته "السلطنة مهريمة" فلم يتسن لأحد أن يتأكد من ارتباطه بالوقف بشكل واضح، ولكنه يُذكر في بعض المصادر

(٢٧١) فوثائي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤٥.

(٢٧٢) كان هذا الجزء من السوق مخصصاً لبيع الأحذية والتمال.

(٢٧٣) مصطفى جزاز، الكوارث الطبيعية والحرائق التي دمرت المباني في مدينة إسطنبول في العصر العثماني،

بحوث ودراسات تاريخية عن الفن التركي الجزء الأول، إسطنبول - ١٩٦٣م، ص ٣٥٠.

(٢٧٤) فوثائي، يذكر أن بقايا المبنى مع بقايا خان التوافل قد هُدمت عام (١٩٣٠م).

(٢٧٥) أوزمان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤١.

التاريخية ويوصف بأنه كان حُمَّامًا صغيرًا، وهذا الحمامُ قد تمَّ هدمه عام (١٩٩٤م) وأقيم مكانه مبنى يُستخدم اليوم كدكان ولم تعد تربطه - باستثناء شكله الخارجي - أي علاقة بأصل المكان. (٢٧٦)

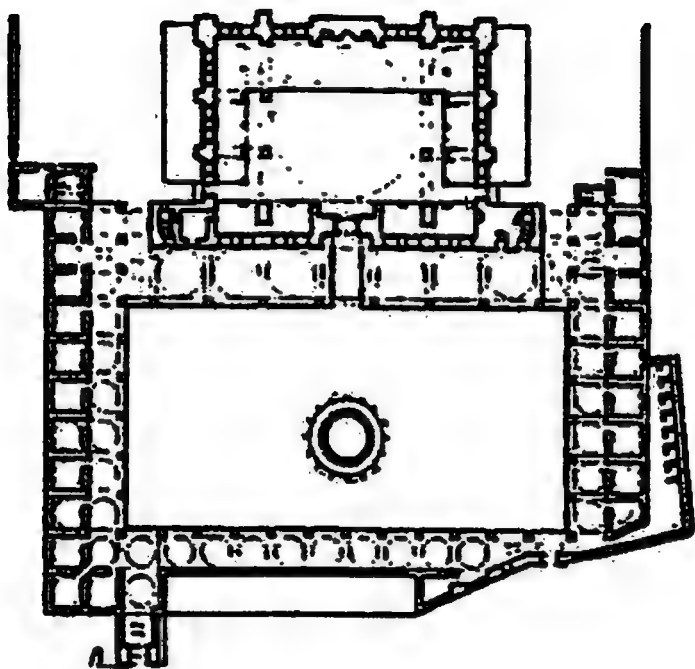
علاوة على ذلك نجد أن الأبنية الخشبية التي كانت أولًا في إحدى نواحي الفناء المطلّة على شارع "سلمان آغا" قد احترقت في عصر السلطان "عبد المجيد" (١٨٣٩-١٨٦١م)، أما مبنى الساعة (تعيين الوقت) فقد أمر بإزالته عام (١٩٥٦م) بدعوى إعادة تخطيط المكان

### مجتمع "السلطنة مِهْرَمَاة" في "أدْرَنه قَابي"

بعد فترة تتراوح ما بين العشرة والعشرين عامًا من بناء المجتمع الخيري الذي أمرت "السلطنة مِهْرَمَاة" بإنشائه في منطقة "أسكودار" قامت "السلطنة مِهْرَمَاة" كذلك بتكليف المعمارِي والفنان الشهير "سَنان" بإنشاء مجتمع آخر يحمل أيضًا اسمها، حيث نجد أن هذا المجتمع الثاني قد شُيّد في "أدْرَنه قَابي" في الجهة الداخلية لأسوار (تيودوسيوس الثاني) وذلك بالقرب تمامًا من باب القلعة المعروفة باسم "باب أديرنة"، وبالإضافة إلى الجامع الذي يتضمّنه هذا المجتمع الخيري والذي استمر بناؤه ثلاث سنوات فقد كان يوجد كذلك ضمن ذلك المجتمع الخيري مدرسة دينية وحمام مزدوج ومدرسة للصبيان وسوق تضم عددًا كبيرًا من الحوانيت، هذا إلى جوار ضريح وسيل عام.

وكما يفهم من الأمر المُرسَل إلى قاضي إسطنبول "برفيز أفندي" فإن المسؤولين عن الأوقاف الصدر الأعظم السابق "قره أحمد باشا" كان قد أخذ في إعداد وتجهيز ما يلزم من أجل بناء جامع بالقرب من "أدْرَنه





مخطط جامع ومدرسة "أدژنه قايبي" (استانيول)



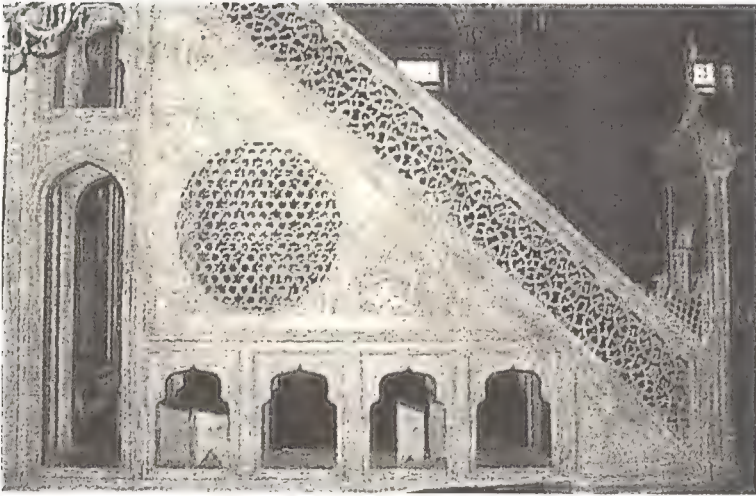
قَابِي"، إلا أَنَّهُ لم يَتَمَّ السَّمَاخُ بِنَاءِ هَذَا الْجَامِعِ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي نَفْسِ هَذَا الْمَكَانِ أَنْ يَتَمَّ إِنْشَاءُ جَامِعٍ آخَرَ يَحْمِلُ اسْمَ ابْنَةِ السُّلْطَانِ، وَقَدْ تَمَّ الْإِنْتِهَاءُ فِي عَامِ (١٥٦٦م) مِنْ بِنَاءِ هَذَا الْجَامِعِ الَّذِي ابْتَدَأَ إِنْشَاؤُهُ عَامَ (١٥٥٣م)، أَمَّا لَائِحَةُ الْبُنُودِ الَّتِي بِمَقْتَضَاهَا يَتَمَّ الْعَمَلُ فِي هَذَا الْوَقْفِ فَقَدْ نَظَّمْتُ وَتَمَّ إِقْرَارُهَا بَيْنَ عَامِي (١٥٧٠-١٥٧١م). (٢٧٧)

• • •

إِنَّ جَامِعَ "السُّلْطَانَةِ مِهْرَمَاة" الْمَوْجُودَ فِي "أَدْرَنَةُ قَابِي" يَحْتَلُّ مَكَانَةً خَاصَّةً فِي فَنِّ الْمَعْمَارِيِّ "سِنَان"، فَتَصْمِيمُ الْبِنَاءِ الْخَاصِّ بِهَذَا الْجَامِعِ يَمَثِلُ مَعَ "السُّلَيْمِيَّة" -بَلْ رُبَّمَا حَتَّى يَمَثِلُ أَكْثَرَ مِنْ السُّلَيْمِيَّة- الْعَبْقَرِيَّةَ الْفَرِيدَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي تَصَامِيمِ الْمَعْمَارِيِّ "سِنَان"، إِنَّ الْفَنَّانَ الْكَبِيرَ "سِنَان" قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ رَفْعِ الْقَبَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي يَبْلُغُ قَطْرُهَا عَشْرِينَ مِتْرًا وَالَّتِي تَسْتَبْدُ إِلَى نِظَامٍ مَرْتَبِعٍ حَامِلٍ لِلْبِنَاءِ بِحَيْثُ جَعَلَهَا مَحْمُولَةً عَلَى كُلِّ الْمَبْنَى وَلَيْسَ فَقَطْ عَلَى طَارَةِ مَعْدَنِيَّةٍ أَوْ خَشَبِيَّةٍ بَلْ جَاءَ رَفْعُهَا بِالِاشْتِرَاكِ مَعَ كُلِّ نِظَامِ الْقُوسِ الْمَعْمَارِيِّ الْحَامِلِ لِلْبِنَاءِ، لَقَدْ اسْتَطَاعَ "سِنَان" أَنْ يَجْعَلَ بِنَاءَ الْجَامِعِ يَبْدُو سَوَاءً مِنَ الدَّخْلِ أَوْ مِنَ الْخَارِجِ وَكَأَنَّهُ عَلَى شَكْلِ قَفْصٍ مَعْمَارِيٍّ فِي غَايَةِ الرُّوعَةِ، كَذَلِكَ فَقَدْ نَجَحَ "سِنَان" فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فِي أَنْ يَخْلُقَ مِنَ الْقَبَّةِ -الَّتِي تَأْخُذُ شَكْلًا شَبِيهًا بِالْمَرْتَبِعِ وَمِنْ دَاخِلِ مَجْمُوعَةِ الْأَقْوَاسِ- صُورَةً تَبْدُو وَكَأَنَّهَا سِتَارَةٌ مُضِيئَةٌ، حَيْثُ اسْتَعْدَمَ "سِنَان" فِي ذَلِكَ عِدَدًا كَبِيرًا لِلْغَايَةِ مِنَ التَّوَافِدِ، وَهَكَذَا فَإِنَّ مَا أَنْجَزَهُ الْمَعْمَارِيُّ "سِنَان" وَمَا أَحْدَثَهُ مِنْ تَأْثِيرٍ -بِوَاسِطَةِ هَذَا الْقَفْصِ الْمَعْمَارِيِّ الَّذِي يَجَسِّدُهُ أَمَامَنَا هَذَا الْمَبْنَى الْمَصْنُوعُ مِنَ الْحَجَرِ وَالْقَرْمِيدِ وَالْمَغْطَى بِقَبَّةٍ- يُعْتَبَرُ قِمَّةً مَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ وَغَايَةً مَا يُمْكِنُ إِبْدَاعُهُ فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ. (٢٧٨)

(٢٧٧) سَخَاوِي أَيْجَه (Semavi Eyice)، "مَجْمَعُ وَجَامِعِ أَدْرَنَةُ قَابِي (Edirnekapi)"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الدِّينَانَةِ الثَّرِيَّةِ، إِسْطَنْبُول - ١٩٩٤م، الْجُزْءُ الْعَاشِرُ، ص ٤٤٦.

(٢٧٨) كُوتَانُ، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، الْجُزْءُ الْخَامِسُ، ص ٤٥٤.



منبر جامع "آدِرْنَه قَایِی" (اسطنبول)





جامع ومدرسة "السلطنة مِهْرْمَاهُ" (أَدِرْنَه قَايِي/إِسْطَنْبُول)



## جامع مضى وواسع

يمكن الدخول إلى فناء جامع "السلطنة مِهْرَمَة" الواقع في منطقة "أُذْرَنَة قَابِي" من خلال السلم الموجود أسفل البناء العالي الذي يقع إلى جوار عُرْفِ المدرسة الدينية بسبب كونه مرتفعاً عن مستوى الشارع، وهذا الفناء الذي يُشبه فناء جامع "صوكوللو محمد باشا" الواقع في منطقة "كديرجا" نجده محاطاً من ثلاث جوانب بالأروقة، أما الطرق القادمة من الأبواب الموجودة في الزوايا الثلاث الأخرى من الفناء فنجدها تلتقي عند الميضأة الموجودة في الوسط، حيث تقع هذه الميضأة في وسط الفناء ولها حوض واسع وجميل من الرخام وقد غطاه سقف رخامي مستند إلى ستة عشر عمود رخامي<sup>(٢٧٩)</sup>.

إن مكان الصفة بجامع "السلطنة مِهْرَمَة" ينقسم إلى سبعة أقسام نجدها مغطاة بقبّة، أما أقواس الأروقة فتستند إلى أعمدة، حيث نلاحظ أن اثنين من هذه الأعمدة مصنوع من الجرانيت أما بقية الأعمدة فمن الرخام.

\*\*\*

تتميز شرفة المئذنة الوحيدة بجامع "السلطنة مِهْرَمَة" الموجود في منطقة "أُذْرَنَة قَابِي" بأنها قد بُنيت من الحجر المقطع<sup>(٢٨٠)</sup> كما نجد أن مئذنة الجامع تأخذ شكل مخروط مصنوع من الرصاص، وكما يلاحظ

(٢٧٩) أُوذُم يُوجَل (Erdem Yücel)، "جامع أُذْرَنَة قَابِي"، موسوعة إسطنبول، إسطنبول - ١٩٦٨م، الجزء التاسع، ص ٤٩٢٦.

(٢٨٠) كانت الجوامع التي تؤسسها والذات وأبناء السلاطين في العصر الكلاسيكي ذات منارتين، لكن جامع "السلطنة مِهْرَمَة" الموجود في منطقة "أُذْرَنَة قَابِي" شُيّد عن هذه القاعدة، وإذا كان المعماري "بنان" قد أراد أن يضع جانباً القواعد المتعارف عليها عند بناء جوامع السلاطين - وذلك من خلال الاكتفاء بمنارة مرتفعة للغاية مع تَبَع ضخم ذات خطوط جانبية راقية وفريدة في طرازها - فإنه بالتأكيد قد أراد أن يبعث لنا برسالة يفهم منها روعة ما يشير إليه. (كوبان، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ٤٥٥).

بوضوح في القسم البارز من قاعدة المئذنة فإنها رُققت لاحقاً بعد أن كانت سميكة في أوّل الأمر، وعلى حين كان من اللازم إعادة إنشائها بشكل يتفق مع المقياس الأساسي لها بعد انهيارها في زلزال عام (١٨٩٤م) إلا أنها بُنيت دقيقة أيضاً مثل مآذن القرن التاسع عشر، أما البراويز التي في أسفل الشرفة فقد زُخرفت في نمط القرن السادس عشر<sup>(٢٨١)</sup>.

\*\*\*

وتأخذ الساحة الداخلية لجامع "السلطنة مهريمة" الموجود في منطقة "أدرنه قايي" شكلاً مستطيلاً، وبها محفل للسلطان وزخارف يدوية كما تتميز تلك الساحة الداخلية بمنظر واسع ومضيء نظراً لوجود مائتين وأربع نوافذ إضاءة -جسدية وعادية- أما محراب الجامع المصنوع من الرخام الأبيض فتوجد عليه كتابات وتزيينه نجمة ذهبية ومستنات رخامية سلمية الشكل إلى جانب ثمانية صفوف من الرخام على شكل الجليد المتدلي من السقف، كذلك نجد أن منبر الجامع قد صنع هو الآخر من الرخام الأبيض، وأما أسوار الجامع فتأخذ شكل شبكة تتوسطها عقدة مزينة برسومات هندسية ونجمية، وأما قمة المنبر فذات رأس شبيه بقطعة البقلاوة وتستند إلى أربعة أعمدة من الرخام الملون بالأخضر والأبيض، نجد كذلك أن الكرسي الخشبي في الجامع مزخرف بأشكال هندسية ومزين بزخارف مطعمة بالصدف<sup>(٢٨٢)</sup>.

### ترميم الجامع بدأ في عهد "مندرَس" (٢٨٣)

في كتاب "تاريخ رشيد" يذكر أن قباب جامع "السلطنة مهريمة"

(٢٨١) أبجته، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤١٧.

(٢٨٢) لجنة، جوامع "فاتح" والآثار التاريخية الأخرى، إسطنبول - ١٩٩١م، ص ١٦٦.

(٢٨٣) هو عدنان مندروس (بالتركية: Adnan Menderes) (١٨٩٩م - ١٧ سبتمبر ١٩٦١م) كان رئيساً للوزراء بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠م. أعدمه العسكريون شقاً بعد انقلاب سنة (١٩٦٠م) مع اثنين من أعضاء مجلس وزرائه. (المتروجم)

قد انهارت في الزلزال الكبير الذي وقع عام (١٧١٩م)، كما انهارت كذلك قباب المدرسة الدينية، أما "إحتفالجى (*htifalci*) ضيا باشا" فيذكر أن قسمًا كبيرًا من الجامع والمدرسة الدينية والضريح ومدرسة الصبيان قد تهدم مرةً أخرى في زلزال عام (١٨٩٤م) وتهدمت وتساقطت نصفُ المنارة أيضًا، ومع سقوط هذه الأجزاء المنهارة على القباب التي تعلو مكان الصُفَّة بالجامع فقد تسبَّب ذلك السقوط في انهيار قسم من هذه القباب إلى جانب تصدُّع قسم آخر من الجامع<sup>(٢٨٤)</sup>.

يقول "قونىالى" أنه قد تمَّ البدء في ترميم الجامع عام (١٩٠٧م) وتمَّ تخصيص مبلغ عشرين ألف ليرة ذهبية مبدئيًا، ولكن مع إعلان المشروطة<sup>(٢٨٥)</sup> فقد أُعلِن عن توقُّف عملية الترميم حيث وصل الأمر بعد ذلك إلى أن المدرسة الدينية والحمام والضريح ومدرسة الصبيان قد تحوَّلت في الأربعينيات من القرن العشرين إلى أنقاض.

واعتبارًا من عام (١٩٥٦م) فقد بدأت عملية ترميم هذا الجامع التاريخي أثناء شقِّ طريق "أدزَنه قَاسِي" وذلك في إطار "برنامج ترميم الجوامع القديمة" الذي تبنَّاه رئيس الوزراء "عدنان مندرس (*Adnan Menderes*)"، إلا أن عمليات الإصلاح والترميم قد امتدَّت لسنوات طويلة.

\*\*\*

الفناء الكبير لجامع "السلطنة مِهْرَمَة" يأخذ شكلًا مستطيلًا حيث تبلغ أبعاده ٥٧ X ٢١ متر، كذلك نجد أن الأطراف الثلاثة لهذا الفناء محاطة من الأمام بحُجَرَات المدرسة الدينية ذات الأروقة، حيث نجد في أحد الطرفين اثنتي عشرة غرفة أما في الطرف الآخر فتوجد عشرُ غُرَفٍ

(٢٨٤) أبجته، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

(٢٨٥) المشروطة: اصطلاح عثمانى أطلق على فترة التحول من الحكم الملكي الوراثي إلى الحكم بالدستور.

على الترتيب، ويُعْتَبَرُ الْقِسْمُ الَّذِي بِهِ قَاعَةُ الدُّرُوسِ أَهَمُّ عِلَامَاتِ الْمَدْرَسَةِ الدِّينِيَّةِ، وَيُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الدُّرُوسَ كَانَتْ تُدْرَسُ فِي الْجَامِعِ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى اللَّائِحَةِ الَّتِي تُنَظِّمُ الْعَمَلَ فِي الْوَقْفِ نَجَدُ بِهَا أَنَّ الْمَدْرَسَةَ الدِّينِيَّةَ تَحْتَوِي عَلَى سَبْعِ عَشْرَةَ غُرْفَةً، وَبِهَذَا الشَّكْلِ يَتَضَحُّ أَنَّ بَقِيَّةَ الْغُرَفِ لَمْ تَكُنْ مُسْتَخْدَمَةً، وَاللَّوَاخِجُ الَّتِي تَعُودُ إِلَى أَيْلُول/سِبْتِمْبَرٍ مِنْ عَامِ (١٩١٤م) نَجَدُ بِهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَتَاحِ أَنْ يَسْكُنَ وَيَقِيمَ طَالِبَانِ بِكُلِّ غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي ذُكِرَ أَنَّهَا تَبْلُغُ الْعِشْرِينَ غُرْفَةً، وَفِي عَامِ (١٩١٨م) خُصِّصَتِ الْمَدْرَسَةُ الدِّينِيَّةُ لِتُضَيِّحَ مَأْوَى لَضَحَايَا حَوَادِثِ الْحَرِيقِ، كَمَا تَمَّ اسْتِخْدَامُهَا لِفَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ أَيْضًا كَمَشْفَى. (٢٨٦)

### ضَرِيحٌ "سَمِيزُ أَحْمَدُ بَاشَا"

فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ جَامِعِ "السُّلْطَانَةِ مِهْرَمَة" وَفِي مُتَنَصِفِ بَهْوِ الْجَامِعِ تَوْجَدُ مَدْرَسَةٌ لِلصَّبِيَّانِ أُنْشِئَتْ إِلَى جَوَارِ الضَّرِيحِ، حَيْثُ نَجَدُ أَنَّ تِلْكَ الْمَدْرَسَةَ قَدْ صُمِّمَتْ بِحَيْثُ تَكُونُ عَلَى هَيْئَةِ مَسَاحَتَيْنِ، إِحْدَى هَاتَيْنِ الْمَسَاحَتَيْنِ ذَاتُ قُبَّةٍ، وَالْأُخْرَى ذَاتُ قُبُو، وَعِنْدَمَا نَنْتَقِلُ مِنْ خِلَالِ الْمَمَرِ الَّذِي يَقَعُ بَيْنَ غُرَفِ الْمَدْرَسَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْقِسْمِ الَّذِي تَوْجَدُ بِهِ الْمَنَارَةُ الْأُخْرَى نَجَدُ فِي الْوَاجِهَةِ مُبَاشَرَةً بِأَبِ الْمَدْرَسَةِ الْمَزِينِ بِالْأَحْجَارِ الْحُمْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ وَالَّذِي يَتَمَيَّزُ بِقُوسٍ مُسْتَدِيرٍ، وَنَجَدُ أَنَّ هَذِهِ الْمَسَاحَاتِ مُرْتَبِطَةٌ مَعَ بَعْضِهَا الْبَعْضُ مِنْ خِلَالِ بَابٍ لَهُ عَتَبَةٌ مِنَ الرِّخَامِ وَمُصْنُوعٌ مِنْ خَشَبِ الْجَوْزِ عَلَيْهِ رَسُومَاتٌ هَنْدَسِيَّةٌ مُتَدَاخِلَةٌ.

وَيُظْهَرُ تَصْمِيمُ الْمَدْرَسَةِ وَالضَّرِيحِ سَوِيًّا أَنَّهُمَا أُنْشِئَا بِأَمْرِ مِنَ "السُّلْطَانَةِ مِهْرَمَة"؛ وَأَنَّ الضَّرِيحَ كَانَ لِأَجْلِ عَائِلَتِهَا، أَمَّا مَدْرَسَةُ الصَّبِيَّانِ فَقَدْ أُنْشِئَتْ كَعَمَلٍ خَيْرِيٍّ.



لقد أمكن إنقاذ مدرسة الصبيان هذه من الانهيار من خلال عملية الترميم التي أُجريت لها في ستينيات القرن العشرين وذلك بعد أن كانت قد تحولت إلى حالة مزرية لسنوات طويلة، ويخبرنا إبراهيم حقي قونيالي "أن الكتابة التالية كانت موجودة في وقت سابق حيث دُونَتْ بخطٍ بديع على الحائط الذي يقع في مواجهة الشارع:

"قامت بإنشائها السلطانة مِهْرَمَاءَ،

مدرسة الأولاد الابتدائية."

إلا أن هذه الكتابة لا بدّ وأنها تعود إلى تاريخ حديث. (٢٨٧)

• • •

وفي الضريح المجاور لمدرسة الصبيان والذي نجده يأخذ شكلاً مستطيلاً وكان مغطى في البداية بسقف خشبي يوجد قبر "سمير أحمد باشا" الذي كان زوج السلطانة "عائشة هماشاه" (*Hümâşah*) ابنة "السلطانة مِهْرَمَاءَ"، حيث نجد ذلك القبر إلى جوار قبور أخرى لشخصيات من العائلة، وقد انتهى الحال بالضريح -الذي يُعتبر من أعمال المعمارى "سِنَان"- في السنوات الأخيرة إلى حالة مزرية جعلته يبدو وكأنه قد صار خراباً، حيث نجد أن أسقف الضريح قد صارت مهذمة، أما ما به من توابيت حجرية فأصبحت مبعثرة، وقد ظلّ الحال كذلك إلى أن تمّ ترميم هذا الضريح مع مدرسة الصبيان في ستينيات القرن العشرين، لكنّ الضريح ما زال إلى يومنا هذا على هيئة أربعة جدران وذلك بسبب عدم بناء سقف له حتى الآن.

وفي فناء الضريح يوجد كذلك قبر "خاقاني" (*Hakânî*) محمد بك" الذي أُلّف كتاب "حلية النبي" ﷺ حيث يُعتبر هذا الكتاب من أشهر الأعمال الأدبية الدينية التي خُطّت باللغة التركية في القرن السادس عشر الميلادي (٢٨٨).

(٢٨٧) أبجده، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٨.

(٢٨٨) أرذم، المصدر السابق، الجزء التاسع، ص ٤٩٣٢.

## الحمام المزدوج الذي تحوّل إلى ورشة لتصنيع الخيوط

بناءً على ما يفهم من الأمر الصادر بتاريخ سنة (١٥٦٥م) والذي تمّ إرساله إلى قاضي إسطنبول فقد أنشئ كذلك حمام مزدوج قرب مبنى جامع "السلطانة مِهْرْمَاهُ" وذلك من جهة القبلة، والحمام الذي يُعتبَر من الأبنية التابعة للمجمّع الخيريّ نجده يقع في الطرف الأيسر من شارع "فوزي باشا" الذي يربط اليوم منطقة "فاتح" بمنطقة "أدرنه قايي"، أما القسم الخاص بالرجال في الحمام فيقع في الجهة المطلّة على الشارع، في حين أنّ القسم الخاص بالنساء يمكن الدخول إليه من باب جانبيّ يقع في الجهة الجنوبيّة، أما أسقف هذا الحمام التي تعلوه والمحمولة على أعمدة خشبيّة فقد سُيِّدَتْ لتحلّ محلّ القباب التي تهدّمت من جرّاء الزلزال، وقد تمّ بيع هذا الحمام المزدوج في فترة العصر الجمهوري وأصبح غير تابع لمديريّة الأوقاف، حيث صار قسم من هذا الحمام يُستخدم كمخزن، وقسم آخر كمسكن، وقد انتهى الأمر بهذا الحمام في أواسط الستينات من القرن العشرين إلى أن تحوّل إلى خرابة.

لقد تمّ تحويل قسم -كان يُستعمل في الأصل لخلع الملابس بالحمام- إلى ورشة لتصنيع الخيوط، وذلك بعد أن ظلّ مدّة طويلة على هيئة حطام، إلا أنه وفي نهاية الستينات من القرن العشرين عاد العمل به من جديد بعد أن تمّ ترميمه من قِبَل مالك المكان.

\*\*\*

وفي الكتابة المدونة بتاريخ (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) على السبيل العام الذي أنشأه "جاغالزاده" (Cağalazâde) إبراهيم بك، والذي نجده قد بُني



حمام "السلطنة مِهْرَمَة" (أَدِرْنَه قَايِي/إِسْطَنْبُول)



إلى جِوَارِ حَمَامٍ "السلطانة مِهْرَمَا" يذكر أن هذا السبيل قد بُني من قبل "السلطانة مِهْرَمَا" - لكن وبعد فترة من الزمن تعرّض هذا السبيل للحريق والتخريب والدمار إلى أن توقّف عن العمل تمامًا، فقام بعد ذلك أحد أولاد الواقفين وهو "إبراهيم بك" ببناء هذا السبيل من جديد ليُكَمِّلَ الخير الذي بدأته السلطانة، وليُحِلَّ هذا السبيل الجديد محلّ ذلك القديم<sup>(٢٨٩)</sup>.

\* \* \*

لقد أمرت "السلطانة مِهْرَمَا" بجلب الماء خصيصًا من منطقة "كوتشوك كوي" من أجل تزويد هذا المجمّع الخيري والحمام بالمياه اللازمة، وقد استُخدم هذا الماء بعد ذلك أيضًا في إمداد وتزويد جامعي "آتيك علي باشا" و"نیشانجي" إلى جانب تزويد كثير من الصنابير والمواضع بالماء، وقد ظلت قناة الماء تلك التي جُلِبَتْ من منطقة "أدرنه قايي" مستخدمة حتى ثلاثينات القرن التاسع عشر<sup>(٢٩٠)</sup>.

وفي اللائحة التي تُنظّم عمل الوقف نجد أن هناك اثنين وستين دكانًا في سوق المجمّع الخيري، حيث نجد أنّ هناك ثلاثة وعشرين دكانًا من هذه الدكاكين قد أنشئت تحت مستوى سطح فناء الجامع بحيث كانت تُجاوِرُ الحوائط الشمالية الشرقية والشمالية الغربية من الفناء، ومعنى هذا أن تلك الدكاكين لم يتم بناؤها أثناء عملية التجديد والترميم للجامع وإنما هي مبنية مع الجامع أساسًا، أما الدكاكين الأخرى فقد بُنيت جهة الحمام تحت سطح الفناء الخارجي، ولقد خُصِّصَت عائدات هذه الدكاكين من المال من أجل الإنفاق على المجمّع الخيري.

(٢٨٩) ثورنأ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٤.

(٢٩٠) ثورنأ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.

## قناة للمياه تحت الأرض بتكلفة خمسين مليون في مكة

في العصر العثماني كان من الشائع أن تكون سِيَدَاتُ القصر في المقَدِّمة وإلى جانيهنَّ زوجات الوزراء والولاة والأغنياء وميسوري الحال وكل شرائح المجتمع بما في ذلك زوجات الفقراء وذلك في مسألة التبرُّع بما لديهنَّ من عقارات وممتلكات ومبالغ نقدية لخدمة المشروعات الخيرية، ومن بين هذه المشروعات الخيرية كانت تلك الأوقاف الكبيرة التي خُصِّصَتْ من أجل خدمة الحرمين الشريفين وتلك الأماكن المقدَّسة التي عاش فيها سيدنا الرسول ﷺ، ولقد استغلت "السلطانة مِهْرَمَاءَ" ببراعة ونشاط الفرصة التاريخية التي سنحت لها من أجل مساعدة الناس اللذين يعيشون في تلك البلاد، حيث تمكَّنت من أن تنجز خدمات عظيمة في هذه البقاع المقدسة. (٢٩١)

\* \* \*

وفي السنوات التي تلت ستينيات القرن السادس عشر تعرَّضت قناة المياه التي تسمى "عَيْنُ زُبَيْدَة" (٢٩١) - والتي كان قد تمَّ تجهيزها في مكة المكرمة من قِبَلِ السيدة "زبيدة" زوجة "هارون الرشيد" الخليفة العباسي - إلى الفيضانات والعواصف الرملية ممَّا أدى إلى عدم استعمالها، وقد بادَرَ

(٢٩١) كانت السيدة الأميرة ابنة السلطان "مراد الثاني" هي أولى السيدات من بين نساء القصر العثماني التي تشيّد وتخضع وقفًا من أجل خدمة الحرمين الشريفين.

(٢٩٢) لقد تمكَّنت "السيدة زبيدة" التي عرفت أعمالها الخيرية المتعددة من أن تجلب المياه من الفرات إلى مكة المكرمة وذلك بعد أن أنفقت ما يوازي مليونًا وسبعمئة ألف قطعة ذهبية في عامي (٨٢٨ - ٨٢٩هـ) وبذلك تكون "السيدة زبيدة" قد استطاعت أن تجد إلى حد ما حل لمشكلة المياه التي كانت تقع سواء في عرفات وقت موسم الحج أو في مكة طوال العام. (مصطفى يلجيه (Bilge) "عين زبيدة"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، المجلد الرابع، ص ٢٧٩).

شريف مكة عام (١٥٦٢هـ/١١٦٢م) إلى إرسال خطابٍ إلى عاصمة الدولة العلية، حيث عرضَ في هذا الخطابِ تقريرًا حول ذلك الموضوع وأكّد على ضرورة إصلاح مثل هذه القنوات، وبناءً على هذا الطلبِ من شريف مكة فقد أمر "سليمان القانوني" بما يلزم من أجل القيام بعملية الإصلاح التي تحتاجها تلك القنوات، كما أمر السلطان كذلك بحساب التكلفة المالية اللازمة من أجل القيام بهذه المسألة، كما شكّل السلطان من أجل ذلك لجنة تضم قاضي مكة "عبد القادر ابن علي مغربي" ومعه أيضًا "خير الدين بك" القائم بأعمال جدة.

وقد قام قاضي مكة بعملٍ تقريرٍ عرضه على "السلطان سليمان" ذكر فيه أنه يلزم مبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبية من أجل إصلاح قنوات المياه وإزالة العوائق التي تحول دون ذلك وأيضًا من أجل عمل قنوات جديدة للمياه يتم الإعداد لها<sup>(٢٩٣)</sup>.

وعندما وصل هذا التقرير إلى إسطنبول قرّرت "السلطانة مِهْرَمَة" أن تتكفّل بالأمر ولا تحمّل ميزانية الدولة أية أعباء، فتبرّعت في سبيل هذا الأمر بمبلغ خمسين ألف قطعة ذهبية<sup>(٢٩٤)</sup> وهو ما يزيد عن المبلغ اللازم من أجل إجراء الإصلاحات المطلوبة، كما دفعت "السلطانة مِهْرَمَة" مبالغ من النقود الفضية إلى دفتر دار مصر القديم "إبراهيم بك" والذي تمّ تعيينه ليكون مسؤولاً عن تنفيذ الإصلاحات المُزمع إجراؤها.

وقد أسرع "إبراهيم بك" ببناء فناءٍ مسوّر من أجل إجراء التعديلات،

(٢٩٣) مصطفى جُولُز (Güler)، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية - القرنين السادس عشر والسابع عشر، إسطنبول - ٢٠٠٢م، ص ٦٦.

(٢٩٤) هذا العمل الذي قدر في البداية أنه سيكلف ثلاثين ألف قطعة ذهبية قد تجاوز هذا المبلغ بكثير، وبناءً على بعض المصادر فقد تجاوز المبلغ الذي أنفق أكثر حتى من مائة ألف قطعة ذهبية (وهو ما يوازي اليوم حوالي خمسة وعشرين مليون دولار).

حيث بلغ عدد المهندسين العاملين في هذا المشروع أربعمائة مهندس، كما اتسع نطاق العمل باشتراك العمال والخبراء ليصل عدد العاملين في مدة وجيزة إلى ما يزيد عن ألف شخص، واستمرت هذه العملية التي بدأت من عام (١٥٦٣م) وحتى عام (١٥٧٣م) مدة عشر سنوات بلا انقطاع، وعندما لم يكف الحديد والصلب الخام الذي جلب من مصر سابقاً لأجل البناء، فقد طلبت كمية من إسطنبول عام (١٥٦٨م) لإتمام البناء، كما نقلت باقي المواد المطلوبة إلى مكة عن طريق مصر، ومع انتهاء عملية الإصلاح عام (١٥٧٣م) نظم المفتي "الحسيني" حفل افتتاح، دُعي فيه للدولة العثمانية<sup>(٢٩٥)</sup>.

وبعد هذه الجهود التي بُذلت فإن كمية المياه الذي يتم إيصالتها إلى مكة المكرمة قد زادت بشكل واضح، وذلك بفضل الآبار الأخرى التي تم توصيلها بقناة المياه، كما تم عمل سبل عامة متنوعة في كل مكان من المدينة، حيث كان يتم توزيع المياه على الأحياء العديدة وبشكل مختلف عما كان سابقاً، وعلى هذا النحو فإن هذا الإنجاز لم يكن مجرد عملية تجديد ولكنّه كان في نفس الوقت عملية إحياء وتطوير لقناة المياه التي سُميت "عين زبيدة"<sup>(٢٩٦)</sup>.

(٢٩٥) مصطفى ل. بيلجيه (Bilge)، "عين زبيدة" الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، الجزء الرابع، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢٩٦) لقد حمل السلاطين العثمانيون بعد فتح مصر عام (١٥١٧م) لقب "الخليفة" وكذلك لقب حامي الحجاز، وكان مشروع إحياء قناة المياه "عين زبيدة" في زمن السلطان "القانوني" هو أول الأعمال الكبيرة التي قامت بها الدولة العثمانية من أجل توفير المياه في الحرمين الشريفين، وبحلول عام (١٥٢٣م) بلغ الأمر أن قنوات المياه التي توصل مياه الآبار إلى مكة المكرمة قد أصبحت غير مستخدمة على الإطلاق، وقد أبلغ هذا الأمر إلى السلطان "القانوني" الذي كان هو ولي الأمر في ذلك الوقت، وقد أمر السلطان -الذي تدارك المسألة بسرعة- بإصلاح قنوات المياه وكذلك أمر بتوفير المختصات النقدية والعينية اللازمة، وقد عادت قنوات المياه إلى العمل من جديد عام (١٥٣١م) بعد أن تم الانتهاء من عملية الإصلاح والتي امتدت طوال ست سنوات. (مصطفى جولر، أوقاف الحرمين وأهميتها في الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحث دكتوراه، إسطنبول -، ص ٤١ - ٤٢).

إن مجرى الماء الذي أنشأته السيِّدة "زبيدة" كان بمقدوره أن يأتي بالماء حتى "عرفات" فقط، لكنَّ هذا المجرى لم يكن بمقدوره أن يوصل هذا الماء إلى الأحياء الداخلية بمدينة مكة، أمَّا في عهد "سليمان القانوني" فقد أمكنَ إيصال الماء إلى مركز مدينة مكة مخترقًا الهضاب الصخرية التي بين مكة وعرفات، وبهذه الصورة الجديدة تكون قناة "عين زبيدة" قد أخذت شكلًا جديدًا ومختلفًا تمامًا عما سبق<sup>(٢٩٧)</sup>.

### وقف قراءة القرآن على روح الرسول ﷺ

إلى جانب الأعمال الخيرية الأخرى التي تركتها "السلطانة مهرمات" توجد سبعة أمور مرتبطة بخدمة الحرمين الشريفين، أحد هذه الأعمال الخيرية كان إرسالها كل عام لما يُقدَّر بحوالي ألفين وخمسمائة قطعة من الذهب إلى مكة المكرمة وألفين وخمسمائة قطعة أخرى إلى المدينة المنورة أي ما يصلُ مجموعُه إلى خمسة آلاف قطعة من الذهب وذلك بشرط أن يتم إرسالها إلى الحرمين بواسطة "أمين المحمل الشريف"<sup>(٢٩٨)</sup>، وكان يتم توزيع هذه الأموال على أشد الناس فقرًا من خلال القضاة وعلماء من المذاهب الأربعة<sup>(٢٩٩)</sup>.

كذلك نجد في لائحة أخرى للوقف أن "السلطانة مهرمات" كانت ترسل كذلك بواسطة "أمين المحمل الشريف" ثلاثمائة عملة معدنية من عائد

(٢٩٧) جُولز، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢٩٨) كان هناك شخص يشغل وظيفة إحضار الهدايا والنقود التي يرسلها السلاطين العثمانيون كل عام في وقت الحج من أجل التوزيع على أهالي الحرمين حيث كان يتم جلبها في صورة أفواج مرتبة ثاني من إسطنبول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث توزع هذه الهدايا والأموال كإمانات من قبل ذلك الشخص.

(٢٩٩) ف. جانتجوزل (Cangizel) ذو الفقار، "دراسة عن الأوقاف الخاصة بـ"السلطانة مهرمات"، بحث ماجستير، أنقرة - ١٩٨٩م، ص ٤٩.



الأراضي التي كانت تمتلكها في المكان الذي يُعرَف باسم "تاتار بازاري (Tatar Pazarı)" والتي حوّلتها لتكون من الأوقاف، وكان هناك شرط أن يتم توزيع هذه الأموال بشكلٍ متساوٍ على الفقراء وأصحاب الحاجة والمساكين والعجزة في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة<sup>(٣٠٠)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فقد خصّصت السلطنة مبلغ مائة وتسعة وثمانين عملة فضية لتوزّع على ثلاثة وتسعين شخصاً يُوظّف في مكة والمدينة وخليج الرحمن حيث كان منهم تسعة وثمانين قارئاً للقرآن وثلاثة بدرجة رئيس القراء وثلاثة يعملون في ضبط النص القرآني وتشكيله وثلاثة يعملون كمشرفين، وقد جعلت السلطنة هذا المبلغ يُوزّع عليهم في شكل قطعتين من النقود الفضية لكلٍّ منهم<sup>(٣٠١)</sup>.

\* \* \*

كذلك فقد رغبت "السلطنة مهريمة" في أن يُمنح عشر قطع ذهبية لثلاثين قارئ من خيرة القراء العلماء المطبقين لقواعد التجويد والترتيل وذلك مقابل أن يقرأ كلٍّ منهم عند مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام جزءاً من القرآن عقب صلاة الظهر يومياً، ويهب ثواب قراءته إلى روح "السلطنة مهريمة" صاحبة هذا الوقف.

كذلك فقد كان هناك ثلاثون شخصاً يختتمون قراءة القرآن في المسجد النبوي بالمدينة المنورة والذين رغبت "السلطنة مهريمة" في أن يتم إعطاؤهم عشر قطع ذهبية نظير أن يتم وهب ثواب عشرة أجزاء من التي يقرأونها من القرآن إلى روح سيدنا النبي محمد ﷺ وَوَهَبَ أَيْضاً

(٣٠٠) جُولَز، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٣٠١) ذُو الْفَقَار، المصدر السابق، ص ٧١.

ثواب عشرة أجزاء أخرى إلى روح أصحابه، أمّا ثواب العشرة أجزاء الأخيرة من القرآن فيتمّ وهبها إلى روح صاحبة الوقف - أي "السلطانة مِهْرَمَاءَ" - (٣٠٢)

\*\*\*

لقد كان سلاطين الدولة العثمانية والسلطانات كذلك يُرسلون في الغالب من ينوب عنهم من أجل أداء فريضة الحجّ، وبسبب ما كانت تقتضيه رحلة الحجّ من وقت يتراوح بين الثلاثة والأربعة شهور كانت تستغرقها المسافة من إسطنبول إلى مكة المكرمة نظراً لظروف وإمكانات السفر في ذلك العصر، فقد كان من الصعب بقاء السلاطين بعيدين عن مركز الدولة لمدة طويلة بهذا الشكل، وقد أفتى لهم العلماء بأن في إمكانهم أن يؤدّوا فريضة الحجّ عن طريق توكيل شخص آخر للقيام بتلك الفريضة نيابة عنهم، وهكذا فقد تمكّن السلاطين وزوجاتهم من أداء الحجّ عن طريق الوكالة مستندين إلى تلك الفتوى، بالإضافة إلى ذلك فقد قام السلاطين والسلطانات بإقامة الأوقاف من أجل أن يتمّ الحجّ بالنيابة عنهم كلّ سنة، فنجد أن "السلطانة مِهْرَمَاءَ" قد وظّفت ثلاثة أشخاص لكي يقوموا بالحجّ نيابة عنها، وقد خصّصت لكل واحد منهم مبلغ ستّة آلاف قطعة فضيّة سنوياً، وبذلك يكون مجموع المبلغ الذي خصّصته "السلطانة مِهْرَمَاءَ" لذلك الغرض ثمانية عشر ألف قطعة فضيّة في السنة (٣٠٣).

(٣٠٢) ذو الفقار، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣٠٣) جُولَز، المصدر السابق، ص ١٤١.

## المصادر

Ak, Mahmud, "Vakıf Kurucusu Bir Hanım: Mihrimah Sultan ", *Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, (Özel sayı: Vakıf Medeniyeti Yılı).*

محمود آق، "السيدة مؤسسة الوقف: السلطنة ومِهْرِمَاة"، مجلة الأوقاف، أنقرة - (٢٠٠٦م)،  
(عدد خاص: عام ثقافة الوقف).

Akçay, İlhan, *Ayasofya Camii, Ankara, 1968.*

إِلْحَانْ أَكْجَانِي، "جامع أياصوفيا"، أنقرة - (١٩٦٨م).

Akgündüz, Ahmed-Öztürk, Said, *Kiliseden müzeye Ayasofya Camii, İstanbul, 2006.*

أحمد أَكْغُونْدُوزْ - سعيد أوزتورك، "جامع أياصوفيا من الكنيسة إلى المتحف"، إسطنبول،  
(٢٠٠٦م).

Aksun, Ziya Nur, *Osmanlı Tarihi, İstanbul, 1994, C.I.*

ضيانور أَكْسُونْ، التاريخ العثماني، إسطنبول - (١٩٩٤م)، المجلد الأول.

Aktaş, Ali, *Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1987.*

علي أَكْتاش، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول - (١٩٨٧م).

Baltacı, Cahit, *"Hürrem Sultan ", DİA, İstanbul, 1998, C.XVIII.*

جاهد بَلْطَاجِي، "السلطنة خُرَم"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول،  
(١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر.

Bayat, Ali Haydar, *"Hafsa Sultan ", DİA., İstanbul, 1997, C.XV.*

علي خِينْزْ بَيَاتْ، السلطنة خَفْصَة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -  
(١٩٩٧م)، الجزء التاسع.

Baykal, A. Nur, *"Hürrem Sultan ", Popüler Tarih, 2001, C.II.*

أ. نور ييغال، "السلطانة خُرُم"، مجلة "التاريخ الشعبي"، (٢٠٠١م)، الجزء الثاني، العدد ١٦.

Baykal, A.Nur, "Hürrem Sultan'ı Kanunî mi öldürtü? ", *Popüler Tarih*, 2004, C.IV.

أ. نور ييغال، "هل جعلت" السلطانة خُرُم "زوجها القانوني قاتلاً؟"، التاريخ الشعبي، (٢٠٠٤م)، الجزء الرابع، العدد ٤٤.

Baysun, Cavit, "Mihir ü mâh Sultan ", *MEB İslâm Ansiklopedisi*, İstanbul, 1960, C.VIII.

جايوڤت بايشتون، "السلطانة مهريما"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول - (١٩٦٠م) الجزء الثامن.

Bilge, Mustafa L., "Aynızübeide ", *DİA*, İstanbul, 1992, C.IV.

مصطفى ل. بيلجيه، "عين زيدة" الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (١٩٩٢م)، الجزء الرابع.

Bozdağ, Fahrettin, "Sıbyan Mektepleri ", VIII. Eyüp Sultan Sempozyumu *Tebliğler*, İstanbul, 2004.

فخر الدين بوزداغ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من إصدارات ندوة السلطان "أيوب"، إسطنبول. (٢٠٠٤م).

Busbecq, Ogler G. de, *Kanunî Devrinde bir Sefirin Hatıraları*, Ankara, 1953.

أولجير ج. دي بوسبيك، "ذكريات سفير في عهد" القانوني"، أنقرة، (١٩٥٣م).

Carım, Fuad, *Kanunî Devrinde İstanbul*, İstanbul, 1964.

ترجمة: فؤاد جازم، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول - (١٩٦٤م).

Cezar, Mustafa, "Osmanlı Devrinde İstanbul Yapılarında Tahribat Yapan Yangınlar ve Tâbiî Afetler ", *Türk Sanatı Tarihi Araştırmalar ve İncelemeleri I*, İstanbul, 1963.

مصطفى جزار، الكوارث الطبيعية والحرائق التي دمرت المباني في مدينة إسطنبول في العصر العثماني، بحوث ودراسات تاريخية عن الفن التركي الجزء الأول، إسطنبول - (١٩٦٣م).

Çam, Nusret, *Osmanlı Güneş Saatleri*, Ankara 1990.

نُصرت جَام، الساعات الشمسية العثمانية، أنقرة، (١٩٩٠م).

*Danışmend, İ.Hami, İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, İstanbul, 1961, C.II.*

إسماعيل حامى دَانِشْمَنْد، التسلسل الزمنى المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول، (١٩٦١م).  
الجزء الثاني.

*Demiriz, Yıldız, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Camii ", Sanat Dünyamız, İstanbul, 1980, C.IV.*

يَلْدِيْزْ دِيْمِيْزْ، جامع "السلطنة مِهْرِمَاه" في أسكودار، دار نشر "صنعت دنياماز"،  
إسطنبول، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع، العدد ٢٠.

*Doğan, Sema, "Haseki Külliyesi ", DİA, İstanbul, 1997, C.XVI.*

سَمَا دُوْغَان، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -  
(٢٠٠٣م)، الجزء السادس عشر.

*Eyice, Semavi, "Edirnekapi Camii ve Külliyesi ", İstanbul, 1994, DİA, C.X.*

سَمَاوِي أَيْيَجه، "مجمع وجامع أَذْزَنه قَآبِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية،  
إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء العاشر.

*Eyice, Semavi, "Haseki Hamamı ", İstanbul, 1991, C.IV.*

سَمَاوِي أَيْيَجه، "حمام خَاصَكِي"، إسطنبول، (١٩٩١م)، الجزء الرابع.

*Güler, Mustafa, Osmanlı Devleti'nde Haremeyn Vakıfları (XVI. ve XVII. Yüzyıllar), İstanbul, 2002.*

مصطفى جُولُز، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية - القرنين السادس عشر والسابع  
عشر، إسطنبول - (٢٠٠٢م).

*Gökbilgin, Tayyib, "Hurrem Sultan ", MEB. İslâm Ansiklopedisi, İstanbul, 1964, C.V-I.*

طَيْب جُوكْبِيلْجِيْن، "السلطنة خُرَم"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول  
- (١٩٦٤م)، الجزء الخامس.

*Haskun, M. Nermi, Yüzyıllar Boyunca Üsküdar, İstanbul, 2001, C.I.*

م. نَرْمِي خُصْكَآن، أسكودار على مر العصور، إسطنبول - (٢٠٠١م). الجزء الأول.

*Hasırcıoğlu, Talat, "Osmanlı sarayında saltanat süren kadınlardan Hürrem Sultan ", Resimli Tarih Mecmuası, İstanbul, 1956.*

طَلَعْت خَصِرْجِي أَوْغْلُو، "السلطنة خُرَم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن  
السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول، (١٩٥٦م)، الجزء السابع، العدد، ٧٣.

*Kangal, Selmin, Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, Özel Sayı.*

سَلَمِينُ كَنْجَالُ، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة - (٢٠٠٦م).

*Kanuni Sultan Süleyman, "Hürrem Sultan'a Gazel ", COĞİTO, İstanbul, 1995.*

سلطان سليمان القانوني، "أشعار غزلية للسلطانة "خُزَم"، منشورات COĞİTO، إسطنبول، (١٩٩٥م)، العدد: ٤.

*Komisyon, Fatih Camileri ve Diğer Tarihî Eserler, İstanbul, 1991.*

لجنة، جوامع "فاتح" والآثار التاريخية الأخرى، إسطنبول - (١٩٩١م).

إسماعيل حقي قُونيالي، تاريخ "أسكودار" مع الآثار والكتابات المدونة، إسطنبول - (١٩٧٦م)، الجزء الأول.

*Kuban, Doğan, 'Haseki Külliyesi ', Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.*

دُوغَان كُوبَان، "مجمع خاضكي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

*Kuban, Doğan, "Mihrimah Sultan Külliyesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.*

دُوغَان كُوبَان، "مجمع مهرماه سلطان"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

*Kuran, Abdullah, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Külliyesi ", Boğaziçi Üniversitesi Dergisi, İstanbul, 1975, C.III.*

عبد الله كُورَان، "مجمع السلطنة يهْرَمَاة في أسكودار"، مجلة جامعة "بُوغَازِيْجِي"، إسطنبول، (١٩٧٥م)، الجزء الثالث.

*Kütükoğlu, Mübahat S., XX. Asra Erişen İstanbul Medreseleri, Ankara, 2000.*

مُوبَاهَاث كُوتُوكُ أُوغُلُو، "مدارس إسطنبول التي بقيت حتى القرن العشرين"، أنقرة - (٢٠٠٠م).

*Mehmed Hemdemi Çelebi, Solakzâde Tarihi, Ankara, 1989, C.II.*

محمد هَمْدَمِيْ چَلَبِي، تاريخ ضوَلَاك زَاذَه، أنقرة - (١٩٨٩م)، المجلد الثاني.

Natshe, Yusuf Said, 'My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice ', (Muhteşem Âbide, Haseki Sultan İmareti ile ilgili Hatıralarım) Kudüs, 2000.

يوسف أفندي ناتشي، "الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطنة خاصكي لإطعام المحتاجين My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice"، القدس، (٢٠٠٠م).

Orman, İsmail, "Mihrimah Sultan Külliyesi ", DİA, İstanbul, 2005, C.XXX.

إسماعيل أوزمان، "مجمع السلطنة بمهرماه"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (٢٠٠٥م)، الجزء الثلاثون.

Ölçer, Nazan, 'Bir Savaşın ve Barışın Sergisi ', Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi Özel Sayı, Ankara, 2006.

نازان أولجز، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، انقره، (٢٠٠٦م).

Özer, Deniz, "Hürrem Sultan'ın gazabına uğrayan bir sadrazam ", Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1988.

دينيز أوزر، الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلطنة "خُرُم"، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول - (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤.

Özdemir, Mehmed Niyazi, Türk Tarih Felsefesi, İstanbul, 2008.

محمد نيازي أوزدميز، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول - (٢٠٠٨م).

Özkeçeci, İlhan, "Üsküdar Mihrimah Sultan Camii ve Külliye İçindeki Türbelerin Süsleme Programı Üzerine Bir Değerlendirme ", Uluslar arası Üsküdar Sempozyumu, İstanbul, 2008, C.II.

إلخان أوزكيجي، نظرة على شكل الزينة في الأضرحة الموجودة بمجمع وجامع "السلطنة بمهرماه" بمنطقة "أسكودار"، الندوة الدولية عن "أسكودار". إسطنبول - (٢٠٠٨م). الجزء الثاني.

Öztuna, Yılmaz, Osmanlı Devleti Tarihi, Ankara, 1998, C.I.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، انقره - (١٩٩٨م)، المجلد الأول.

Öztuna, Yılmaz, Türkiye Tarihi, C.VI.

يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا، الجزء السادس.

Sakaoğlu, Necdet, 'Mihrimah Sultan ', Düünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.

نَجْدَتْ صَفَا أَوْغُلُو، "السلطانة مِهْرَمَاة"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

Singer, Amy, *Osmanlı'da Hayırseverlik, İstanbul 2004.*

امي سنجر، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، إسطنبول، (٢٠٠٤م).

Şehsuvaroğlu, Haluk, *Asırlar Boyunca İstanbul, Cumhuriyet Gazetesi'nin Tarih İlavesi.*

هَالُوكْ شَاهْسُوغُلُو، إسطنبول على مر العصور، الملحق التاريخي لجريدة الجمهورية.

Tanışık, İbrahim Hilmi, *İstanbul Çeşmeleri, İstanbul 1943, C. I.*

إبراهيم حلمي طَانِيْشِيْكَ، شيل إسطنبول، إسطنبول - (١٩٤٣م)، الجزء الأول.

Tanman, M. Baha, *"Haseki Hamamı ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.*

م. بَاهَا طَانْمَانْ، "حمام خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، (٢٠٠٣م).  
الجزء الرابع.

Taşkıran, Nimet, *Hasekinin Kitabı, İstanbul, 1972.*

نَيْمَةُ طَاشْكِيْرَانْ، كتاب "حصاكي"، إسطنبول - (١٩٧٢م).

Togan, A. Zeki Velidi, *Tarihte Usul, İstanbul, 1985.*

أ. دَاخْمَد ذَكِي وَلِيْدِي تَوْجَانْ، "الأساس في التاريخ"، إسطنبول - (١٩٨٥م).

Uçtum, Nejat R., *"Hürrem ve Mihrimah Sultanların Polonya Kralı II. 'a yazdıkları mektuplar ", Belleten, 1980, C.XLIV.*

نَجَاة ر. أُوْجْتُمْ، الرسائل المكتوبة من قبل السلطانتين "خَزَم" و"مِهْرَمَاة" إلى ملك بولندا  
زيجموند الثاني، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد، ١٧٥.

Uluçay, Çağatay, *Osmanlı Sultanlarına Aşk Mektupları, İstanbul, 2001.*

جَاغَاثَايْ أُولُوْجَايْ، رسائل العشق للسلطين العثمانيين، إسطنبول - (٢٠٠١م).

Uluçay, Çağatay, *Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara, 1980.*

جَاغَاثَايْ أُولُوْجَايْ، نساء وبنات السلاطين، أنقره، (١٩٨٠م).

Uzunçarşılı, İ.Hakkı, *Osmanlı Tarihi, Ankara, 1975, C.II.*

إسماعيل حَقِي أُوْزُونْ جَازِيْشِيْلِي، التاريخ العثماني، أنقره، (١٩٧٥م)، المجلد الثاني.



Yıldırım, Nuran, "Haseki Dârüşşifası ve Hastanesi ", *Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.*

نُورَانُ يِلْدِيرِمُ، "مستشفى ومستوصف حَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

Yücel Erdem, "Edirnekapısı Camii ", *İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1968, C.IX,*

أَزْدَمُ يُوْجُلُ، "جامع أَدِرْنَه قَاصِي"، موسوعة إسطنبول، إسطنبول - (١٩٦٨م)، الجزء التاسع.

Zülfikâr, F. Cangüzel Mihrimah Sultan 'ın VGMA'da bulunan Vakfiyelerinin Değerlendirilmesi, *Yüksek Lisans Tezi, Ankara, 1989.*

ف. جَانْجُوزُلُ ذُو الْقَقَارِ، "دراسة عن الأوقاف الخاصة بـ"السلطنة مِهْرِمَاه"، بحث ماجستير، أنقره - (١٩٨٩م).